القيَم الإنسانيَّة المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثَّلاث: (اليهوديَّة، المسيحيَّة، الإسلام) من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم السَّلام وتعاليمهم في القرآن الكريم والكتاب المقدَّس

د. محمد بسام الزين

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى، 1446هـ - 2025م

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق
الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل
المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبياً
بكافة أنواع الاستخدام وغير ذلك من الحقوق
الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من الناشر.

mbzuh

mbzuh

MBZ university for humanities

MBZ university for humanities

www.mbzuh.ac.ae

القيَـم الإنسانيَّـة المشتركـة بين الرسـالات السَّماويَّـة الـثَّـلاث: (اليهوديَّـة، المسيحيَّـة، الإسـلام) مـن خـلال دراسـة حيـاة الأنبيـاء عليهم السَّلام وتعاليمهـم في القرآن الكريم والكتاب المقدَّس

إعـداد
د. محمـد بسـام الزيـن

أبوظبـــي، 1446هـ - 2025م

أصل هذا الكتاب

أطروحة أُعِدَّت لنيل درجة التخصص الدقيق
الدُّكتوراه في الدِّراسات الإسلاميَّة

تخصص التَّفسير وعلوم القرآن الكريم

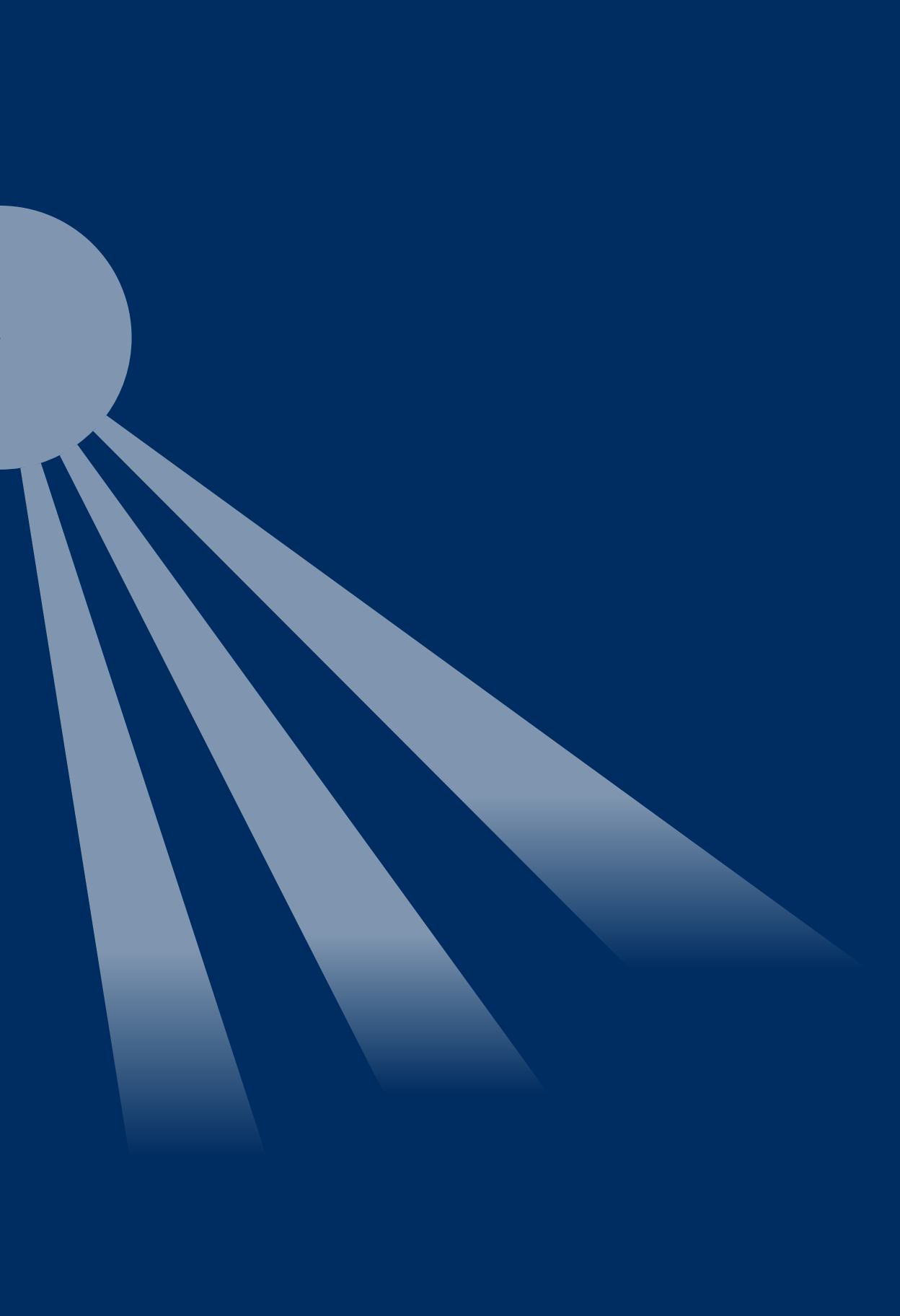

الإهـداء

- إلى صاحب الخلق العظيم ﷺ، المبعوث رحمة للعالمين، أسوة العاملين.
- إلى روح الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -طيب الله ثراه-؛ مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة على قيم التسامح والتعايش الإنساني بين الإنسان وأخيه الإنسان.
- إلى قائد الوطن، صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان؛ رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، رجل الإنسانية، وراعي وثيقة الأخوة الإنسانية، وباني بيت العائلة الإبراهيمية.
- إلى كل الباحثين والمعنيين بالتعريف بحقيقة الدين وجوهره، وصورته الحضارية الراقية، وقيمه الإنسانية النبيلة.

أتشـرَّف بإهـداء هـذا الكتـاب.

المقدمــة

وفيها:

- أولاً: مشكلة البحث.
- ثانياً: أبعاد المشكلة البحثية.
- ثالثاً: الفرضيات.
- رابعاً: سبب اختيار الموضوع وأهميته.
- خامساً: أهداف البحث.
- سادساً: الدراسات السابقة.
- سابعاً: خطة البحث.
- ثامناً: منهج البحث.
- تاسعاً: المصطلحات الأساسية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسَّلام على سيدنا محمد بن عبد الله، رسول رب العالمين، ورحمة الله للعالمين، وعلى أبيه سيدنا إبراهيم، وعلى أخويه سيدنا موسى وعيسى، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وآل كلٍّ وصحب كلٍّ أجمعين، وبعد:

فهذه مقدّمةٌ لبحثٍ عنوانه: "القيَم الإنسانيَّة المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثَّلاث: (اليهوديَّة، المسيحيَّة، الإسلام)، من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم السلام وتعاليمهم في القرآن الكريم والكتاب المقدَّس"، حاوية: مشكلة البحث، وأبعادها، وفرضيَّات حلِّها، وسبب اختيار الموضوع، وأهمِّيته، وأهداف البحث، والدراسات السابقة له، وخطَّة البحث، ومنهجه، وتعريفات المصطلحات الأساسية الواردة فيه، وبعض الصعوبات التي واجهت الباحث في إعداده.

أولاً: مشكلـــة البحـــث

راجت في مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي نظرية تصادم الحضارات، وطفت على سطح السياسات في بعض البلدان الغربية، وغُرس في أذهان كثير من الناس أن المشكلة الرئيسية تكمن في تضارب تعاليم الأديان السَّماويَّة، وأن الصراعَ صراعُ أديان، وأن تعاليم كل دين تتجلى في أن يأمر أتباعه بقتل أتباع الدين الآخر!

وفي محاولة للحد مِن تفاقم الأزمة تنادَتِ العديدُ من المنظمات الدولية والإنسانيَّة إلى عقد مؤتمرات دولية لحوار الأديان، وكأن المشكلة في الأديان وتعاليمها!

وقد دفع هذا للبحثِ عن القيم المشتركة بين شرائع الأنبياء عليهم السلام؛ من خلال القرآن الكريم الكتاب المنزَّل على خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وبعض ما ورد على لسانه ﷺ من أحاديث صحيحة، وبعض ما جاء في نصوص الكتاب المقدس وفقراته في العهدَين القديم والجديد. ومعلوم أن العهد القديم يتضمن الأسفار التي يعتقد اليهود أنها توراة موسى عليه السلام، وأما العهد الجديد فيحوي الأناجيل الأربعة التي يعتقد المسيحيون أنها من تعاليم السيد المسيح عليه السلام.

ثانيـاً: أبعـاد المشكلـة البحثيـة

أدت هـذه المشـكلة الفكرية والاجتماعية والحضاريـة إلى حـدوث توترات مصطنعة بين الشرق والغـرب، وأصبحـت النظرة العدائية توجّـه شريحـة مـن الناس في كلٍّ من العالم الإسلامي والغرب، وسـادت في الشـارع الغربي نظريـةُ الخـوف من الإسلام "إسلام فوبيا"، حتى صنعـت تيـارات من المتطرفين الذين نفـذوا عمليات قتل جماعي في المسـاجد والمراكز الإسلامية، في مقابل ما يمارسـه المتطرفون المنسـوبون إلى الإسلام من إرهـاب وجرائم بمبررات دينية.

ثالثـاً: الفرضيــات

إن التصور المغلوط أو المنقوص عن الدين الإلهي والشرائع السَّماويَّة يؤدي إلى التصادم، وإن الله تعالـى هو مصـدر تعاليـم جميـع الأنبياء عليهم السلام، فقد أنزل عليهم شرائعه بواسطة الوحي، ولا يُتصور في العقل أن يأمر نبياً بقتل أتباع نبي آخر! وهذا معنى قوله تعالى: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**[1].

وإنِ ادَّعـى أحـدٌ وجودَ مثل هـذه التعاليم؛ فباعتقـادي: إمـا أن تكـون غيرَ صحيحةِ النسـبةِ إلى الأنبيـاء؛ وإمـا أنهـا لم تُفهَم في سـياقِها التشريعي والتـاريخي؛ إذ تمَّ تفسيرُهـا على غير الوجـه الـذي أنزلَه اللهُ تعـالى على أنبيائه ورسـله عليهم السلام.

(1) سورة البقرة، الآية: (285).

رابعاً: سبب اختيار الموضوع وأهميته

بقراءة سريعة في مشكلة البحث تتبيَّن أهميةُ الموضوع، لنصلَ إلى ضرورة تشخيص المشكلة ومحاولة وضع أسس لعلاجها.

ولعل أهمية البحث تتجلى في القيمة العلمية المضافة له من خلال النقاط الآتية:

1. **القيمة العلمية الأكاديمية:**
لم يعثر الباحثُ – بعد استنفاد الجهد في الاستقصاء والبحث – على رسالةٍ أكاديميَّة جامعة للقيم الإنسانيَّة المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة.

2. **القيمة المنهجية:**
يتبعُ البحثُ منهجَ الدراسة التحليلية لحياة أنبياءِ الرسالات السَّماويَّة الثلاث ﷺ من خلال القرآن الكريم والنصوص الدِّينيَّة في الكتب المقدَّسة لدى أتباع الرسالات السَّماويَّة الأخرى؛ للوصول إلى اكتشاف درجة التكامل القيميّ في بناء الإنسان.

3. **القيمة الموضوعية:**
يلتزم البحث بالحياد والموضوعية في معالجة القيم الإنسانيَّة المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث، بحسب ما يتوصَّل إليه البحث، ويتجاوز ما قد يقع في شراكه من التوجيه المسبَق للنصوص الدِّينيَّة.

خامساً: أهـداف البحـث

المساهمة في رأب الصدع وردم الهوة بين التصورات المتضاربة والمتطرفة حول تعاليم الأديان السَّماويَّة، ودحض فكرة أن الصراعَ صراعُ أديان، وأن تعاليم كل دين تتجلى في أن يأمر أتباعه بقتل أتباع الدين الآخر، وذلك من خلال تسليط الضوء على القيم الإنسانيَّة المشتركة بين الشرائع السَّماويَّة الثلاث، وإبراز المشتركات الإنسانيَّة فيما بينها.

سادسـاً: الدراســات السابقــة

كثر في العقد الأخير من القرن الحادي والعشرين تناول موضوع القيم المشتركة بين الأديان السَّماويَّة، من خلال مؤتمرات ومنتديات علميَّة، ومقالات بحثية أو فكريَّة، ووثائق دوليَّة، ومن ذلك على سبيل المثال:

1. **المنظومة القيميَّة في الأديان وبناء المجتمعات:** ندوة نظَّمها قسمُ دراسات الأديان في بيت الحكمة ببغداد بتاريخ: (2021/2/17م)، تهدف إلى التعريف بالمنظومة القيميَّة المتمثِّلة بالقيم الإنسانيَّة، والقيم السَّماويَّة، والمشتركات بين الأديان السَّماويَّة، وبيان آثارها في بناء الحضارات قديماً وحديثاً، شارك فيها 54 باحثاً من أساتذة الجامعات في العراق، وتناولَتْ أوراقاً بحثيَّة حولَ المنظومة القيميَّة في العقائد الدِّينيَّة، وآثار القيم العليا السَّماويَّة والإنسانيَّة في بناء الحضارات، والمشتركات القيميَّة وأثرها في حوار الحضارات، والقيم الإنسانيَّة وإقرارها بين الأديان والمجتمعات، وتوصَّلَت الندوة إلى توصيات، من أبرزها: تعزيز القيم الإنسانيَّة في المجتمع، وتعظيم دورها في الفرد من خلال البيت والمدرسة والمؤسسات التربويَّة، مع التركيز على قيم العدل والسَّلام والتعايش السِّلمي والإخاء والمحبَّة والتعاون؛ لأنها استمدَّت أصالتها من الأديان السَّماويَّة[1].

وعلى الرغم من أهمية محاور الندوة؛ إلا أنها تبقى في إطار الحوارات وتبادل الأفكار، ولم تأخُذ الطابعَ الأكاديميَّ في البحث العلمي.

2. **الأصول المشتركة للأديان:** كتاب من تأليف حسن السّيد عزّ الدّين بحر العلوم، يقع في (173) صحيفة، قامت بنشره دارُ العارف في بيروت، عام 2013م، ثم قدم الباحث خالد العبادي قراءة تقييمية له، توصل فيها إلى أنَّ معرفةَ المشترك بين الأديان ضرورةٌ ملِحَّةٌ يفرضُها الواقعُ المُعاش، وإلّا فستتَّسِع هوَّة الاختلاف؛ مما يؤدِّي إلى انتشارِ التّطرُّف الدّينيّ.

ومن أبرز المشتركات الدِّينيَّة بحسب الكاتب: فكرة الاستخلاف؛ الّتي تعني أنَّ اللهَ جعل الإنسان خليفةً في الأرض، وأوكل إليه مهمَّة إعمارها، وفق الشّروط والضّوابط الّتي جاءت بها الشَّرائع السَّماويَّة، وتوصل إلى تشكيل منظومة القيم التي تشترك فيها الأديان كلّها، فأتباع الأديان كلُّهم يتسابقون إلى فعل الخيرات، وتقديم الخدمات، أو تخصيص الأموال لبعض المراكز العلميَّة لتطوير خدماتها لبني الإنسان، كما أن جميع الأديان تدعو معتنقيها إلى المحبَّة، وجعلها الرّابط الحقيقيّ بين بني الإنسان.

ويختم الكاتب بالدعوة إلى وحدة البشر على الأرض، وتجاوز الفروقات المفتَعلة الّتي من أسبابها: ظلمُ الإنسان لأخيه الإنسان، وفهمه الضّيّق لدين الله، مؤكداً أنَّ الظّرفيّة الحاليّة تفرض على أصحاب الأديان إعادةَ النّظرِ في لغة الخطاب الدّينيّ؛ كي يتسنّى التّقريب بين الأديان، ومدّ جسور الحوار والتّسامح؛ لتكون هذه الأديان بذلك وسيلة للجمع، لا للدَّمار والعنف[2].

---

(1) يُنظَر: موقع بيت الحكمة، http://baytalhikma.iq/News_Print.php?ID=1364 ، تاريخ الزيارة: (2021/6/17م).

(2) يُنظَر:حسن السّيّد عزّ الدّين بحر العلوم، الأصول المشتركة للأديان، بيروت، دار العارف، الطبعة الأولى، (2013م)، (ص: 9) وما بعدها.

ويُعَدُّ الكتاب مرجعاً مهماً في تأصيل القيم المشتركة بين الأديان السَّماويَّة، إلا أنه بقي محصوراً في تسليط الضوء على معالجة العنف والتطرف، ولم يعالج الجوانب الأخرى للقيم الإنسانيَّة المشتركة.

3. **قيَم ثقافة السَّلام في الدِّيانات السَّماويَّة في حوار الدِّيانات:** كتاب من تأليف المفكر والفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري، يقدم فيه مقاربة تهدف إلى رسم معالم القيم المشتركة بين الدِّيانات السَّماويَّة الثَّلاث، التي من شأنها أن تُساهِم في إرساءِ ثقافة السَّلام في عالمنا المعاصر الذي يواجه الإنسانُ فيه تحديات شتى.

وقد استند في مقاربتِه إلى ما قرَّره علماءُ أصول الدين في أن الدِّيانات السَّماويَّة إنما جاءت لتقرير مصالح الناس، المتمثلة في **ثلاثة أصناف:**

- الصنف الأول: مصالح ضرورية لوجود الإنسان المادي والمعنوي، وسموها: "الضروريات"؛ ضروريات الحياة.
- الصنف الثاني: مصالح يحتاج إليها الإنسان لاستقامة حياته مادياً ومعنوياً، وسموها: "الحاجيات".
- الصنف الثالث: مصالحُ ترتقي بحياة الإنسان نحو مزيد من السَّعة والفضل والتحلي بكل ما هو مفيد وحسن، وسموها: "التحسينات".

ووجد علماء الأصول أن الدِّيانات الثلاث تتفق كلها حول ربط الغاية من بعثة الرُّسل والمصالح التي تقررها شرائعهم بالضروريات الخمس الآتية: (حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ النسل، حفظ المال، حفظ الدين)، وجعلوا من هذه الضرورات الخمس أصلاً للحاجيات والتحسينات والتكميلات.

وتوصَّل الجابري إلى أن هذه القيم الأساسيَّة المشتركة بين الدِّيانات السَّماويَّة الثلاث يمكن الانطلاق منها لتشييد ثقافةٍ للسلام، تضمن السَّلام للإنسان مع نفسه، ومع نسله، وجيرانه، وتضمن للشعوب والأمم السَّلام والعيش المشترك في إطار التعاون والتضامن[1].

وعلى الرغم من أهمِّية البحث وعمقهِ الفكري والفلسفي؛ إلا أنه توقَّفَ عند قيمة السَّلام، ولم يتطرَّق إلى سائر القيم الإنسانيَّة المشتركة.

ومن هنا تبرز أهمية البحث الذي يتناول القيم الإنسانية المشتركة بين الرسالات السماوية الثلاث.

---

(1) يُنظَر: محمد عابد الجابري، مقال: "قيم ثقافة السَّلام في الدِّيانات السَّماويَّة في حوار الدِّيانات"، قسم الدراسات، موقع "حكمة"، https://hekmah.org، منشور بتاريخ: (2016/12/09م)، تاريخ الزيارة: (2021/6/17م).

سابعـاً: خطـــة البحـــث

المقدمـــة، وفيها:

أولاً: مشكلة البحث.
ثانياً: أبعاد المشكلة البحثية.
ثالثاً: الفرضيات.
رابعاً: سبب اختيار الموضوع وأهميته.
خامساً: أهداف البحث.
سادساً: الدراسات السابقة.
سابعاً: خطة البحث.
ثامناً: منهج البحث.
تاسعاً: المصطلحات الأساسية.

التمهيـــد: التكامل بين الأنبيـاء عليهم السلام في بنـاء الإنسانيَّـة.

البـاب الأول: القيـم الإنسانيَّـة في حيـاة نبي اللـه موسى عليه السلام من خـلال القـرآن الكريـم.
وفيه فصلان:

الفصل الأول: حيـاة موسى عليه السلام في القرآن الكريم.
المبحث الأول: موسى عليه السلام من النشأة إلى الرسالة
المبحث الثاني: موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون
المبحث الثالث: موسى عليه السلام مع بني إسرائيل.
المبحث الرابع: موسى عليه السلام مع العبد الصالح

الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة في حياة موسى عليه السلام.
المبحث الأول: ميثاق القيم الإنسانيَّة في قصة موسى عليه السلام.
المبحث الثاني: القيم الإنسانيَّة في صلة الإنسان بربه سبحانه.
المبحث الثالث: القيم الإنسانيَّة في العلاقة مع الآخر.

الباب الثاني: القيم الإنسانيَّة في حياة روح الله عيسى ابن مريم عليه السلام من خلال القرآن الكريم.
وفيه فصلان:

الفصل الأول: حياة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم.
المبحث الأول: التعريف بشخصية عيسى عليه السلام.
المبحث الثاني: ولادة عيسى عليه السلام.
المبحث الثالث: رسالة عيسى عليه السلام.
المبحث الرابع: معجزات عيسى عليه السلام.
المبحث الخامس: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء.

الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة في حياة عيسى عليه السلام.
المبحث الأول: قيمة تربية الإنسان.
المبحث الثاني: قيمة حفظ الأعراض.
المبحث الثالث: قيمة حياة الإنسان، والحفاظ على صحته.
المبحث الرابع: قيمة إطعام الجائعين.
المبحث الخامس: قيمة السَّلام.

الباب الثالث: القيم الإنسانيَّة في رسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ من خلال القرآن الكريم، ومقارنتها بالقيم الإنسانيَّة في الكتاب المقدس. وفيه فصلان:

الفصل الأول: معالم سيرة خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ في القرآن الكريم.
المبحث الأول: التعريف بمحمد ﷺ من خلال القرآن الكريم.
المبحث الثاني: معنى شهادة أن محمداً ﷺ رسول الله.
المبحث الثالث: الوظائف الأساسية لرسالة سيدنا محمد ﷺ.
المبحث الرابع: مواقف قريش من رسالة سيدنا محمد ﷺ، وحكمته ﷺ في التعامل معها.

الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث.
المبحث الأول: قيمة النفس الإنسانيَّة وكرامتها.
المبحث الثاني: قيم السَّلام والتسامح والإحسان بين بني الإنسان.
المبحث الثالث: قيمة التراحم بين بني الإنسان.
المبحث الرابع: القيم الأسريَّة والاجتماعيَّة.

الخاتمـــة، وفيها:

نتائج البحث.
توصيات البحث.

الفهـــارس.

ثامناً: منهج البحث

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي، والوصفي، والتحليلي التاريخي أو الوثائقي؛ إذ هي المناهج الملائمة في كتابة مثل هذه الأبحاث.

حيث قمتُ باستقراءٍ عامّ لمظانِّ المعلومات والمصادر والمراجع، واتبعتُ الأسلوب التاريخي أو الوثائقي؛ فجمعت المعلومات التي قام عليها البحث من خلال دراسة الكتب السماوية والوثائق والآثار والنقول... في موضوع البحث.

بعد ذلك قمت بدراستها وتحليلها، وأعدت ترتيبها وتنظيمها داخل البحث، وقدَّمت النتيجة التي وصلت إليها، وأبديت رأيي - باختصار - فيما يلزم إبداء الرأي فيه.

أما المنهج العام المتَّبع في التوثيق البحثيّ فتمثَّل في:

1. عزو الأقوال والآراء إلى أصحابِها، وذلك بالرُّجوع إلى المصادر المعتبَرة، وتحرِّي الدقّة والأمانة في النقل، وعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من المصحف الشريف، بذكر السورة، ورقم الآية (بين قوسين) في الحاشية.
2. تخريج الأحاديث والآثار - المرفوعة، والموقوفة، والمقطوعة - بالإحالة على مواضعها في مظانها التي أخذتُ منها مع التعليق عليها إن لَزِم، فإذا كان الحديث في الصحيحين - أو أحدهما - اكتفيتُ بالإحالة إلى مصدره دون إثبات الحكم عليه.
3. التعريف بالمرجع أو المصدر في الحاشية عند أول ورود له وحسب؛ وذلك بذكر اسم مؤلفه، واسمه، ومحقِّقه، وبلد النشر، والدار الناشرة، ورقم الطبعة، وتاريخها، ثم رقم الصحيفة التي نقلتُ منها ما استفدتُ بين قوسين (ص: 0)، أو الجزء والصحيفة بين معقوفين هندسيين [0/0]، وما لم أثبته من بيانات الكتاب السابقة فهو ساقط من النسخة التي اعتمدت.
4. وضع الفهارس اللازمة للبحث، وتشتمل على:
   - فهرس المصادر والمراجع، وفيه: (المراجع المطبوعة، والإلكترونية، والدراسات والأبحاث، والصحف المجلات).
   - فهرس الموضوعات

تاسعاً: المصطلحات الأساسية

1. تعريف القيم:

القِيَم في اللغة جمع قيمة، ومعناها: ثمن الشيء بالتقويم (بالواو)؛ لأنه يقوم مقام الشيء، ويقالُ: قوَّمتُ السلعةَ، أي: ثمَّنتُها وقدَّرتُها، وقد وردَ هذا المعنى في الحديث الشريف عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: (غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا لَهُ: لَوْ قَوَّمْتَ لَنَا سِعْرَنَا؟ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُقَوِّمُ - أَوْ الْمُسَعِّرُ -، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُفَارِقَكُمْ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي مَالٍ وَلَا نَفْسٍ**»[1]، والمعنى: لو سعَّرتَ لنا، أي: لو حدَّدتَ لنا قيمةَ السلعة[2].

ويقال: "عَدَّلَ القَسَّامُ الأَنْصِبَاءَ لِلْقَسْمِ بَيْنَ الشُّرَكاءِ، إذا سَوَّاهَا عَلى الْقِيمَ"[3].

وقدتأتي "القيم" بمعنى الاستقامة،وهي اعتدال الشيء واستواؤه،ومنه قول كعب بن زهير:

فَهُمْ صَرفُوكم حينَ جُزْتُمْ عنِ الهُدَى
بأَسْيافِهِمْ حَتَّى اسْتَقَمْتُمْ عَلى القِيَمْ

والاستقامة تعني العمل بطاعة الله تعالى، والالتزام بهدي النبي ﷺ، وهذا معنى قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}**[4]، وأما القوام في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}**[5]، فقد فُسِّرَ بالعدل[6].

قال الطبري في جامع البيان: "وأما قوله: **{وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}** فإنه النفقة بالعدل والمعروف"[7]، وقال القرطبي: "والحسن في ذلك هو القوام، أي: العدل"[8].

وقد جاءَتْ لفظةُ "القيم" في قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[9]، ومعناها ديناً مستقيماً لا عِوج فيه[10]. ومنه قوله تعالى: **{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}**[11]، "والقيمة: من القوامة، وهي غاية الاستقامة".

---

(1) أخرجه الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: 241هـ)، في مسنده، مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم: (11809)، وقال الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 807هـ)، في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، (1414هـ، 1994م)، [99/4]: "رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجال الطبراني رجال الصحيح".
ومن حديث أنس بن مالك ﷺ، أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب البيوع، باب: ما جاء في التسعير، رقم: (1314)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

(2) يُنظَر: أبو الفيض، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي (ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، [7869/1].

(3) يُنظَر: المصدر السابق نفسه، [7310/1].

(4) سورة الأحقاف، الآية: (13).

(5) سورة الفرقان، الآية: (67).

(6) يُنظَر: ابن منظور، محمّد بن مكرم بن علي (ت1414هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، مادة: قوم، [496/12].

(7) يُنظَر: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطّبري (ت310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن = تفسير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسّسة الرّسالة، الطبعة الأولى، (1420هـ - 2000م)، [301/19].

(8) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، (1384هـ - 1964م)، [73/13].

(9) سورة الأنعام، الآية: (161).

(10) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [67/5].

(11) سورة البينة، الآية: (5).

وكذلك فإن المِلَّة القَيِّمة تعني المُعتدلة[1]، وفسرت الآية: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، أي: الأُمَّة القَيِّمة، المستقيمة العادلة[2].

وقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قرئت: ﴿دِينًا قَيِّمًا﴾ بالتشديد، والقَيِّمُ: "وصف مبالغة قَائم؛ بمعنى معتدل غير معوج، وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز؛ لأنَّ المرءَ إذا قامَ اعتدلَت قامتُه، فيلزم الاعتدال القيام"[3].

وقد تأتي "القَيِّمُ" وصفاً للحساب الصحيح والعدد المستوي[4]؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[5]، أي: ذلك الحساب القيِّم الصحيح والعدد المستوي[6].

وقد تأتي "القَيِّمُ" بمعنى القائم بالأمر المصلح له، كما يُقالُ عن القَيِّم بالنّاقَةِ، أي: الذي يقومُ عَلَيْها، ويُصْلِحُ شَأْنَهَا[7].

كما يوصَفُ عريفُ القبيلة بأنه القَيِّمُ بأُمورِ القَبِيلَةِ أَو الجَماعةِ من النّاسِ يَلِي أُمُورَهُم، ويَتَعَرَّفُ الأَمِيرُ منهُ أَحْوالَهُم[8].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الرجال قوامين على النساء؛ ليقوموا بواجب النفقة والرعاية والتربية، كما في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[9]، وذكر بعضُ المفسرين: " والقوّام والقيم بمعنى واحد، والقوام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير"[10].

وقد سمى الله سبحانه ذاتَه العليةَ باسم "القيُّوم" في مواضع متعددة، منها قوله: تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[11]، وتعني هذه الصفة: "القائم بتدبير أمر خَلقه في إنشائهم ورزْقهم، وعلمه بأَمْكِنتهم"[12]، كما وصفَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريم بأنه كتاب قَيِّم، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ● قَيِّمًا﴾[13]، ويلاحَظ أن الله تعالى قد نفى عن القرآن الكريم العوجَ، وأثبتَ له الاستقامةَ، ذلك أن المستقيم قد يكون فيه انحناء، كالطريق المعبَّد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات؛ لكنه ينحرفُ تارة يميناً وشمالاً مع استقامته، فهو مع الاستقامة لم يخلُ من العِوَج، ولكن ما ينتفي عنه العوج وتثبت له الاستقامة هو الطريق الذي يمتدُّ في اتجاهٍ واحدٍ بدون أيِّ اعوجاج إلى أي الجانبين، مع

---

(1) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: قوم، [496/12].
(2) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [541/24].
(3) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، (1997م)، [211/5].
(4) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: قوم، [164/13].
(5) سورة التوبة، الآية: (36).
(6) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [99/20].
(7) يُنظَر: أبو الفيض، تاج العروس، مصدر سابق، مادة: سفسر، قال: "والسفسير: هو القيّم بالأمر المصلح له..."، [2955/1].
(8) يُنظَر: المصدر السابق نفسه، [6018/1].
(9) سورة النساء، الآية: (34).
(10) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت516هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، (1417هـ - 1997م). (207/2).
(11) سورة البقرة، الآية: (255).
(12) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: قوم، [496/12].
(13) سورة الكهف، الآية: (1 - 2).

استقامته في سطحه، وهكذا هو القرآن، فهو الصراط المستقيم.

ومن خلال ما تقدم في معاني كلمة (**القيم**) يتبين أن المقصود بها في البحث: تلك **المبادئ الأساسية والمعايير الموجهة لسلوك الفرد، التي تساعده على تقويم معتقداته وأفعاله والوصول إلى المثل العليا والسمو الخلقي للذات والمجتمع** [1]، وتتضمن مجموعة من المبادئ التي تهتمُّ باحترام الإنسان، وحريّاتِه، وحقوقِه، وعِرضِه، ودمِه، وعقلِه، ونسلِه.

وقد وصف الحق سبحانه الكتب السَّماويَّة السابقة بأنها كتب قيِّمة، فقال: **{فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}** [2]، أي: مستقيمة بتعاليمها، كما وصفَ القرآنَ الكريمَ بأنه أقومُها، قال تعالى: **{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}** [3]، ومعنى أقوم أي: أعدل [4].

وهذا يعني أن جميع الكتب السَّماويَّة قد احتوت على مبادئ مشتركة تحقق العدل في الحياة الإنسانيَّة، وجاء الإسلام بمجموعةٍ من القِيَم؛ ليرفعَ من قيمةِ الإنسان وشأنِه ويحفظ له كرامته ومكانته، وهذا ما يظهر جلياً في القرآن الكريم؛ الذي يَنظرُ إلى الإنسان بوصفِه جُزءاً لا يتجزَّأ من المُجتمَع.

2. تعريف الإنسانيَّة:

كلمة (الإنسانيَّة) فيها نسبة إلى الإنسان، وهو الكائن الحي المفكر، وجمعه أناسيّ [5]، قال تعالى: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ● لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}** [6]، وكلمة (الناس) "اسم للجمع من بني آدم، واحده (إنسان) من غير لفظه، وقد يراد به الفضلاء دون غيرهم مراعاة لمعنى الإنسانيَّة" [7]، كما في قوله تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ}** [8]، وقد أتَت في الآية بمعنى الفضلاء من البشر، "أصحابَ محمدٍ وأتباعَه من المؤمنين المصدِّقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديقِ بالله" [9].

وقد وردت كلمة "الإنسان" في القرآن الكريم في اثنين وأربعين موضعاً، ويمكن ترتيبها على النحو الآتي:

1) **الإنسان في مرحلة العدم**، قال تعالى: **{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}** [10].

2) **خلق الإنسان:** ذكر القرآن الكريم عدة حقائق تتصلُ بخلق الإنسان، منها:

أ. خلق الإنسان من ماء: قال تعالى:

---

(1) ينظر: مغلي السلمي، أحلام عتيق، مقالة مفهوم القيم وأهميتها في العملية التربوية وتطبيقاتها السلوكية من منظور إسلامي، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، مجلة العلوم التربوية والنفسية، العدد الثاني، المجلد الثالث، يناير 2019 ص (82).

(2) سورة البينة، الآية: (3).

(3) سورة الإسراء، الآية: (9).

(4) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [240/7].

(5) يُنظَر: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثالثة، [63/1].

(6) سورة الفرقان، الآية: (48 - 49).

(7) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مصدر سابق، [848/2].

(8) سورة البقرة، الآية: (13).

(9) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [293/01].

(10) سورة الإنسان، الآية: (1).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾[1].

ب. خلق الإنسان من تراب: قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾[2].

ج. خلق الإنسان من طين: قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[3].

د. خلق الإنسان من صلصال: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[4].

هـ. مراحل خلق الإنسان: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ● ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ● ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[5].

و. **خلق الإنسان في أحسن صورة:** قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ● الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ● فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[7].

3) **جسم الإنسان:** ذكر القرآن الكريم عدداً من أعضاء جسم الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ● وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[8].

4) **حواس الإنسان:** ذكر القرآن الكريم من حواس الإنسان السمع والبصر والذوق واللمس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾[11].

5) **تفضيل الإنسان:** قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[12].

6) **صفات الإنسان:** ذكر القرآن الكريم عدداً من صفات الإنسان، ومنها:

أ. التسرُّع والعجلة: قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[13]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾[14].

---

(1) سورة الفرقان، الآية: (54).
(2) سورة الروم، الآية: (20).
(3) سورة السجدة، الآية: (7).
(4) سورة الحجر، الآية: (26).
(5) سورة المؤمنون، الآية: (12 - 14).
(6) سورة التين، الآية: (4).
(7) سورة الانفطار، الآية: (6 - 8).
(8) سورة البلد، الآية: (8 - 9).
(9) سورة الإنسان، الآية: (2).
(10) سورة النساء، الآية: (56).
(11) سورة الأنعام، الآية: (7).
(12) سورة الإسراء، الآية: (70).
(13) سورة الأنبياء، الآية: (37).
(14) سورة الإسراء، الآية: (11).

ب. حُب الإنسان للجدل: قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

ج. ظلم الإنسان وجهله: قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

د. ميل الإنسان للفرح والفخار: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[3]، والمعنى: هو فرح الإنسان بالنعمة بطراً بها، وفخره تكبراً على الناس بسببها[4].

هـ. حب الإنسان للمال: قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[5]، والخير في الآية معناه المال[6].

و. تقتير الإنسان وبخله: قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾[7].

ز. غدر الإنسان ونقضه للعهد: قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[8].

ح. يأس الإنسان وقنوطه: قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[9].

ط. نكران الإنسان للنعم: قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾[10].

ي. هلع الإنسان وجزعه عند المصيبة، ومنعه للخير عند تملُّكه النعمة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ● إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ● وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[11].

ك. جحود الإنسان وإنكاره للآخرة: قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ● بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ● بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ● يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[12].

ل. نسيان الإنسان: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[13]، ومن مظاهر نسيانه أنه يتنكَّر للماضي، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو

---

(1) سورة الكهف، الآية: (54).
(2) سورة الأحزاب، الآية: (72).
(3) سورة هود، الآية: (10).
(4) ينظر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، ط2، (1420هـ - 1999م)، [309/4].
(5) سورة العاديات، الآية: (8).
(6) ينظر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [467/8].
(7) سورة الإسراء، الآية: (100).
(8) سورة لقمان، الآية: (32).
(9) سورة فصلت، الآية: (49).
(10) سورة الشورى، الآية: (48).
(11) سورة المعارج، الآية: (19 - 21).
(12) سورة القيامة، الآية: (3 - 6).
(13) سورة طه، الآية: (115).

إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[1]، ومن نسيانه أنه لا يفكر في المستقبل بل ينكره، ولذلك أنكر الآخرة، كما قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ● وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}**[2].

ويلاحظ أن صفات الإنسان المذكورة في القرآن الكريم تميل إلى السلبية، ولعل السبب في ذلك يرجعُ إلى أن الإنسان يمكن تشبيهه بأرض خصبة تحتاج إلى عناية وحراثة وبذار وسقي حتى تثمر وتنتج، ويدل على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من صفات إيجابية كبيرة للإنسان بعد أن دخل مصنع الإيمان في مدرسة الأنبياء، فقد أصبح بعدها مؤمناً بالله تعالى واليوم الآخر، يوفي بالعهد ولا ينقض الميثاق، يتخلى عن بخله وحرصه، ويقيم العدل دون مراعاة لحظوظ نفسه وأهله وعشيرته، ويضبط شهواته، ويقوم بأمانة الاستخلاف؛ فيعمر الأرض بالخيرات كما أمره الله تعالى.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ● إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ● وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ● إِلَّا الْمُصَلِّينَ ● الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ● وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ● لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ● وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ● وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ● إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ● وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ● إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ● فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ● وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ● وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ● وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ● أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ}**[3].

أما كلمة (**الإنسانيَّة**) فإنها تعني خلاف البهيمية، ويقصد بها جملة الصفات التي تميز الإنسان، أو جملة أفراد النوع البشري التي تصدق عليها هذه الصفات[4]، مثل القدرة على المَحبَّة، والتعاطُف مع الآخرين، والإبداع...، ويمكن تعريفها بأنّها **ما يتميَّز به الإنسان من الأعمال الصالحة التي يقومُ بها، فعندما يُقال عن شخص ما: إنّه يقوم بعمل إنساني؛ فمعنى ذلك أنّه يقوم بعمل يعود بالخير على البشر.**

3. تعريف الدين:

الدين في اللغة مشتق من الفعل الثلاثي دان، وتأتي لفظة الدين على عدة معان، ومنها: المجازاة، وهذا معنى الحكمة: كَمَا تَدِينُ تُدان أي: كَمَا تُجازي تُجازَى، ويوم الدّين هو يوم الجزاء، ومن معاني لفظة الدين الطَّاعَةُ والانقياد والخضوع، (دان له) بمعنى خضع له، وأطاعه، وقد تأتي كلمة الدين بمعنى الحُكمُ، كما جاء في القرآن

---

(1) سورة الزمر، الآية: (8).
(2) سورة يس، الآية: (77 - 78).
(3) سورة المعارج، الآية: (19 - 35).
(4) يُنظَر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مصدر سابق، [63/1].

الكريم: **{كَذَلِكَ كِدنا لِيوسُفَ ما كانَ لِيَأخُذَ أَخاهُ في دينِ المَلِكِ}**[1]، وتأتي أيضاً بمعنى المِلّة،[2]. ومنه قوله تعالى **{هُوَ الَّذي أَرسَلَ رَسولَهُ بِالهُدى وَدينِ الحَقِّ}**[3] وقد يأتي الدّين بمعنى "الْعَادة مُطلقًا، وَهُوَ أوسع مجالاً، ويُطلق على الْحق وَالْبَاطِل أَيْضا.[4] بدليل قوله تعالى: **{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}**[5] وقوله سبحانه: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**[6] ففي الآيتين دليل على أن كل ما يتخذه الناس ويتعبدون له يصح أن يسمى ديناً، حيث سمَّى الله ما عليه مشركو العرب من الوثنية ديناً.

والدين في الاصطلاح: عرفه الكفوي بأنه "وضع إلهي سائق لِذَوي الْعُقُول باختيارهم الْمَحْمُود إِلَى الْخَيْر بِالذَّاتِ، قلبياً كَانَ أَو قالبياً، كالاعتقاد وَالْعلم وَالصَّلَاة"[7] ويشمل أصول الشرائع وفروعها، ولم يبتعد التهانوي عن هذا التعريف فذكر بأنه «**وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه، إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل، وهذا يشمل العقائد والأعمال**»[8] وهذا التعريف للدين يقتصر على الدين السماوي، وإن الأديان السماوية مصدرها واحد هو الله تبارك وتعالى، وبالتالي فهي متفقة في أصولها كما قال تعالى: **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}**[9] فلا تختلف رسالات السماء من حيث العقيدة والإيمان بالله الواحد، وباليوم الآخر وبالملائكة وما أنزله الله سبحانه من كتب سماوية، وما تتضمنه من أخلاق وقيم، **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}**[10] لكنها تختلف من حيث الشرائع المناسبة للزمان والمكان والأقوام قال تعالى **{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}**[11] ويدخل في البحث ما أوحى الله به إلى الأنبياء الثلاثة (موسى وعيسى ومحمد) عليهم صلوات الله أجمعين كما سيأتي ذكره في تعريف تعاليم الأنبياء.

4. رسالات الأنبياء عليهم السلام:

الأنبياء: جمع نبي، وهو مشتق لغة من النبأ وهو الخبر، والنبي مُخبِر عن الله تبارك وتعالى، وقيل: من النبوة، وهو الارتفاع، لارتفاع رتبته، وإنما كان كذلك لأنه ارتفع على غيره[12].

---

(1) سورة يوسف، الآية: (76).
(2) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: دين، [164/13].
(3) سورة التوبة، الآية: (33).
(4) ينظر: الكفوي أبو البقاء، الكليات، مصدر سابق، [443/1].
(5) سورة آل عمران، الآية: (85).
(6) سورة الكافرون، الآية: (6).
(7) الكفوي أبو البقاء، الكليات، مصدر سابق، [443/1].
(8) التهانوي محمد بن علي الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان بيروت الطبعة الأولى: 1996 ، [814].
(9) سورة الشورى، الآية: (13).
(10) سورة البقرة، الآية: (285).
(11) سورة المائدة، الآية: (48).
(12) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: نبأ، [162/1].

والنبي في الاصطلاح: إنسان ذكر حر من بني آدم سليم عن منفر طبعا، أوحي إليه بشرع يعمل به وإن لم يؤمر بتبليغه. وأما الرسول فيعرف بما ذكر لكن مع التقييد بقولنا (وأمر بتبليغه) فبينهما العموم والخصوص المطلق؛ لأن كل رسول نبي ولا عكس. وجعل بعضهم الرسول أعم[1].

وَإِن إِرْسَالَ الرُّسُلِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل الرسل إلى عباده؛ ليهديهم إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: **{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ}**[2]، وإن من حكمة إرسال الرسل إقامة الحجة على الناس حتى لا تكون لهم حجة إذا ابتعدوا عن جادة الصواب، قال تعالى: **{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}**[3].

وإنه ما من قوم إلا وقد بعث الله إليهم رسولاً يبشرهم وينذرهم، قال تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}**[4]، وقد قصَّ الله سبحانه أخبار عدد محدود من الأنبياء والمرسلين لا يتجاوز 25 نبياً ورسولاً، ليقتدي النبي محمد ﷺ بكمالات أفعالهم، ويستفيد من تجاربهم، قال تعالى: **{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ● وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ● وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ● وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ● وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ● ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ● أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ● أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}**[5].

وهناك عدد كبير من الأنبياء والمرسلين إلى أقوام لم يذكرهم القرآن الكريم، قال تعالى: **{وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ}**[6]، ومع إيماننا بوجود رسل إلى الأقوام الآخرين؛ إلا أننا نعتقد أن ما ذكره القرآن الكريم من تجارب الأمم السابقة يعدُّ كافياً من حيث الدروس المستفادة والقيم في بناء الإنسانيَّة.

---

(1) ينظر: الباجوري، إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي (المتوفى: 1276 هـ) حاشية الباجوري المسماة تحفة المريد على جوهرة التوحيد، تحقيق د. علي جمعة محمد الشافعي، دار السلام، 2002 - المجلد 1 - الصفحة 33.

(2) سورة البقرة، الآية: (213).

(3) سورة النساء، الآية: (165).

(4) سورة فاطر، الآية: (24).

(5) سورة الأنعام، الآية: (83 - 90).

(6) سورة النساء، الآية: (164).

وإن المقصود في البحث بحياة الأنبياء عليهم السلام قصصهم، وسيقتصر البحث على قصص أنبياء الرسالات السماوية الثلاث: (اليهودية والمسيحية والإسلام) التي وردت في القرآن الكريم، ذلك أن الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ركنٌ من أركان الإيمان، فمن كذب نبياً واحداً فكأنما كذب جميع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: **{وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ}**[1]، قال الزجاج: "يَدُلُّ هذا اللفظ على أَن قوم نوح قد كَذَّبوا غير نوح عليه السلام بقوله: "الرُّسُل"، ويجوز أَن يُعْنى به نوح وحدَه؛ لأَن من كَذَّب بنبيٍّ فقد كَذَّب بجميع الأَنبياء عليهم السلام؛ لأَنه مخالف للأَنبياء؛ لأَن الأَنبيـاء يؤمنـون بالله وبجميع رسله عليهم السلام"[2].

ويقصد برسالات الأنبياء ما ذكره القرآن الكريم في قصصهم مع أقوامهم، وما أنزل عليهم من كتب سماوية، وما أوحى به إليهم من تشريعات ربانية، وقد سمى القرآن الكريم عدداً من الكتب السَّماويَّة، ومنها:

أ. **صحف إبراهيم:** قال تعالى: **{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ● صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}**[3]، ومما ورد فيها من تشريعات ما ذكر في قوله تعالى: **{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ● وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ● أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ● وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ● وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ● ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ● وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ● وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ● وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ● وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ● مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ● وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ● وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ● وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ● وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ● وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ● وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ● وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ● فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ● فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ● هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى}**[4].

ب. **زبور داوود:** قال تعالى: **{وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}**[5].

ج. **التوراة،** وقد أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ}**[6]، وقد ذكر اسم التوراة في القرآن الكريم (11) مرة، ومما ورد فيها من تشريعات ما ورد في قوله تعالى: **{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ● وَكَتَبْنَا**

---

(1) سورة الفرقان، الآية: (37).
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: رسل، [281/11].
(3) سورة الأعلى، الآية: (18 - 19).
(4) سورة النجم، الآية: (36 - 56).
(5) سورة الإسراء، الآية: (55).
(6) سورة الأنبياء، الآية: (48).

عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[1].

د. **الإنجيل**، وقد أنزله الله تعالى على سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، قال تعالى: **{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}**[2].

ويعتقد المسلمون أن التوراة التي أنزلها الله على سيدنا موسى عليه السلام، وكذلك الإنجيل الذي أنزله الله على سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام؛ يخلو من نسبة البُنوَّة لله، وعقيدة التثليث، والفداء والصلب، وغير ذلك، وقد بين القرآن الكريم تبرؤ سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام من نسبة ذلك إلى رسالته، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ● مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}**[3].

وعلى الرغم من ذلك؛ فإن الباحث في العهدين القديم والجديد في الكتاب المقدس الذي يحوي أسفار التوراة والأناجيل الأربعة: (مرقس - متى - يوحنا - لوقا) سيجد فيها بعضاً مما صح من تعاليم سيدنا موسى عليه السلام والسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد جاء في القرآن الكريم وكلام الرسول العظيم سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ ما يؤيد هذه النصوص والتعاليم الصحيحة، ولذلك فإن البحث سيعتمد على النصوص الواردة في الكتاب المقدس؛ للبحث عن القيم الإنسانيَّة المشتركة.

* * *

(1) سورة المائدة، الآية: (44 - 45).
(2) سورة المائدة، الآية: (46).
(3) سورة المائدة، الآية: (116 - 117).

التَّمْهيـد:
التّكامُـل بَين الأَنبِيـاء عليهم السَّلام
في بِنَـاء القِيَـم الإِنْسَانِيَّـة

تقوم فكرة البحث على افتراض وجود تكامل بين شرائع الأنبياء عليهم السلام من حيث بناء القيم الإنسانيَّة، كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»**[1].

وانطلاقاً من هذا الحديث يتصور الإنسان نفسه أمام بناء حضاري كبير، متين في أساسه، شامخ في عظمته، مرصوص في بنيانه، رائع في هندسته، متناسق في ألوانه، جميل في مناظره، استغرق بناؤه أحقاباً طويلة، وتعاضدَت في إنشائه خبرات المهندسين، وجهود البنّائين، وأيدي العاملين على مر العصور، وتعاقب الأجيال؛ إذ إنه في كل جيل يرسل الله تعالى من يبني فيه لبنة، ويزيد فيه حسنة؛ حتى تكامل البناء من جميع جوانبه.

هذا البناء الشامخ المتكامل هو الإنسان؛ إذ سخر الله سبحانه له ما في الأرض جميعاً من بحار وأنهار، وجبال وأشجار، وطير وحيوان، وسماء وهواء، ومخلوقات وكائنات؛ ليقوم بواجب عمارة الأرض وبنائها، ويحسن أداء الأمانة التي حمَّلَهُ اللهُ إياها بمقتضى عبوديتهِ الخالصة لله تعالى.

وقد زود الله هذا الإنسان بقدرات هائلة، ووهبه صفات عظيمة، ومَنَّ عليه بالعقل والحرية، وأودع فيه ملكاتٍ تُعينُه على أداءِ مهمتِه المنوطة به، وأرسلَ إليه الرسل عليهم السلام؛ ليجعلوا منه الإنسان الفاضل، فقاموا عليهم السلام ببناء عقيدته وأخلاقه، وتهذيب سلوكه وصفاته، وتنمية عقله وملكاته، واستغلال طاقاته وقدراته، والحد من كبريائه وعنفوانه، ليعمر ولا يدمر، ويبني ولا يهدم، ويصلح ولا يفسد، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}**[2].

وإن الدارس لسير الأنبياء عليهم السلام ليجد أنهم قد تعاونوا جميعاً في بناء الإنسان؛ إذ قام كل نبي بما أوحى الله إليه ببناء لبنة في صرح الإنسانيَّة، بدءاً من آدم عليه السلام وانتهاءً بخاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، الذي وضع آخر لبنة اكتمل بها البناء، ولم يعد بعده من حاجة إلى أنبياء ومرسلين؛ لأن الهدف من إرسال الرسل هو بناء الإنسان، وقد اكتمل بناؤه، فانقطع الوحي، وختمت الرسالات السَّماويَّة بالإسلام.

---

(1) أخرجه البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (المتوفى: 256هـ)، في صحيحه: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، (1422هـ)، في كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيّين ﷺ، رقم: (3535).

(2) سورة البقرة، الآية: (30).

ومن خلال نظرة إلى حياة الأنبياء في القرآن الكريم؛ يمكن ذكر بعض اللبنات على سبيل المثال لا الحصر:

1. فقد بنى آدم عليه السلام لبنة التوبة؛ ليبين كيف تكون علاقة الإنسان بربه حين يعصيه وينساه، قال تعالى: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}**[1].

2. وبنى نوح عليه السلام لبنة الصبر الطويل في ترسيخ الإيمان بالله؛ إذ لبث في قومه **{أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}**[2]، حتى إذا لم يلدوا إلا فاجراً كفاراً دعا عليهم، **{فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}**[3]، كما بنى عليه السلام لبنة الحفاظ على النوع من خلال صناعته لسفينة النجاة التي حمل فيها زوجين اثنين من الكائنات.

3. وبنى هود عليه السلام لبنة تسخير الحضارة والقوة في ظل العبودية الخالصة لله تعالى؛ إذ دعا قومه إلى التمسك بحبل الله، والقيام بواجب الإعمار في الأرض، فقال لهم: **{وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[4].

4. وبنى صالح عليه السلام لبنة القضاء على الإسراف ببناء اقتصاد قوي، يقوم على ترشيد الاستهلاك لأهم مصدر من مصادر الطاقة والحياة، ألا وهو الماء، **{وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ}**[5].

5. وبنى شعيب عليه السلام لبنة الاستقامة في المعاملات الاقتصادية؛ إذ قال لقومه: **{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ● وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ● وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}**[6].

6. وبنى إبراهيم عليه السلام لبنة الطاعة الكاملة، والاستسلام المطلق لرب العالمين، إذ وضع زوجَه هاجر وطفلَها الرضيع في الصحراء بوحي من الله سبحانه لبناء البيت العتيق، كما بنى عليه السلام لبنةَ الحوار الفكري لإسقاط الخرافة، وإثبات حقيقة الإيمان بالله، فأبطلَ عبادة الظواهر الكونية، وعبادة الأوثان والأصنام، ورفعَ القواعد من البيت مع ابنه إسماعيل، وتوجَّهَ إلى الله بالدعاء قائلاً: **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ● رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}**[7].

7. وبنى لوط عليه السلام لبنة العلاقات الجنسية السليمة، وتطهير المجتمع من الفاحشة والرذيلة؛ إذ قال لقومه: **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ● وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}**[8]

(1) سورة البقرة، الآية: (37).
(2) سورة العنكبوت، الآية: (14).
(3) سورة العنكبوت، الآية: (14).
(4) سورة الأعراف، الآية: (69).
(5) سورة القمر، الآية: (28).
(6) سورة الشعراء، الآية: (181 - 183).
(7) سورة البقرة، الآية: (127 – 128).
(8) سورة الشعراء، الآية: (165 - 166).

8. وبنى يوسف عليه السلام لبنةَ الصبر في العلاقات الأسرية، والصبر عن الحرام، والعفة عند الإغراءات، والإحسان إلى المسيء، والعفو عند المقدرة، والتسامح الأسري؛ إذ قال لإخوته: **{لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}**[1].

9. وبنى داوود عليه السلام لبنة العدل في الحكم والقضاء؛ إذ قال الله تعالى له: **{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}**[2]، كما بنى لبنة الصناعة العسكرية لاستخدامها في التحصين الدفاعي لحماية الأوطان، كما قال القرآن الكريم عن داوود عليه السلام: **{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ}**[3].

10. وبنى سليمان عليه السلام لبنةَ قيام المملكة الصالحة، وإقامة العدل فيها، ورعاية كل فرد من أفرادها، حتى وصلَت رعايته فيها إلى الطير في جو السماء، قال تعالى: **{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ}**[4]، دون نسيان للنمل في أوكارها: **{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}**[5].

11. وبنى موسى عليه السلام لبنة الحكمة، وإبطال الخرافة بالعلم وقوة الحجة، والقضاء على السحر والشعوذة بالبرهان والأدلة، والهجرة في طلب العلم مهما بعدَت المسافات، **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا}**[6].

12. وبنى عيسى عليه السلام لبنة التسامح والإحسان، والعناية بالضعفاء والمساكين، فكان يمسح رؤوس اليتامى، ويخفف آلام المرضى، وقد امتن الله عليه بقوله تعالى: **{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}**[7].

13. وقد استفاد خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ من جهودهم جميعاً، وقصَّ اللهُ عليه من أخبارهم ليقتديَ بكمالات أفعالهم، كما قال الله عز وجل له: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}**[8]، فوضع اللبنة الأخيرة في إطلاق العقل والاعتماد على الجهود الذاتية للإنسان في صناعة حياته، وبناء مستقبله وفق هدي القرآن العظيم.

---

(1) سورة يوسف، الآية: (92).
(2) سورة ص، الآية: (26).
(3) سورة الأنبياء، الآية: (80).
(4) سورة النمل، الآية: (20).
(5) سورة النمل، الآية: (19).
(6) سورة الكهف، الآية: (60).
(7) سورة المائدة، الآية: (110).
(8) سورة الأنعام، الآية: (90).

ويلاحظ من خلال حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم مع أقوامهم أنهم جميعاً قد اشتركوا في ترسيخ القيم الإيمانيةبالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك تشابهوا في أسلوب البناء، وطريقة الإقناع، والحوار الذي يوقظ العقل، وينفض غبار الجهل، ويحارب التقليد الأعمى، ويدعو إلى التجديد، ويصحح مسار الإنسان إذا انحرف عن جادة الصواب، وإن اختلفت مناهجهم وشرائعهم في ذلك.

ومما يُستأنس به ويَشهَد لما يفترضه البحث من وجود تكامل بين الشرائع ما أخرج ابن أبي شيبة[1] والطَّبري[2] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: (كنت أشهد اليهود يومَ مِدْرَاسِهم[3]، فأَعْجَبُ من التَّوراة كيف تُصدِّق الفُرقان، ومن الفُرقان كيف يُصدِّق التَّوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطَّاب، ما من أصحابك أحدٌ أحبّ إلينا منك، قلتُ: ولِمَ ذلك؟ قالوا: إنَّك تغشانا وتأتينا، قال: قلتُ: إنِّي آتيكم فأَعْجَبُ من الفُرقان كيف يُصدِّق التَّوراة، ومن التَّوراة كيف تُصدِّق الفُرقان!) الحديث.

وبعد وفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي من السماء، وختم النبوات والرسالات السَّماويَّة؛ يحتاج هذا البناء العظيم إلى صيانة وترميم، وتجديد وتطوير،وهذا موكول إلى العلماء

كما جاء في الحديث الشريف : **«يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ»**[4].

وبعد البحث في شرائع الأنبياء عليهم السلام من خلال القرآن الكريم يمكن القول:

إن هناك قيماً مشتركة فيما بينهم، علموها لأتباعهم، وهذه الدروس لم تختلف مبادئها من زمان نبي إلى زمان نبي آخر، غير أن هنالك – أيضاً – قيماً أخرى تميزت بها رسالة كل نبي، وسلطت الضوء عليها أكثر من غيرها، وذلك بحسب الأحوال التي كان يعيشها المجتمع الذي بعث إليه ذلك النبي، ويحاول هذا البحث دراسةَ حياة أنبياء الرسالات السماوية الثلاث؛ سيدنا موسى، وعيسى، ومحمد عليهم صلوات الله أجمعين، من خلال آيات القرآن الكريم، ومعرفة القيم التي تميزت بها رسالة كل نبي، وتسليط الضوء على القيم الإنسانيَّة المشتركة بين تعاليمهم المذكورة في القرآن الكريم والكتاب المقدس.

***

---

(1) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي (المتوفى: 235هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، (1409هـ)، [347/20].

(2) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [381/2].

(3) المِدْرَاس: هو البيت الّذي يَدرُسُ اليهود فيه، والمراد بيوم المدراس اليوم الذي يجتمعون فيه لدراسة دينهم. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري (ت 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، بيروت، المكتبة العلمية، (1399هـ - 1979م)، مادة: درس، [250/2].

(4) أخرجه البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، في السنن الكبرى، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، (1424هـ - 2003م)، [353/10]، وصحّحه الإمام أحمد بن حنبل كما نقل عنه الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، في شرف أصحاب الحديث، (ص:29)، وابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشّافعي، أبو الفضل (ت 852هـ)، في لسان الميزان، تحقيق دائرة المعارف النظامية - الهند، نشر في بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، (1390هـ - 1971م)، [77/1].

البَـــاب الأَوَّل:

القِيَـم الإِنْسَانِيَّـة فِـي حَيَـاة نَبِـيّ اللَّـهِ مُوسَـى عَلَيْهِ السَّلَام مِن خِـلال القُـرْآن الكَرِيـم

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَام في القرآن الكريم.
- الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

الفصـل الأول:
حيـاة موسـى عليه السلام في القـرآن الكريـم

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: سيرة موسى عليه السلام من النشأة إلى الرسالة.
- المبحث الثاني: موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون.
- المبحث الثالث: موسى عليه السلام مع بني إسرائيل.
- المبحث الرابع: موسى عليه السلام مع العبد الصالح.

المبحث الأول:
حياة موسى عليه السلام من النشأة إلى الرسالة

وردت قِصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم 166 مرة، في 36 سورة.

م	السورة	رقمها	أرقام الآيات
1	البَقَرَة	2	49-61 و63-64 و67-73 و87 و92-93 و108
2	آلُ عِمْران	3	84
3	النِّسَاء	4	153-154 و164
4	المَائِدَة	5	20-26
5	الأَنْعَام	6	84 و91 و154
6	الأَعْرَاف	7	103-156 و159-171
7	يُونُس	10	75-93
8	هُود	11	17 و96-99 و110
9	إِبْراهِيم	14	5-8
10	الإِسْراء	17	101-104
11	الكَهْف	18	60-82
12	مَرْيَم	19	51-53
13	طَه	20	9-98
14	الأَنْبِيَاء	21	48
15	الحَج	22	44
16	المُؤْمِنُون	23	45-49
17	الفُرْقَان	25	35-36
18	الشُّعَراء	26	10-66

م	السـورة	رقمها	أرقـام الآيـات
19	النَّمْـل	27	14-7
20	القَصَـص	28	48-3 و83-76
21	العَنكَبـوت	29	40-39
22	السَّجْـدَة	32	23
23	الأَحْـزاب	33	7 و69
24	الصَّافّـات	37	122-114
25	غَافِـر	40	46-23 و53
26	فُصِّلَـت	41	45
27	الشُّـورَى	42	13
28	الزُّخْـرُف	43	56-46
29	الدُّخـان	44	33-17
30	الذّارِيـات	51	40-38
31	النَّجْـم	53	36
32	القَمَـر	54	42-41
33	الصَّـف	61	5
34	المُزَمِّـل	73	16-15
35	النّازِعـات	79	26-15
36	الأَعْلَـى	87	19

المطلب الأول:
التعريف بشخصية نبي الله موسى عليه السلام

بطاقة تعريف قرآنية بنبي الله موسى عليه السلام:

هو موسى بن عمران عليه السلام، ويصل نسبُه إلى نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم صلوات الله أجمعين[1]، كان موسى بن عمران نبياً من أولي العزم من الرسل الذين أخذ الله منهم الميثاق، وذكرهم القرآن الكريم بقوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}**[2].

وقد آتى اللهُ موسى عليه السلام مقام المُخْلَصين، كما قال تعالى: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}**[3]، وهذا المقام من المقامات التي اعترفَ إبليس بعجزهِ عن إغواء أصحابها، كما جاء على لسانه في القرآن الكريم: **{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ● إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}**[4].

وخص الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام بمقام التكليم المباشر من وراء حجاب، قال تعالى: **{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}**[5]، **{وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}**[6]، وقال له: **{يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي}**[7]، وهذا المقام من مقامات التفضيل كما قال تعالى: **{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}**[8].

وألقى الله سبحانه محبة موسى عليه السلام في قلب كل من ينظر إليه، فلا يراه أحدٌ إلا أحبه[9]، كما خاطبه الله بقوله: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}**[10]، وهذه المحبة قد تصل إلى درجة العشق، كما فسرها قتادة: «ملاحة كانت في عينَي موسى، ما رآهُ أحدٌ إلا عشقَه»[11]، وكانت تلك المحبة سبباً في تأييد الله لموسى بالوحي والرسالة، كما قال تعالى: **{ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ● وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}**[12]، قال الزجاج: «اخترتك لأمري، وجعلتك القائم بحجتي، والمخاطب بيني وبين خلقي، كأني الذي أقمت بك عليهم الحجة وخاطبتهم»[13].

وقد برأ الله نبيه موسى عليه السلام من إيذاء قومه واتهامهم إياه فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}**[14]، فشهد له

---

(1) يُنظَر: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310 ه)، تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، (1387ه - 1967م)، [385/1].
(2) سورة الأحزاب، الآية: (7).
(3) سورة مريم، الآية: (51).
(4) سورة الحجر، الآية: (39 - 40).
(5) سورة النساء، الآية: (164).
(6) سورة مريم، الآية: (52).
(7) سورة الأعراف، الآية: (144).
(8) سورة البقرة، الآية: (253).
(9) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [222/6].
(10) سورة طه، الآية: (39).
(11) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت516ه)، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، (1417ه - 1997م)، [272/2].
(12) سورة طه، الآية: (40-41).
(13) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [274/2].
(14) سورة الأحزاب، الآية: (69).

بمقام الوجاهة عند الله تعالى، «**والوجيه في كلام العرب: المُحَبُّ المقبول**»[1]، وكان حظيًّا عند الله، مستجاب الدعوة، لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، إلا النظر حين قال: **{رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي}**[2].

وقد تمتع موسى عليه السلام بصفتي القوة والأمانة، كما جاء على لسان ابنة الشيخ الكبير: **{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}**[3]، وقد ذكرت كتب التفاسير عدة روايات تدور حول حوار جرى بين الشيخ الكبير وابنته حول قوة موسى وأمانته؛ إذ سألها أبوها، «**قال: وما يدريك ما قُوَّته وأمانته؟ قالت: أمّا قوته فما رأيتُ منه حين سقى لنا؛ لم أرَ رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانتُه فإنه نظر حين أقبلتُ إليه وشخصت له، فلمّا علم أنّي امرأة صوَّب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إليَّ حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين. فسُرِّي عن أبيها، وصدَّقها، وظنَّ به الذي قالتْ**»[4].

وقد أنزل الله على موسى عليه السلام كتاباً سماوياً اسمه (التوراة)، كتب له فيها من كل شيء موعظة، وتفصيلاً لكل شيء، وقال له: **{فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}**[5].

ومن المعلوم أن التوراة لها عدد من الأسماء والأوصاف ذكرها القرآن الكريم؛ إذ سماها الألواح بقوله تعالى: **{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}**[6]، وسماها فرقاناً وضياءً بقوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ}**[7]، وقد أنزل الله في التوراة الهدى والنور، كما قال تعالى: **{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ}**[8]، وجعلها سبحانه إماماً ليقتدي بها قوم موسى؛ ورحمة في تشريعاتها بهم، قال تعالى: **{وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً}**[9].

وإن موسى بن عمران عليه السلام هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: **{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}**[10]، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعلوم أن يعقوب قد هاجر إلى مصر، وعاش فيها مع أولاده، وهناك شبه اتفاق على تاريخ دخول بني إسرائيل إلى مصر في عصر الهكسوس[11]، فبعد أن صار يوسف بن يعقوب عليه السلام أميناً على خزائن مصر؛ قال لإخوته: **{اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ}**[12]، وينص القرآن الكريم على أن يعقوب عليه السلام وأولاده قد هاجروا فعلاً إلى مصر، كما قال

(1) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [194/19].
(2) سورة الأعراف، الآية: (143).
(3) سورة القصص، الآية: (26).
(4) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [225/18].
(5) سورة الأعراف، الآية: (145).
(6) سورة الأعراف، الآية: (145).
(7) سورة الأنبياء، الآية: (48).
(8) سورة المائدة، الآية: (44).
(9) سورة هود، الآية: (17).
(10) سورة الإسراء، الآية: (2).
(11) يُنظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت، تاريخ الزيارة: (21 أغسطس 2022م). https://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/566.html
(12) سورة يوسف، الآية: (93).

تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}[1].

وقد ظلَّتْ أسرةُ يعقوب عليه السلام بفروعها وذريته على أرض مصر يعيشون فيها آمنين بعزةٍ وكرامة، حتى جاء الفرعون «رعمسيس الثاني»، واضطهدَ ذريةَ بني إسرائيل كما وثق ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}[2]، ومما قال له موسى: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[3].

ثم كان خروجهم من مصر على يد الفرعون «مرنبتاح» ابن «رعمسيس الثاني» كما يذكر ذلك عدد من الباحثين في الآثار المصرية[4].

***

المطلب الثاني:
ولادة موسى عليه السلام

تذكر العديدُ من الرواياتِ بأن فرعونَ رأى في منامهِ كأن ناراً قد أقبلَت من نحو بيت المقدس، فأحرقَت دور المصريين وجميع القبط في مصر، ولم تضر بني إسرائيل، فهالته الرؤيا، وأفزعت من سمع بها حوله، فدعا الكهنة الحاذقين، والسحرة الماهرين، وسألهم عن تفسير الرؤيا، فأجمعوا على تأويلها بأنه سيولد العام في بني إسرائيل غلامٌ يكون سبب هلاك فرعون، ويكون زوال ملكه على يديه، فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تركت[5]، وهذا معنى قوله تعالى عن فرعون: {يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}[6]. وصور الإفساد التي ارتكبها فرعون كثيرة ومنها: «قتله مَن لا يستحقُّ منه القتل، واستعباده مَن ليس له استعباده، وتجبُّرُه في الأرض على أهلها، وتكبُّره على عبادة ربه»[7].

وقد سعى فرعون بقراره هذا إلى أن يموت غلامُ بني إسرائيل من ساعته، ويقتل في مهده قبل أن يولَد، فبثَّ عيونه في الطرقات والحواري، وأرسل القوابل ومعهن الحراس يكشفن على الحبالى من بني إسرائيل، ويعلمن ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه الذباحون من ساعته[8]، وقد قتل من الأطفال

(1) سورة يوسف، الآية: (99).
(2) سورة القصص، الآية: (4).
(3) سورة الشعراء، الآية: (22).
(4) يُنظَر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت، تاريخ الزيارة: (21 أغسطس 2022م). https://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/566.html
(5) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [516/19].
(6) سورة القصص، الآية: (4).
(7) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [517/19].
(8) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [221/6] وما بعدها.

الأبرياء آنذاك ما يشكل جريمة لم يسبق لها مثيل، تنفذ لأجل منام رآهُ الفرعون! ولكن الله غالب على أمره، يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء، ولا معقِّب لحكمه، فقد قال سبحانه: **{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ● وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}**[1].

وقد ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خاف قوم فرعون أن يُفْني الذبح بني إسرائيل، فيقومون هم بالأعمال الشاقة التي يقوم بها بنو إسرائيل، فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموتَ كبارهم، وصغارهم لا يعيشون، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك، فأمر فرعونُ بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتلون فيها الولدان[2].

وحتى يتم أمر الله فقد حملت أم موسى به دون أن تظهر عليها آثار الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، فلما وضعَته ذكرًا ضاقَت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا، وأحبته حبًّا جماً، فأوحى الله إليها وحي إلهام؛ أي: ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها أن ترضعه، فإذا انتهى وقت الرضاعة أن تضعه في صندوق، وتجعله في اليم[3]، كما قال تعالى: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ}**[4]، وقد امتنَّ اللهُ على موسى بذلك فقال: **{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ● إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ● أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ}**[5]، فاتخذَت أم موسى له تابوتاً، وكانت دارها متاخمة للنيل، وربطت التابوت بحبل، وكان كلما جاء جند فرعون وضعته في التابوت، وأرسلتْه في اليم، وأمسكت الحبل بحجر في زاوية البيت، فإذا ذهب عنها الجند سحبَت التابوت بالحبل، وأخرجَت موسى لترضعَه، وذات يوم جاء جندُ فرعون في حملة مداهمة، واقتحموا على أم موسى الباب، فوضعَته في التابوت، ولم تتمكن من ربط الحبل بالحجر، فمضى اليمُّ بالتابوت، وألقاه بالساحل[6]، **{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}**[7]، وقد طمأنَ اللهُ قلبَها، وأوحى إليها: **{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}**[8].

ورأى حرس دار فرعون صندوقاً يمر على سطح النيل من جهة قصره، فالتقَطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا

(1) سورة القصص، الآية: (5 - 6).
(2) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [221/6].
(3) يُنظَر: المصدر السابق نفسه، [222/6].
(4) سورة القصص، الآية: (7).
(5) سورة طه، الآية: (37 - 39).
(6) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [222/6].
(7) سورة القصص، الآية: (10).
(8) سورة القصص، الآية: (7).

يدرين ما فيه، وخشينَ أن يفتتنَّ عليها في فتحه دونها: **{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}**[1]، و«الـلام» هنـا لام العاقبة وليست لام التعليل[2]؛ ومثله قوله تعالى: **{فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ}**[3]. «فلما كشفت امرأة فرعون عن الصندوق؛ إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبتَه في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها»[4]؛ كما قال تعالى: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}**[5].

ولما رأى فرعون بداخل الصندوق غلاماً؛ أمر بقتله فوراً، واعترضَت امرأةُ فرعون، **{وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}**[6]، أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة[7].

وقد قبل فرعون شفاعة امرأته؛ إذ لم تكن تُنجِب، وأطلقَ على اللقيطِ اسم (موسى) وهو اسمٌ مؤلَّفٌ من كلمتين: (مو) بمعنى الماء، و(سا أو شا) بمعنى الشجرة أو الخشب، ويقصدون بموسى: الذي وُجِد في الصندوق على سطح الماء، أو لأنَّ الصندوق الذي وجد فيه كان في الماء وبين الشجر، وقيل: بالعبرية معناه الجذب؛ لأنَّه جُذبَ من الماء وولد، أو ابن الماء[8] وقد صار موسى عليه السلام في قصر فرعون الذي كان يأمر بذبح الذكور خوفاً من غلام بني إسرائيل، وإذا بهذا الغلام يتربى في قصره، ويأكل على مائدته، ويتنعم في هيبة ملكه ليصبح متبنى فرعون البلاد، والحذر لا يغني من القدر، كما أن الحذِرَ يؤخَذ مِن مَأمَنه.

{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا}[9]، أي: من كل شيءٍ إلا من همِّ وليدها موسى[10]، وكادَت أمُّ موسى أن تهيم في الشوارع والطرقات؛ لتسأل الناس عن تابوت يجري على سطح النيل، ولو أنها فعلَت ذلك لنبَّهَت الجواسيس وعيون فرعون إلى ما كانوا يحذرون، ولكن الله ربط على قلبها، كما يدل قوله تعالى: **{إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}**[11]، فتصرفَت بحكمة وروية، فأرسلت ابنتها لتستطلع الخبر، **{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ}**[12]، أي: اتبعي أثره، وتقصي أخباره[13]، وكانت البنت ذكيةً، **{فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}**[14]، حتى لا يُستراب في أمرها، ولا

(1) سورة القصص، الآية: (8).
(2) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [222/6].
(3) سورة طه، الآية: (39).
(4) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [223/6].
(5) سورة طه، الآية: (39).
(6) سورة القصص، الآية: (9).
(7) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [222/6].
(8) يُنظَر: معجم الأسماء والمعاني، موسى، تاريخ الزيارة: (2022/2/8م). https://meaningnames.net/of-%D9%85%D9%88%D8%B3%D9%89%
(9) سورة القصص، الآية: (10).
(10) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [528/19].
(11) سورة القصص، الآية: (10).
(12) سورة القصص، الآية: (11).
(13) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [531/19].
(14) سورة القصص، الآية: (11).

يشك أحد في سؤالها، فعلمت أن قصر فرعون يبحث عن مرضعةٍ للقيط آل فرعون؛ إذ كان كلما جاءت مرضعة رفضَ ثديها، **{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ}**[1]، فجاءت أخته: **{فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}**[2]، فأخذوها، وقالوا: إنك قد عَرَفت هذا الغلام، فدلِّينا على أهله، فأجابت بذكاء فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون، فسألوها: وما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في سرور فرعون، ورجاء منفعته، لمنزلة الرضيع عندكم، وحرصكم على مسرّة الملك[3]، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلها، فأخذَتْه أمُّه، فلما أرضعَتْه، التهَم ثديَها، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهبَ البشيرُ إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنَت إليها، وأعطَتها عطاءً جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبَت عليها، وقالت: إن لي بعلاً وأولادًا، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببْتِ أن أرضعَهُ في بيتي فعلتُ، فأجابتها امرأةُ فرعون إلى ذلك، وأجْرَتْ عليها النفقة والصلات والكساوي والإحسان الجزيل[4]، قال تعالى: **{فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}**[5].

وقد امتن الله على موسى عليه السلام فقال له: **{إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ}**[6]، وقد أكرم الله أمَّ موسى بأن ردَّ إليها ولدَها ترضعه من لبنها، وتأخذ على ذلك أجراً، وقد أبدلَها اللهُ من بعد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق كريم[7].

وقد أورد البيهقي في سننه الكبرى حديثاً شريفاً: **«مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَى؛ تُرْضِعُ وَلَدَهَا، وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا»**[8].

***

(1) سورة القصص، الآية: (12).
(2) سورة القصص، الآية: (12).
(3) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [534/19].
(4) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [224/6].
(5) سورة القصص، الآية: (13).
(6) سورة طه، الآية: (40).
(7) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [224/6].
(8) الحديث: أخرجه أبو داود، سليمان بن الأشعث السِّجِستاني (ت 275هـ)، في المراسيل، بيروت، مكتبة التراث ، الطبعة: الأولى، (1408 هـ)، (ص:247)، والبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، في السنن الكبرى، مصدر سابق، [47/9].

المطلب الثالث:
موسى عليه السلام في قصر فرعون

نشأ موسى عليه السلام في قصر فرعون، وتربى في كنفهِ، وتذكر بعضُ الروايات أنه كان ذات يوم في حضنِ فرعون، فعبثَ بلحيتهِ ونتفَ شعرات منها، فقال فرعون: عليّ بالذباحين، قالت امرأة فرعون: إنما هو صبيٌّ لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وأنا أضع له حلياً من الياقوت، وأضع له جمراً، فإن أخذ الياقوت، فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر، فإنما هو صبيٌّ، فأخرجَت له ياقوتها، ووضعت له طستاً من جمر، فجاء جبرائيل عليه السلام، فطرح في يده جمرة، فطرحها موسى في فيه، فأحرقَت لسانه[1]، فصاح وبكى، فتركه فرعون، ومن يومها أصبح موسى يشكو علة في لسانه إذ لا يكاد يبين، ولا ينطلق لسانه بالكلام، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله على لسان موسى: **{وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي}**[2]، وقد طلب موسى من ربه أن يحل له هذه العقدة فقال: **{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ● يَفْقَهُوا قَوْلِي}**[3]، وكان فرعون قد عير موسى بعدم انطلاق لسانه في البيان فقال: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}**[4].

وعلى الرغم من نشوئه في قصر فرعون؛ كان موسى عليه السلام يتمتع بالحكمة، ويتصف بالإحسان، قال تعالى: **{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}**[5]، أي: لما وصل إلى مجامع قواه وكمالاته واعتدل في السن وتم استحكامه بانتهاء الشباب، وتكامل عقله، وصحت بصيرته، وآن أوان خطابه؛ وهبه الله العقل والحكمة والنبوّة[6]، فقد آتاه الله القوة فجعلها في نصرة المستضعفين؛ إذ صار يرفع الظلم عن المظلومين، ويكف عادية المتسلطين من جند فرعون وأعوانه، فرأى المظلومون في متبنَّى فرعون نصيراً لهم، فصاروا يقصدونه لاسترداد حقوقهم من جند فرعون، وذلك أن موسى عليه السلام كان يسمى: «ابن فرعون»، فكان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثل ملابسه[7]، فلا يجرؤ أحدٌ منهم أن ينال من متبنى فرعون بكلمة واحدة!

وذات يوم جاء موسى عليه السلام: **{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ}**[8]، فتبين لموسى أن الذي من شيعته مظلوم، وأن الذي من آل فرعون ظالم: **{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ}**[9]، فَهَمَّ موسى برفع الظلم عن المظلوم، وقام بضرب الظالم ضربة موجعة خَرَّ على أثرها صريعاً، **{فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}**[10]، ومعنى الوكز: الدفع

---

(1) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [300/18].
(2) سورة الشعراء، الآية: (13).
(3) سورة طه، الآية: (27 - 28).
(4) سورة الزخرف، الآية: (52).
(5) سورة القصص، الآية: (14).
(6) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [207/9]، والبقاعي؛ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بيروت، دار الكتب العلمية، (1415هـ - 1995م)، [470/5].
(7) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [196/6].
(8) سورة القصص، الآية: (15).
(9) سورة القصص، الآية: (15).
(10) سورة القصص، الآية: (15).

بأطراف الأصابع، وهذا يؤكد أن موسى عليه السلام لم يكن يريد قتله[1]، ولم يباشر فعلاً يُودي به إلى القتل، غير أن قدر الله جعل أجَل هذا الظالم ينتهي عقب ضربة موسى له ووكزته، وقد تبرأ موسى من هذا الخطأ: **{قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}**[2]، ثم توجه إلى الله سبحانه ضارعاً، و**{قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ● قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}**[3]، وهذا عهدٌ قطعَه عليه السلام على نفسِه بأن لا يُعينَ بعدها ظالماً على فُجره[4].

وشاع الخبر في المدينة، وأرسِلَت التحريات للبحث عن القاتل، واستتر موسى عن العيون: **{فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}**[5]، أي: ينتظر سوءاً؛ لأن الترقب هو انتظار المكروه[6]، والمكروه الذي ينتظره هو العقوبة على قتل الظالم من آل فرعون، فصار يمشي بين الناس على حذر، وفجأة سمع صوتاً يناديه: يا موسى، أنقذني، فنظر؛ **{فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ}**[7]، فأنبه موسى على كثرة مخاصمته مع الآخرين، **{قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ}**[8]، أي: ظاهر الغواية؛ يريد أن يقول له: إنك قاتلت بالأمس رجلاً فقتلتُه بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه؟![9] غير أنَّ موسى عليه السلام أراد أن يرفع الظلم عنه، وهمَّ بضربِ الظالم، **{فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا}**[10]؛ ظن الذي من شيعتِه أن سيبطشُ به لا محالةَ، فصرخ، **{قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}**[11]، فانطلق الفرعونيُّ الذي كان يُقاتل الإسرائيليَّ إلى قومه، فأخبرهم بما سمع.

وأصبح الملأُ مِن قوم فرعون قد أجمعوا على قتل موسى فيما بلغهم عنه، فجاء مؤمن آل فرعون ليخبره الخبر[12]، وهو المقصود في قوله تعالى: **{وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ● فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**[13].

***

(1) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [197/6].
(2) سورة القصص، الآية: (15).
(3) سورة القصص، الآية: (16 - 17).
(4) يُنظَر: محمد بن جرير الطَبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [542/19].
(5) سورة القصص، الآية: (18).
(6) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [198/6].
(7) سورة القصص، الآية: (18).
(8) سورة القصص، الآية: (18).
(9) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [198/6].
(10) سورة القصص، الآية: (19).
(11) سورة القصص، الآية: (19).
(12) يُنظَر: محمد بن جرير الطَبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [200/18].
(13) سورة القصص، الآية: (20 - 21).

المطلب الرابع:
زواج موسى عليه السلام

خرج موسى عليه السلام مِن المدينة خائفاً أن يُقتَل، يترقب وينتظر الطلب، وهو هارب من القوم الظالمين، ولم يكن عليه السلام يعرفُ طريق السفر، ولا يحمل زاداً يقتات به في الطريق، وتوجَّه إلى أرض مدين، ودعا ربه أن يهديه إليها، **{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}**[1]، ومديَن: أرض عربية[2]، وقد أرسل الله إليها نبياً عربياً اسمه «شعيب» عليه السلام، كما قال القرآن الكريم: **{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}**[3]، وذلك قبل مبعث نبي الله موسى عليه السلام بأزمنة بعيدة.

وبعد مسيرة شاقة استمرت خمسةً وثلاثين يومًا؛ وصل موسى عليه السلام إلى أرض مدين وقد أصابَه الجهد والجوع، وحط رحاله في منطقة فيها ماء: **{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}**[4]، فكانت المرأتان تمنعان غنمهما أن تختلط بأغنام الناس، فقال لهما موسى: ما شأنكما معتزلتين بغنمكما دون القوم لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: لا نستطيع أن نسقي حتى يسقي الناس، فنحن كما ترى امرأتين ضعيفتين ليس لنا قوة نُزاحِم الرجال! ولذلك فإننا ننتظر فضول حياضهم[5].

وقد فهم موسى من الفتاتين أن أصحاب القوة يسقون ويشربون أولاً، ثم يأتي من بعدهم المستضعفون؛ ذلك أن الذي يشربُ أولاً يأخذُ الماء صافياً غزيراً، على حين أن مَن يسقي آخراً يشرب الكدر، وإلى هذا المعنى يشير عمرو بن كلثوم التغلبي بقوله:

ونشربُ إن وَرَدْنا الماءَ صَفْواً
ويشربُ غيرنا كدِرَاً وطيناً[6]

ولما علم موسى من الفتاتين أن أباهما شيخ كبير، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، وليس له أحدٌ يقوم بشأنه، ولا يعينه في رعاية غنمه وسقيها، وأنهما تقومان بخدمته؛ تحمَّسَ لمساعدتهما والسقاية لهما، **{فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}**[7].

ولما رجعَت الفتاتان إلى أبيهما سريعاً، وتحملان السقاية على غير عادتهما؛ سألهما عن ذلك، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عند الماء، وما كان من دعائه تحت ظل الشجرة، فأرسل الشيخ الكبير إحدى ابنتيه في طلبه تدعوه إلى مائدته، **{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}**[8]، وتذكر بعض الروايات أن الفتاة حين جاءت إلى موسى كانت واضِعَةً ثوبها على وجهها من أدبها

---

(1) سورة القصص، الآية: (22).

(2) قعْ على الساحل الغربي من جهة البحر الأحمر بين مدينة ضبا جنوبًا، وبين خليج العقبة شمالًا، ويذكر علماءُ الآثار أنها في مدينة تتبع تبوك تُعرف باسم (مدينة البدع)، والمسافة بينها وبين تبوك تبلغ 170 كم تقريباً. يُنظَر: موقع زيادة، تاريخ الزيارة: (2022/6/20م).
https://www.zyadda.org/taqae-madinat-madyan-alty-dhahab-iilayha-sayiduna-musaa

(3) سورة الأعراف، الآية: (85).

(4) سورة القصص، الآية: (23).

(5) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [211/18].

(6) يُنظَر: الزَّوْزَني، أبو عبد الله حسين بن أحمد بن حسين (ت 486هـ)، **شرح المعلقات السبع**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (1423هـ - 2002م)، (ص: 234).

(7) سورة القصص، الآية: (24).

(8) سورة القصص، الآية: (25).

وحيائها، وأن موسى حين قام معها قال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق؛ فإنِّي أكره أن تصيب الريحُ ثيابَكِ فتَصِفَ جسدَك[1]، ومشى عليه السلام من أمامها وصارت تدله على الطريق، وتهديه إلى سواء السبيل؛ حتى وصلا إلى الشيخ الكبير، **{فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ}**[2]، وأخبره ما كان من أمر فرعون، وذبحه للأبرياء، واستعباده للرعية، وتشتيته للشَّعب، وطغيانه في الأرض، وما كان من أمر القوابل اللائي قتلن أولاد بني إسرائيل، وأخبره عن قصته حين وُلِد، وحين قُذِف في التابوت في اليَمِّ، ثم المراضع بعد التابوت؛ حتى أخبره بقصة قتله للرجل القبطي خطأً، وذلك ما دفعه إلى الفرار من مصر[3]، فلما سمع الشيخ الكبير قصة موسى **{قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**[4]، وأخبره بأنه ليس لفرعون ولا لقومه على أهل مدين سلطانٌ، ولا يخضعون لمملكتِه[5].

وقيل: إنه «لَمّا دخل موسى عليه السلام على الشيخ الكبير؛ إذا هو بالعَشاء، فقال له: كُل، قال موسى: أعوذ بالله، قال: ولِم؟ ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عِوَضًا لِما سقيتُ لهما، وأنا مِن أهل بيتٍ لا نبيع شيئًا من عمل الآخرة بمِلْء الأرض ذهبًا، قال: لا واللهِ، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نُقري الضيف، ونُطْعم الطعام، فجلس موسى فأكل»[6].

وكانت إحدى الفتاتين قد اقترحت على أبيها أن يستأجر موسى عليه السلام لرعي الماشية؛ ليخفف عنهما العناء: **{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}**[7]، فسألها أبوها: «وما يدريكِ ما قُوَّته وأمانته؟ قالت: أمّا قوته فما رأيتُ منه حين سقى لنا؛ لم أرَ رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانتُه، فإنه نظر حين أقبلتُ إليه وشخصتُ له، فلمَّا علم أنِّي امرأة صوَّب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إليَّ حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسُرِّي عن أبيها، وصدَّقها، وظنَّ به الذي قالتْ»[8]، ورأى رغبتها فيه، فخطبه إليها: **{قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}**[9]، أي: في حسن الصحبة، والوفاء بما قلت، وقبل موسى عليه السلام مصاهرة الشيخ، وكان المهر عملاً دؤوباً مدة ثماني سنوات قابلة للتمديد إلى عشر سنوات، وقد اشترط موسى أن يكون حراً في اختيار أحد الأجلين، **{قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}**[10].

---

(1) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [219/18].
(2) سورة القصص، الآية: (25).
(3) يُنظَر: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، (1424هـ - 2003م)، [341/3].
(4) سورة القصص، الآية: (25).
(5) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [220/18].
(6) يُنظَر: البستي، أبو محمد إسحاق بن إبراهيم القاضي (ت 307هـ)، تفسير إسحاق البستي، ص: (40-41).
(7) سورة القصص، الآية: (26).
(8) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [225/18].
(9) سورة القصص، الآية: (27).
(10) سورة القصص، الآية: (28).

وتزوج موسى، ولبث سنين في أهل مدين، وقضى الأجل وفاء بالوعد؛ وقد أتم عشر سنوات كاملة، يرعى الغنم ويمشي في خدمة الشيخ الكبير، كما تذكر الروايات الصحيحة عن سعيد بن جبير ﵁، قال: **«سألني يهوديٌّ مِن أهل الحيرة: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري؛ حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمتُ، فسألتُ ابن عباس ﵄، فقال: قضى أكثرَهما، وأطيبَهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل»**[1]، ويعني بالرسول نبي الله موسى ﵇. **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ}**[2] عقد العزم على العودة إلى مسقط رأسه، ليبدأ فصلاً جديداً من فصول حياته.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم لم يذكر اسم الشيخ الكبير، بل ورد في بعض الآثار روايات متعددة تدل على الاختلاف في اسمه ونبوته، فمنهم من قال إنه ابن أخي النبي شعيب ﵇ واسمه (يثرون)، ومنهم من ذكر أن اسمه (يثرى)، بينما يذكر بعض المفسرين بأنه هو نبي الله شعيب ﵇ المرسل إلى أهل مدين، ورجَّح الطبري عدم القطع بأيِّ قولٍ منها، قائلاً: «وهذا مما لا يُدرَك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حُجَّتُه، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جلَّ ثناؤه»[3]، ويتوجه الانتقاد إلى القائلين بأن شعيب هو النبي المذكور في القرآن الكريم: «فمِن المقوِّي لكونه ليس بشعيب أنّه لو كان إيّاه لأوشك أن يُنَصَّ على اسمه في القرآن هاهنا، وبأن ما جاء في بعض الأحاديث مِن التصريح بذكره في قصة موسى لم يصِحَّ إسنادُه، وبأن من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: يثرون»[4].

ويميل الباحث إلى أن الشيخ الكبير ليس بالنبي شعيب المرسل إلى أهل مدين، وأن الأسماء وإن تماثلت فإنها لا تدل على الأعيان، وإن الزمن الفاصل بين قصة نبي الله شعيب ونبي الله موسى ﵇ يُقدَّر بقرون كثيرة، ولا يؤخَذ تحديدها من الروايات المبثوثة في كتب التفاسير، والله تعالى أعلم.

❋❋❋

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الشهادات، باب: من أمر بإنجاز الوعد، رقم: (2684).
(2) سورة القصص، الآية: (29).
(3) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [224/18].
(4) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [452/10].

المطلب الخامس:
تكليف موسى عليه السلام بالرسالة

لبث موسى عليه السلام سنين في أهل مدين، وتزوج فيها فتاة من عائلة صالحة، وأنجب من زوجته ذرية، وكان والد زوجتِه قد اشترط عليه أن يقيم عنده ثماني سنوات على الأقل قابلة للتمديد إلى عشر سنوات، **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ}**[1] استأذن والد زوجته في الرجوع إلى مصر لزيارة والدته، وتفقد أحوال قومه، فأذنَ له وحمَّله قطيعاً من الماشية يستعين به في سفره.

وذكر المفسرون أن موسى عليه السلام كان «قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمَّل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره: **{وَسَارَ بِأَهْلِهِ}**[2]، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة»[3] يطوي الطريق، ويقطع القفار؛ حتى وصلَ إلى وادٍ يقالُ له: (طوى) في طور سيناء، وأظلم على موسى الليل، وأمطرت السماء، واشتد البرد، وضاع موسى عن الطريق، حتى انتهى إلى جانب الطور الغربي، فقدح زنده ليشعل ناراً، فَضَوَّت، ولم تخرج ناراً، فتعجب من ذلك![4] فبينما هو كذلك إذ **{آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}**[5]، ومعلوم أن حاجته إلى النار متعددة؛ إذ إنها تدل على وجود أناس من حولها، فيسألهم عن سواء السبيل للوصول إلى مصر، **{إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ}**[6]؛ وذلك لأنه قد أضل الطريق، **{أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}**[7]، وإذا لم يجد من حول النار أحداً فإنه سيأتي منها بشهاب يضيء له الطريق، أو الجذوة من النار يصطلي بدفئها، **{أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}**[8]، أي: تَتَدفؤون بها من البرد[9].

ومضى موسى عليه السلام متجهاً نحو النار، **{فَلَمَّا أَتَاهَا}**[10] ورأى عليه السلام نوراً عظيماً من حول النار، وسمع عندها تسبيح الملائكة: و**{نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}**[11]، «أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعَّال لما يشاء، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، تعالى وتقدَّسَ وتنزَّه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله سبحانه!»[12].

وأما البقعة المباركة فقد جعلها الله مباركة؛ لأن الله تعالى كلَّم موسى عليه السلام هناك وبعثه نبياً[13]، ومثله قوله تعالى: **{نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ**

---

(1) سورة القصص، الآية: (29).
(2) سورة القصص، الآية: (29).
(3) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [234/6].
(4) يُنظَر: المصدر السابق نفسه، [234/6].
(5) سورة القصص، الآية: (29).
(6) سورة النمل، الآية: (7).
(7) سورة طه، الآية: (10).
(8) سورة النمل، الآية: (7).
(9) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [234/6].
(10) سورة القصص، الآية: (30).
(11) سورة القصص، الآية: (30).
(12) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [234/6].
(13) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [206/6].

فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ● يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[1].

وذكر المفسرون أن الله تعالى كلَّم موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء[2]، وهذا ما أورده الرازي في تفسيره عند مناقشة هذه المسألة؛ حيث رأى أن الله تعالى نادى موسى عليه السلام بكلام سمعه من الشجرة في البقعة المباركة، فكانت الشجرة محلاً للكلام، والله هو المكلِّم له[3].

ويروى أن إبليس وسوس لموسى عليه السلام، «قال له: كيف عرفتَ أنه نداء الله تعالى؟ قال: لأني سمعتُه بجميع أجزائي، فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء؛ علم أن ذلك مما لا يَقدرُ عليه أحدٌ سوى الله تعالى»[4].

ومما أعجبني في فهم هذه المسألة ما ذكره النَّسفي في تفسيره، «قال جعفر: أبصر ناراً دلَّتْهُ على الأنوار؛ لأنه رأى النورَ في هيئة النار، فلما دنا منها شملَتْه أنوارُ القدس، وأحاطَت به جلابيبُ الأنس، فخوطِبَ بألطفِ خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مكلَّماً شريفاً، أعطيَ ما سأل، وأُمِّن مما خاف»[5].

وقد علَّم اللهُ الأدبَ لموسى في تكليمه قائلاً: **{إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}**[6]، فقد أُمر موسى عليه السلام بخلع نعلَيه؛ لأن الحفْوةَ أَدخَلُ في التواضع وحُسنِ الأدب، ولذلك علَّلَها بقوله: **{إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ}**، أي: إن علة وجوب الخَلْع المأمور به هو شرف البُقعة وقُدْسِها[7].

ثم أعلمه الله سبحانه باصطفائه للنبوة؛ إذ قال له: **{وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ● إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ● إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ● فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى}**[8]، وتفيد الآيات بأن الحق سبحانه بيَّن لموسى عليه السلام أن أول واجب على الإنسان أن يعبد اللهَ وحدَه، وأن يكون دائم الصلة مع الله، وقد شرع الله الصلاةَ ليكون الإنسان دائم الذكر لله، وإذا ما غفل العبد عن الله واتبع هواه، ووصل إلى الردى؛ فإنه سيأتي يوم الدين لتجزى كل نفس بما كسبت، **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ● وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}**[9].

وقد كلف الله موسى بالرسالة كما يدل على ذلك قوله تعالى: **{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ● قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ}**[10]، ومهمة موسى أن يدعوَ الظالمين إلى العدل، والجاهلين إلى العلم، والناس إلى

---

(1) سورة النمل، الآية: (8 - 9).
(2) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [224/9].
(3) يُنظَر: الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب = تفسير الرازي = التفسير الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1421هـ - 2000م)، [156/24].
(4) الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب = تفسير الرازي، مصدر سابق، [210/24].
(5) النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق مروان الشعار، بيروت، دار الكلم الطيب، (1998م)، [40/3].
(6) سورة طه، الآية: (12).
(7) يُنظَر: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود، بيروت، دار إحياء التراث العربي، [343/4].
(8) سورة طه، الآية: (13 - 16).
(9) سورة الزلزلة، الآية: (7 - 8).
(10) سورة الشعراء، الآية: (10 - 11).

تقوى الله وتزكية النفس، وهذا ما صرَّحَت به الآياتُ الكريمات: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ● إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ● اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ● فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ● وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}**[1]، لكن موسى عليه السلام اعتذر إلى ربه بثلاثة أعذار قد تحُول بينه وبين تنفيذ أمر الله:

- **الأول:** أن قوم فرعون قد يكذبونه فيما يدعي، ولا يصدقونه بأنه مرسل من الله، **{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}**[2].
- **الثاني:** أن عقدة لسانه تسبِّب له حرجاً في بيانه، وضيقاً في صدره، فقال: **{وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي}**[3].
- **الثالث:** أن قوم فرعون يعدُّون موسى عليه السلام مجرماً قاتلاً مطلوباً للمحاكمة التي قد تودي به إلى الإعدام، ولذلك قال موسى عليه السلام: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}**[4].

ولم تكن هذه الأعذار الثلاثة التي اعتذر بها موسى إلى ربه استعفاء من الرسالة، بل فيها طلب المعونة، وقد ذكر المفسرون أن في ذلك دليلاً أن على من يخاف من نفسه تقصيراً أن يطلب الاستعانة، ولا يلحقه في ذلك لوم[5].

وقد ذلَّلَ اللهُ لموسى العقبة الأولى؛ إذ أيَّدَه بالآيات الحسية الدالة على صدقهِ في دعوى النبوة والرسالة، قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}**[6]، ومن تلك الآيات الحسية: معجزة العصا؛ فقال له الله: **{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ● قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ● قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ● فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}**[7]، فانقلبت العصا ثعباناً يبتلع الصخر والشجر، وهي في سرعتها وخفة حركتها كأنها جان، **{فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}**[8]، فناداه الحق سبحانه: **{يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}**[9]، **{يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}**[10]، فرجع موسى آمناً نحو العصا، فقال له الله: **{خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}**[11]، فلما أمَّنَه اللهُ ذهبَ خوفُه، وقد بلغَ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسهِ أن أدخل يدَه في فمها، وأخذ بلحيَيها[12]، فوضع موسى يدَه بين أنيابها، فعادت خشبةً جامدة!

(1) سورة النازعات، الآية: (15 - 19).
(2) سورة الشعراء، الآية: (12).
(3) سورة الشعراء، الآية: (13).
(4) سورة القصص، الآية: (33).
(5) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [82/9].
(6) سورة الإسراء، الآية: (101).
(7) سورة طه، الآية: (17 - 20).
(8) سورة القصص، الآية: (31).
(9) سورة القصص، الآية: (31).
(10) سورة النمل، الآية: (10).
(11) سورة طه، الآية: (21).
(12) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [69/9].

ثم أعطاه اللهُ آيةً أخرى، وهي اليد البيضاء النقية من غير برص، فقال له: **{وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى}**[1]، وفي آية ثانية: **{اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}**[2]، وفي آية ثالثة: **{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}**[3]، فأخرج يده من جيبه، فإذا لها شعاع مثل شعاع الشمس يغشي البصر[4]، وأصبح موسى عليه السلام بعدها إذا أدخل يدَه في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ، كأنها فلقةُ قمر[5]، وهاتان الآيتان من المعجزات الخارقة للعادة التي أيَّدَ اللهُ بها موسى عليه السلام إذا ما كذبه فرعون وقومه.

وكان موسى عليه السلام قد دعا ربه لتذليل العقبة الثانية، **{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ● وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ● وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ● يَفْقَهُوا قَوْلِي ● وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ● هَارُونَ أَخِي ● اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ● وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ● كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ● وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ● إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا}**[6]، وقد طلب موسى عليه السلام من الله أن يحلَّ عقدة لسانه، وأن يرسل أخاه هارون معه نبياً؛ لما يتمتع به من فصاحة في اللسان، **{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}**[7]، وقد استجاب اللهُ دعاء موسى، وقال له: **{سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ}**[8]، **{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}**[9]، وأُنزِلَ الوحيُ على هارون ليبلغَه بأنه مرسلٌ من الله لمساعدة موسى عليه السلام، قال تعالى: **{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}**[10]، وقال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا}**[11].

وأما العقبة الثالثة، فقد ذلَّلها رب العالمين؛ إذ أنزل السكينة على قلب موسى، ووعدَه بأن قوم فرعون لن يَصِلوا إليه، ولن يتمكَّنوا من قتلِه، وأن اللهَ سينصرَه عليهم، **{قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}**[12].

ومضى موسى إلى هارون عليهما السلام ليبلغهُ أمرَ الله، ويبشره بإرساله وزيراً مصدقاً فصيح اللسان، يحمل معه الكتاب المستبين، وفيه قول الله: **{اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ● اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ● فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}**[13]، وقد كان التكليف شاقاً؛ إذ طغى فرعون وبغى، وتجبَّر وعلا، وتمرَّد على الجبار الأعلى.

---

(1) سورة طه، الآية: (22).
(2) سورة القصص، الآية: (32).
(3) سورة النمل، الآية: (12).
(4) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [70/8].
(5) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [280/5].
(6) سورة طه، الآية: (25 - 35).
(7) سورة القصص، الآية: (34).
(8) سورة القصص، الآية: (35).
(9) سورة طه، الآية: (36).
(10) سورة الصافات، الآية: (114).
(11) سورة الفرقان، الآية: (35).
(12) سورة القصص، الآية: (35).
(13) سورة طه، الآية: (42 - 44).

وقد علَّمَ اللهُ موسى وهارون عليهما السلام الحوار مع فرعون بالكلمة الهادئة، والقول اللين، وبين لهما أن مهمتهما التذكير بنعم الله تعالى، وزرع الخشية من الله في قلب فرعون وأعوانه، فليس الهدف من الرسالة الربانية أن يسقط فرعون من عرشه ليتربع موسى مكانه، بل الهدف أن يسقط الجبروت من قلب فرعون، وأن يُمحَى الظلمُ من مملكتِه، وأن يكفَّ العادية عن المستضعفين، ويقيم العدالة بين أبناء الشعب دونما تفريق.

وانتابت موسى وهارون عليهما السلام مخاوف الطغيان من فرعون الذي لا يُرِي شعبَه إلا ما يرى، فإن جاءا بغير ما يرى فالعقوبة قاسية، ولذلك: **{قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}**[1]، فطمأنهما الله: **{قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}**[2]، فإذا كان اللهُ معهما يسمع ويرى، فلماذا الخوف؟!

ثم علَّمَهما اللهُ ماذا يقولان لفرعون، قال: **{فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلام عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ● إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}**[3]، فكانت الرسالة تتضمَّنُ رفعَ الظلمِ عن المقهورين، وإنصاف المظلومين من خصومهم، وإفشاء السَّلام في البلاد.

«وقال الله لموسى: انطلق برسالتي، فإنك بعيني وسمعي، وإني معك بتأييدي ونَصْري، وقد بعثتُك إلى خَلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمِن مكري، وغرَّتهُ الدنيا عني؛ حتى جحدَ حقي، وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني، فوسعتُه بحلمي، فبلِّغْهُ رسالَتي، وادعُهُ إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكِّرهُ أيامي، وحذِّرهُ نِقمَتي وبأسي، وقل له فيما بين ذلك قولاً لينًا، لعله يتذكَّرُ أو يَخشى، وخَبّره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، وقل له: أجبْ ربَّك، فإنهُ واسعُ المغفرة»[4].

وانطلق موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون حاملين رسالة الله، وفي قصر فرعون جرت أحداث ومشاهد.

❋❋❋

(1) سورة طه، الآية: (45).
(2) سورة طه، الآية: (46).
(3) سورة طه، الآية: (47 - 48).
(4) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [281/5] بتصرف.

المبحـث الثانـي:
موسى عليه السلام ورسالتـه إلى فـرعـون

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: حوار موسى عليه السلام مع فرعون.
- المطلب الثاني: إيمان السحرة، ونهاية فرعون.

المطلب الأول:
حوار موسى عليه السلام مع فرعون

تفيدُ الخارطةُ القرآنية لقصةِ موسى عليه السلام أنه دخلَ مع أخيه هارون على فرعون، وبيَّنا له أنهما رسولان من عند الله، ابتَعثَهما اللهُ ليُخرِجا الناسَ من الظلمات إلى النور، ويرفعا الظلمَ عن المقهورين والمستضعفين، وليس لهما أغراضٌ سياسية، ولا حربية، ولا حزبية، فقالا له: **{إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلام عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}**[1]، وواضح أن مضمون الرسالة الربانية التي بُعِثا بها غايتها أن يعمَّ السَّلام والهدى، **{إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}**[2]، "أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله" [3]، وفي الآية وعيدٌ بعذاب الله بحقِّ كل مَن لم يَقبل بنشر السَّلام والهدى في ربوعه.

وعلى الرغم من امتلاك فرعون للقوة والعسكر؛ فقد لجأ إلى الحوار السياسي مع موسى معرضاً عن مناقشة رسالة السَّلام والهدى، ومتجاهلاً لما جاءه به موسى من رب العالمين، ودخل معه في حديث جانبي يطعن من خلاله في أخلاق موسى، ويتهمه بالإجرام والقتل! **{قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ● وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}**[4]، أي: مِن الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي[5]، فصار معنى الآية: ألستَ أنت من ربيناه في صغره في بيتنا وعلى فراشنا، وأغدقنا عليه سنين طوالاً من نعمنا؟ فجحدتَ تلك النعمَ، وقابلتَ إحساننا بتلك الفعلة الشنيعة بأن قتلتَ منا رجلاً[6]، فكأنه قال له: إنك مجرمٌ قاتلٌ، فكيف تكون رسولاً تدعو إلى الهدى والسَّلام؟!

وقد أجاب موسى عليه السلام فرعون، فاعترف بأنه قتلَ رجلاً ظالماً منهم خطأ، وأنه فرَّ من ظلمهم وبطشهم خوفاً من عدم تحقيق العدالة في القضية، **{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}**[7]، أي: من الجاهلين بأن الوكزة سوف تؤدِّي إلى قتل القبطي[8]، **{فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ}**[9]، أي: كان فراري منكم بسبب الخوف من أن تقتلوني دون محاكمة عادلة؛ لأني لم أتعمَّد قتله، وأن القتل كان خطأً، وأن القاتل خطأً لا يُقتَل[10]، **{فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ}**[11]، وألحقني بعِدَاد مَن أرسله إلى خلقه، مبلغاً عنه رسالتَه إليهم بإرساله إياي إليك يا فرعون[12].

وبيَّن بهذا أن التربيةَ فيهم لا تنافي النبوَّة والحلم على الناس، وأن القتل خطأ كان قبل

---

(1) سورة طه، الآية: (47).
(2) سورة طه، الآية: (48).
(3) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [197/5].
(4) سورة الشعراء، الآية: (18 - 19).
(5) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [109/6].
(6) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [137/6].
(7) سورة الشعراء، الآية: (20).
(8) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [109/6].
(9) سورة الشعراء، الآية: (21).
(10) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [341/19].
(11) سورة الشعراء، الآية: (21).
(12) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [341/19].

النبوة، وهو لا ينافي الاصطفاء للرسالة[1]، ثم بيَّنَ موسى عليه السلام لفرعون أنَّ توفيرَ الأمن والغذاء، وإغداق النعم، وتيسير سبل العيش الرغيد ليست مبرراً لاستعباد بني إسرائيل، **{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}**[2]، ويذكرُ عددٌ من المفسرين أن هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول: أقرُّ بأنَّ تربيتَك نعمة عليَّ من حيث استعبدتَ غيري، وتركتني دون استعباد، ولكن هذا لا يدفع رسالتي[3].

وهناك من المفسرين مَن يرى أن كلام موسى جاء على جهة الإنكار، فكأنَّه قال: أتمنُّ عليَّ بأن ربَّيتَني وليداً، وأنت قد استعبدتَ بني إسرائيل وقتلتَهم؟! أي: إنَّ ذلك ليس بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم! وفيه تقدير استفهام؛ أي: أوَ تلك نعمة؟![4] فصار المعنى: إنك ما أحسنتَ إليَّ وربَّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتَهم عبيداً، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفَيَكفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟[5] وبعبارة أخرى كأنه قال: "أتَمُنُّ عليَّ أن ربَّيتَني، وتَنسى جنايتَك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة؟! فأي نعمةٍ لك علي؟!"[6].

فلما غلب موسى عليه السلام فرعون بالحجة؛ ولم يجد من تقريره على التربية وغير ذلك حجة؛ رأى فرعون أنه لا مناص من مواصلة الحوار، فرجع إلى معارضة موسى عليه السلام[7]، **{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}**[8]؟ والباعث على سؤال فرعون هو أنهم كانوا يزعمون أن فرعون هو المجتبَى من الآلهة؛ ليكون مَلِكَ مصر، فهو مظهر الآلهة الأخرى في تدبير المملكة، وهذا معنى قوله: **{يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}**[9]، وبهذا الانتساب إلى الآلهة، وتمثيله إرادتهم في الأرض، كان فرعون يُدعَى إلهاً[10]: **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}**[11]، فمن أين يدعي موسى بوجود إله سواي؟! **{قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى}**[12]؟ فعرَّف موسى بالله تعالى من خلال آياته التي بثها في الآفاق وفي الأنفس، **{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**[13]، أي: "أعطى كل ذي خَلْق ما يصلحه من خَلْقه"[14]، فهو الذي خلق الأرض والسماء، والإنسان والحيوان، والماء والنبات، وهدى كل مخلوق إلى القيام بوظيفته في الكون؛ فهو الذي علم النملة معنى العمل، وهدى النحلة لصنع

(1) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [85/9].
(2) سورة الشعراء، الآية: (22).
(3) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [85/9].
(4) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [85/9].
(5) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [138/6].
(6) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [110/6].
(7) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [86/9].
(8) سورة الشعراء، الآية: (23).
(9) سورة الزخرف، الآية: (51).
(10) يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [150/10].
(11) سورة القصص، الآية: (38).
(12) سورة طه، الآية: (49).
(13) سورة طه، الآية: (50).
(14) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [298/5].

العسل، وخلق الأنعام، وهداها لصناعة اللبن، وخلق الأشجار وهداها إلى صناعة الثمر، وخلق الإنسان وهداه إلى استخدام عقله في تسخير الكائنات لإعمار الأرض.

وهذا الذي قاله موسى عليه السلام أحدث صرخة في الرعية؛ لينطلقوا بأفكارهم من السعي وراء الطعام والشراب إلى التفكر في الآفاق وفي الأنفس؛ ليصلوا إلى أنَّ **{اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ}**[1]، وأن كل ما في الكون خاضع لله القهار، وقد أيقظ موسى عقول الحاضرين؛ بقوة منطقه، وحسن حديثه، وترابط أفكاره، وغلبته على قلوب الرجال، فحاول فرعون إيقافه عن الكلام، فاتَّهمَه بالسحر، **{فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}**[2]، وطلب منه أن يتحدث عن السابقين، **{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى}**[3]، "ومعنى "البال": الحال، أي: ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، مثل قوم نوح وعاد وثمود فيما تدعونني إليه، فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث؟"[4]، فأجابه موسى، **{قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}**[5]، أي: أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها[6]، هذا من حيث أخبارهم، وأما من حيث خلقهم، فإن الله خالقهم أجمعين، **{قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}**[7]، وهذا خطاب مباشر لقوم فرعون ينبههم أن فرعون لم يخلق قومه الحاضرين، ولا آباءهم الأولين، ومعلوم أن أحداً لم يخلق نفسَه ولا ولده، إذن فمن هو الخالق؟ إنه الله رب العالمين؛ **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ● كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}**[8]، وقد لفتَ انتباهَهم إلى أن الله هو الذي **{جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا}**[9]، وليس فرعون مَن أنزلَ الأمطارَ وفجَّرَ الأنهار!

ثم توجَّهَ إلى فرعون قائلاً: **{لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}**[10]، وإن اللهَ هو الذي يملكُ السماوات والأرض، **{قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}**[11]، "أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها؛ العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيدٌ

(1) سورة لقمان، الآية: (30).
(2) سورة الإسراء، الآية: (101).
(3) سورة طه، الآية: (51).
(4) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [277/5].
(5) سورة طه، الآية: (52).
(6) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [277/5].
(7) سورة الشعراء، الآية: (26).
(8) سورة طه، الآية: (53 - 54).
(9) سورة النمل، الآية: (61).
(10) سورة الإسراء، الآية: (102).
(11) سورة الشعراء، الآية: (24).

له خاضعون ذليلون! **{إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}**[1]، أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة"[2]، فاتهم فرعونُ موسى بالجنون، فقال للملأ حوله: **{إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}**[3]، يهذي بما لا يدري، ويتكلم بكلام لا نعقلُه، ولا نعرف صحَّتَه! ويدعي أنه مرسل من إله غيري، وكان عندهم أن مَن لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل![4] فقال لهم فرعون: ألا تستمعون؟ انظروا إلى هذا الذي هو مهين، ولا يكاد يبين، أليس فرعون خيراً منه؟! **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}**[5]، فلو كان مرسلاً حقاً، لأعطاه ربه كنوزاً من ذهب، أو بعث معه ملائكة يصدقونه، **{فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}**[6]، وهذه مشاغبة من فرعون، عندئذ قدم موسى عليه السلام الدليل القاطع والحجة الملزمة على أن الله هو الذي يتحكم بنواميس الكون بأسره، وليس فرعون، الملك الذي يتحكَّم في مقدرات شعبه، ورقاب رعيته فحسب! **{قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}**[7]، وهذا الدليل كان قد بهت به نمرود الذي حاج إبراهيم في ربه، إذ قال له: **{فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}**[8].

وخرج فرعون من الحوار خاسراً، فلجأ إلى حيلة جديدة لعله يحرج بها موسى عليه السلام، فسأله عن مكان الله؛ قال: إذا كان ربك موجوداً، فأرني إياه حتى أكلمَه، واسأله: أهو أرسلك؟ وأتفق معه على تقاسم الملك، وأشاع فرعون أنه سيبحث عن إله موسى، فإن وجده فسيصدقه، وإلا فسيعد موسى من الكاذبين الذين ستنالهم عقوبة زاجرة، **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ● أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}**[9]، يقول: وإني لأظنُّ موسى كاذباً فيما يقول ويدّعي مِن أنَّ له في السماء رباً أرسلَه إلينا[10]، وهو معنى قوله لوزيره هامان: **{فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}**[11]، ويقول بعضُ المفسرين: إن هامان بنى له الصرحَ، فارتقى فوقه، فأمر بِنُشابةٍ، فرمى بها نحو السماء، فردَّتْ إليه وهي متلطخةٌ دماً، فقال: قد قتلتُ إلهَ موسى، تعالى اللهُ عما يقولون![12]

ثم عاد من أعلى البناء، وأذاع أنه قضى على إله موسى، ثم قال لموسى: **{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}**[13].

---

(1) سورة الشعراء، الآية: (24).
(2) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [138/6].
(3) سورة الشعراء، الآية: (27).
(4) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [111/6].
(5) سورة الزخرف، الآية: (52).
(6) سورة الزخرف، الآية: (53).
(7) سورة الشعراء، الآية: (28).
(8) سورة البقرة، الآية: (258).
(9) سورة غافر، الآية: (36 - 37).
(10) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [387/21].
(11) سورة القصص، الآية: (38).
(12) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [581/19].
(13) سورة الشعراء، الآية: (29).

ويذكر المفسرون أنه "لما قامَت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظنَّ أنه ليس وراء هذا المقام مقال"[1]، وهنا أوقف فرعون الحوار، ولجأ إلى التهديد باستخدام الحديد والنار، فقابل موسى تهديده بفتح باب آخر للحوار، دون أن يصدَّه ويكفره، **{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ● قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**[2]، وجاء دور المعجزات الحسية لإثبات صدق موسى عليه السلام في دعوى النبوة والرسالة.

***

المطلب الثاني:
إيمان السحرة، ونهاية فرعون

أقام موسى عليه السلام على فرعون الحجة، وأثبتَ له من خلال حوار الكلمة على ملأ من قومه أن اللهَ هو رب السماوات والأرض وما بينهما، وأنه هو رب فرعون، ورب ملئه الحاضرين، ورب آبائهم الأولين، وتبين للملأ من حول فرعون انتصار موسى في الحوار العقلي، فاستشاط فرعون غضباً، وهدد موسى باستخدام القوة ضده إذا لم يتخذه إلهاً وحده، **{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}**[3]، وقام موسى عليه السلام بمواجهة هذا التهديد بالحوار وقَالَ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه: **{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ}**[4]، "أي: ببرهان قاطع واضح"[5]، ومعنى الآية: أتحبسني في السجن وإن أتيتك بحجة بيِّنة قاطعة، فيتضح لك بها صدقي؟ فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة[6]، فأجاب موسى: **{قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**[7]، والمعنى إن كانت لك حجة بيِّنة؛ فإنَّا لن نسجنَك حينئذ[8]، فقدم موسى برهان العصا واليد، ليبدأ أسلوباً آخرَ في إثبات الرسالة، وهو أسلوب الخوارق الحسية، **{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ}**[9]، أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل

(1) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [139/6].
(2) سورة الشعراء، الآية: (30 - 31).
(3) سورة الشعراء، الآية: (29).
(4) سورة الشعراء، الآية: (30).
(5) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [139/6].
(6) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [86/9].
(7) سورة الشعراء، الآية: (31).
(8) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [111/6].
(9) سورة الشعراء، الآية: (32).

مزعج! **{وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ}**[1]، أي: تتلألأ كقطعة من القمر![2]

وقد ذهل الحاضرون من رؤية هذه الآيات البينات، وخشي فرعون من أن يكون لهذه الخوارق والآيات تأثير في عقيدة الحاضرين؛ فعقد اجتماعاً مع كبار مستشاريه، وأوصى إليهم بما يريد؛ إذ وجَّه اتهاماً لموسى بأنه ساحرٌ، فقال: **{إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ● يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}**[3]؟ فبادر فرعون إلى التكذيب والعناد، ورَوَّج عليهم أن هذا من قبيل البراعة في السحر، وليس من قبيل المعجزة، وأن غرضه من ذلك أن يكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم بهم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، وطلب منهم المشورة؛ ماذا يصنع به؟ فأشاروا عليه بإنظاره وتحدِّيه بسحر مثله، **{قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ● يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}**[4]، أي: أخِّره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل البارعين في السحر يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد[5]، وبعد إقرار هذا الرأي قال فرعون لموسى: **{قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ● فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى}**[6]، وحاول موسى عليه السلام إقناع فرعون وملئه بالحق عن طريق الحوار دون اللجوء إلى التحدي: **{قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ}**[7]؛ غير أن عقدة التقليد الأعمى كانت حائلاً أمام قبولهم للحقيقة، **{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ}**[8].

ولما رأى موسى عليه السلام إصرارهم على تحديه بالسحر، أراد أن يكون هذا التحدي على شكل مناظرة كبرى أمام الجماهير؛ ليظهر فيها آيات الله جهرة، عسى أن يدخل عدد كبير منهم في دين الله، أو يسقط من نفوسهم طغيان فرعون، فاختار يوم الزينة، **{قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}**[9]، كان يوم الزينة هو يوم عيد لهم، يتزينون فيه، ويجتمعون فيه كل سنة، وحدَّدَ لهم الموعد وقت الضحوة نهاراً جهاراً، ليكون أبعد من الريبة[10].

وتولى فرعون فجمع كيده، وحشر فنادى، وأرسل في المدائن حاشرين يدعون كل ساحر عليم، **{فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ● وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ● لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}**[11]، وطمع

(1) سورة الشعراء، الآية: (33).
(2) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [139/6].
(3) سورة الشعراء، الآية: (34 - 35).
(4) سورة الشعراء، الآية: (36 - 37).
(5) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [139/6].
(6) سورة طه، الآية: (57 - 58).
(7) سورة يونس، الآية: (77).
(8) سورة يونس، الآية: (78).
(9) سورة طه، الآية: (59).
(10) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [279/5].
(11) سورة الشعراء، الآية: (38 - 40).

السحرة في مكافأة كبيرة، فقالوا لفرعون: **{أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}**[1]؟ فوعدهم فرعون بزيادة في العطاء، وقرب في المنزلة، **{قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}**[2].

وقد توجَّهَ موسى عليه السلام إلى السحرةِ فوعظهم، ونهاهم عن افتراء الكذب على الله، **{قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى}**[3]، فرأى السحرةُ في كلامهِ صدقاً، وفي وعظه نصيحة، وفي دعوته فلاحاً، وفي سحرهم كذباً، وفي صنعتهم باطلاً، **{فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}**[4]، وكاد عددٌ منهم ينسحب من الموقف، فتدخل كبيرُهم، وقال: **{إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ● فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}**[5]، أي: اجتمعوا كلكم صفًّا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، رجاء العطاء الجزيل الذي وعدنا به فرعون[6]، واتفقوا فيما بينهم على مواصلة التحدي، وقالوا: **{يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى}**[7]، **{قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ● فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}**[8]، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كلُّ رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الحبال، قد ملأتِ الوادي يركب بعضها بعضاً[9]، **{فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}**[10].

ويذكر بعض المفسرين أن السحرة أودعوا حبالهم وعصيهم مادة من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد؛ بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة![11] ولما رأى موسى عليه السلام حبالهم وعصيهم خُيِّلَ **{إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}**[12]، فخاف أن يفتن الناس بسحرهم، **{فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى}**[13]، وكان خوفه على القوم أن يلتبسَ عليهم الأمرُ، فيشكوا في أمره، فلا يتبعوه[14]، فجاءه الأمنُ من الله والتأكيد على انتصار الحقيقة والرسالة، **{قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى}**[15]، وأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك، **{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا**

---

(1) سورة الشعراء، الآية: (41).
(2) سورة الشعراء، الآية: (42).
(3) سورة طه، الآية: (61).
(4) سورة طه، الآية: (62).
(5) سورة طه، الآية: (63 - 64).
(6) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [302/5].
(7) سورة طه، الآية: (65).
(8) سورة الشعراء، الآية: (43 - 44).
(9) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [336/18].
(10) سورة الأعراف، الآية: (116).
(11) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [302/5].
(12) سورة طه، الآية: (66).
(13) سورة طه، الآية: (67).
(14) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [283/5].
(15) سورة طه، الآية: (68).

إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[1]، فتوجَّهَ موسى إلى السحرة، وقال: **{مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ● وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}**[2]، **{فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ}**[3]، **{فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ● فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ}**[4].

وقد رأى السحرة حيَّةً عظيمة هائلة أقبلتْ على الحبال والعصي فابتلعَتها، وتيقَّنوا أنَّ الذي جاءَ به موسى لا يندرجُ تحت صنعتهم، ولا يعارضُه سحرُهم واحتيالهم، وأن موسى وهارون عليهما السلام ليس عندهما زور ولا بهتان، **{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}**[5]، وأعلنوا إيمانهم أمام الحاضرين، وقالوا: **{آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ● رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}**[6]، وكان إيمانُ السحرة وهزيمتهم أمام موسى وهارون عليهما السلام صاعقةً عصفَت بألوهية فرعون المزعومة؛ إذ سقطَتْ عزةُ فرعونَ التي أقسمَ بها السحرةُ عند إلقائهم الحبال والعصي، وقد علمَت الجماهيرُ الحاضرة أنهم اتبعوا أمرَ فرعون، **{وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ● يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}**[7].

وحاول فرعون استدراك الموقف، فأوهم الجماهير أن الإيمان بغيره يحتاج إلى إذن فرعوني، وذلك بقوله للسحرة: **{آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}**[8]، واتهمهم بالتآمر مع موسى ضده بقوله: **{إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}**[9]، **{إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}**[10]، علماً بأن اجتماعهم مع موسى لم يكن ليحصل لولا أن فرعون حشرهم في هذا المحفل يوم الزينة، ثم أصدر فرعون أمراً ظالماً بتعذيبهم لترتدع الجماهير، وتتعظَ بمصيرهم، ولا يجرؤ أحد على سلوك طريقهم، فأقسم قائلاً: **{فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}**[11].

غير أن الإيمان دخل قلوب السحرة، فتركوا سحرهم، وزهدوا في الدنيا، وطمعوا في الآخرة، و**{قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ● إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}**[12] وقالوا لفرعون: **{لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ● إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ● إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا**

---

(1) سورة طه، الآية: (69).
(2) سورة يونس، الآية: (81 - 82).
(3) سورة الشعراء، الآية: (45).
(4) سورة الأعراف، الآية: (118 - 119).
(5) سورة الشعراء، الآية: (46).
(6) سورة الشعراء، الآية: (47 - 48).
(7) سورة هود، الآية: (97 - 98).
(8) سورة الأعراف، الآية: (123).
(9) سورة طه، الآية: (71).
(10) سورة الأعراف، الآية: (123).
(11) سورة طه، الآية: (71).
(12) سورة الشعراء، الآية: (50 - 51).

فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ● وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ● جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}[1].

وتذكر بعضُ الروايات أن فرعون صلبهم وعذبهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة)[2]، وقد تحلوا بالصبر، وقالوا: **{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}**[3].

ولما رأت الجماهير بطش فرعون بالسحرة، خافَت من الإيمان برب موسى وهارون عليهما السلام، **{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ}**[4]، وبَيَّن موسى عليه السلام للمؤمنين أن مسألة الإيمان تحتاج إلى الصبر والتوكل على الله، **{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ● فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ● وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}**[5].

وأوحى الله إلى موسى وهارون عليهما السلام أن يتجنبا الصدام مع فرعون، ويمارسا مع المؤمنين العبادة وإقامة الصلاة في البيوت، **{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}**[6]، أي: واجعلوا بيوتكم مساجدَ تصلُّون فيها، وتذكر الروايات أنهم كانوا لا يصلون إلا في المعابد، وكانوا لا يصلون إلا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم آمنين[7].

ودعا موسى على فرعون وملئه، **{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}**[8]، ومعنى الدعاء: أن الله آتاهم الأموال وزينة الحياة الدنيا، فضلُّوا عن سبيل الله، وكفروا به، فدعا موسى ربه عليهم بإهلاك أموالهم جزاء كفرهم[9]، فاستجاب الله دعاء موسى، وأمره أن يتبع في بيان رسالته هو وهارون أمرين: أحدهما: الاستقامة في السلوك، والآخر: العلم في الفكر، والحوار العقلي، **{قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}**[10].

واقترح زبانية فرعون التنكيل بموسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين، **{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}**[11]، فوعدهم فرعون بالبطش بموسى وقومه، **{قَالَ**

---

(1) سورة طه، الآية: (72 - 76).
(2) الدمشقي، إسماعيل بن عمر (ت 774هـ)، قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، القاهرة، مطبعة دار التأليف، الطبعة الأولى، (1388هـ - 1968م)، ص: (331).
(3) سورة الأعراف، الآية: (126).
(4) سورة يونس، الآية: (83).
(5) سورة يونس، الآية: (84 - 86).
(6) سورة يونس، الآية: (87).
(7) يُنظَر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [172/15].
(8) سورة يونس، الآية: (88).
(9) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [166/6].
(10) سورة يونس، الآية: (89).
(11) سورة الأعراف، الآية: (127).

سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}[1]، ومضى الملأ من قوم فرعون يقولون للجنود: **{اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ}**[2]، وقام موسى عليه السلام بمواجهة المحنة، فطلب من قومه الذين آمنوا معه أن يستعينوا بالله، ويصبروا على البلاء؛ لتكون العاقبة للمتقين، **{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**[3]، وصبر قوم موسى على أذية فرعون، فأخبَره قَومُه أن الأذية كانت واقعة بهم من قبل أن يبعثَهُ اللهُ إليهم، **{قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا}**[4]، فبشرهم موسى بهلاك عدوهم، **{قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}**[5].

واستخفَّ فرعونُ قومَه، وقررَ أن يتخلَّص من موسى ويقتله ومن معه، **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}**[6]، وكان في قصر فرعون من بين مستشاريه رجلٌ مؤمنٌ يكتم إيمانه، فدافع عن موسى موجهاً الكلام إلى الملأ من قوم فرعون: **{وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}**[7]، وحذرهم من إلحاق الأذى بموسى؛ إذ إنه ما من أمة آذت نبيها وحاربت دين الله إلا سُلبت ملكها، وذلت بعد عزتها، وحاق بها بأس الله، فقال لهم: **{يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}**[8]، فأجاب فرعون عَمّا عرضه المؤمن بأن رؤيتَه هي الصواب الذي يوصلهم إلى سبيل الرشاد، وحرم على قومه أن يروا غير ما يرى، **{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}**[9].

وأصر فرعون على طغيانه، وعقد العزم على قتل موسى والبطش بأتباعه، وأوحى الله إلى موسى: **{أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ● فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ● إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ● وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ● وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ}**[10]، وتولى فرعون بركنه، وجمع جنوده وأركان جيشه، ولحق بموسى وأتباعه، **{فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ● فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ}**[11] وجد موسى ومن معه أنفسهم أمام البحر، البحر من أمامهم، والعدو من ورائهم فـ **{قَالَ أَصْحَابُ**

(1) سورة الأعراف، الآية: (127).
(2) سورة غافر، الآية: (25).
(3) سورة الأعراف، الآية: (128).
(4) سورة الأعراف، الآية: (129).
(5) سورة الأعراف، الآية: (129).
(6) سورة غافر، الآية: (26).
(7) سورة غافر، الآية: (28).
(8) سورة غافر، الآية: (29).
(9) سورة غافر، الآية: (29).
(10) سورة الشعراء، الآية: (52 - 56).
(11) سورة الشعراء، الآية: (60 - 61).

مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ● قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}[1]، وأوحى الله إلى موسى: **{أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}**[2]، أي: الجبل العظيم، فأرسل اللهُ الريحَ على أرض البحر، فلفحَتْه حتى صارَ يابساً كوجه الأرض[3]؛ وصار في البحر طريق يابسة، ليس فيها طين تتعثر فيها أقدامُ السالكين، قال: **{فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى}**[4]، ووصل فرعون إلى البحر، ولم يفكر في عاقبة أمره، وأخذته العزة بالإثم، وسار خلف موسى وأتباعه سالكاً الطريق اليابسة التي شقها الله لموسى في البحر، **{فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا}**[5]، **{فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}**[6]، وجاوز الله ببني إسرائيل البحر، ثم أعاد البحر رهواً كما كان، وأغرق الله فرعون وجنوده، **{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}**[7]، غير أن الله قضى - ولا راد لقضائه - أنَّ التوبةَ ليست للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهُم المَوتُ قال إني تبت الآن، فقال الله لفرعون: **{آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}**[8]؟

لقد مات فرعون غرقاً في الماء، ولم يصدق المصريون أن الذي حشر فنادى، وقال أنا ربكم الأعلى، قد أخذه الله نكال الآخرة والأولى، ليكون عبرة لمن يخشى! لم يصدق آل فرعون أن إلههم المزعوم قد مات غرقاً في البحر! فنجَّى اللهُ بدنَه ليكون آية دالة على ضعفه وعجزه، ليبصره المصريون بأم أعينهم جثةً هامدة لا حول لها ولا قوة، وأنها لا تستحق أن تكون إلهاً يعبد، ولا رباً يطاع، **{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}**[9].

قال تعالى: **{وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ● ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ● إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ● وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}**[10].

❋❋❋

(1) سورة الشعراء، الآية: (61 - 62).
(2) سورة الشعراء، الآية: (63).
(3) يُنظر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [307/5].
(4) سورة طه، الآية: (77).
(5) سورة يونس، الآية: (90).
(6) سورة طه، الآية: (78).
(7) سورة يونس، الآية: (90).
(8) سورة يونس، الآية: (91).
(9) سورة يونس، الآية: (92).
(10) سورة الشعراء، الآية: (65 - 68).

المبحـث الثالـث:
موسى عليه السلام مع بني إسرائيل

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: طلبهم منه أن يجعل لهم إلهاً مجسداً.
- المطلب الثاني: عبادتهم لعجل السامري وتوبتهم منه.
- المطلب الثالث: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.

المطلب الأول:
طلبهم منه أن يجعل لهم إلهاً مجسداً

جاوز اللهُ ببني إسرائيل البحر، وأغرق فرعون وجنوده أجمعين، وابتدأت في رسالة موسى عليه السلام مرحلة جديدة مع بني إسرائيل؛ إذ واجهَ قوماً يعانون طفولة فكرية، ويحملون في معتقداتهم بقايا وثنية أخذوها عن الفراعنة، **{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ}**[1]، والعكوف هو الملازمة بنية العبادة والتعظيم[2]، فجاء السفهاء من بني إسرائيل إلى نبي الله موسى عليه السلام، و **{قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}**[3]، يعني: كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها؛ فاجعل لنا أنت إلهاً نعبده ونعظمه[4]، فأجابهم موسى عليه السلام: **{قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}**[5]، أي: إنكم قوم تجهلون عظمة الله وواجبَ حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض[6]، **{إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[7]، والمتبّر: المدمّر، والتّبَار: الهلاك[8]، والمراد من بطلان عملهم أنه لا يجلب لهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضراً[9]؛ لأن الله سبحانه ليس حجراً أصم، ولا عجلاً جسداً، وليس كمثله شيء، وإن الذي حمل هؤلاء على عبادة الأوثان إنما هو الجهل، وعندما ينتهي الجهل ستندثر الوثنية، ويبطل ما يعمل الوثنيون.

ثم ذكَّرهم بنعم الله عليهم، **{قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ● وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}**[10]، ويراد بالبلاء في هذا الموضع البلاء الحسن؛ لأن البلاء قد يكون حَسَناً، وقد يكون سيئاً، فهو في أصله الامتحان؛ كما قال تعالى: **{وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}**[11]، فالله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوَى التي يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحَسَن بلاء، وللسّيئ بلاء؛ كما ذكره القرطبي، فيصبح معنى البلاء على بني إسرائيل في هذه الآية هو تنجيتهم نعمة من الله عليهم[12]، وهو ما يؤكّدُه قولُه تعالى: **{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}**[13]، فنبي الله موسى عليه السلام يذكّرهم بنعمة الله عليهم؛ من إنقاذهم من قهر فرعون، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا

---

(1) سورة الأعراف، الآية: (138).
(2) يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [438/5].
(3) سورة الأعراف، الآية: (138).
(4) يُنظَر: الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، بيروت، دار الكتب العلمية، (1399هـ - 1979م)، [86/3].
(5) سورة الأعراف، الآية: (138).
(6) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [80/13].
(7) سورة الأعراف، الآية: (139).
(8) يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [440/5].
(9) يُنظَر: الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [87/3].
(10) سورة الأعراف، الآية: (140 - 141).
(11) سورة الأنبياء، الآية: (35).
(12) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [90/1].
(13) سورة البقرة، الآية: (50).

إليه من إهلاك عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره[1]، فهو يقول لهم: اذكروا آلاء الله عليكم وآياته التي تدعوكم إلى عبادته وحده، فكيف تريدون العكوف على عبادة أوثان ما أنزل الله بها من سلطان؟!

* * *

المطلب الثاني:
عبادتهم لعجل السامري وتوبتهم منه

يذكر القرآنُ الكريم تفاصيلَ إنزال التوراة على كليم الله موسى عليه السلام ومن ذلك قولُه تعالى: **{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}**[2]، قال المفسرون: فصام موسى ثلاثين يوماً، فلما تمَّ الميقاتُ، استاك بلحاءِ شجرة، فأمرَه اللهُ تعالى أن يكملَ بعشرٍ أربعين، وتعدّدت الأقوال في تعيين الأربعين؛ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام[3].

وكان موسى عليه السلام قد استخلَفَ في قومه أخاه هارون عليه السلام، **{وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}**[4]، أي: أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله، وتجنب طاعة من عصى الله، ولا توافقه على أمره[5].

ومضى موسى عليه السلام إلى ميقات ربه في جبل الطور، وكلمَه ربُّه من وراء حجاب، فطمع عليه السلام في رفع الحجاب ورؤية الله ببصره، **{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}**[6]، فأجابه الحق سبحانه: **{قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا}**[7]، وأصبح خاشعاً متصدعاً من

(1) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [468/3].
(2) سورة الأعراف، الآية: (142).
(3) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [468/3].
(4) سورة الأعراف، الآية: (142).
(5) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [275/3].
(6) سورة الأعراف، الآية: (143).
(7) سورة الأعراف، الآية: (143).

خشية الله، **{وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ}**[1]، قال ذلك تنزيها وتعظيماً وإجلالاً أن يرى اللهَ أحدٌ من الدنيا إلا مات، وتاب موسى عليه السلام إلى الله من هذا السؤال[2] بقوله: **{تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}**[3].

وبذلك أيقن موسى عليه السلام أن الله تعالى **{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}**[4]، وأن الخلق والعباد يتعرفون إلى الله بآثاره الظاهرة الباهرة، وقد بلّغه الله سبحانه الرسالة، وأنزل عليه التوراة، **{قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ● وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}**[5].

وذكر بعضُ المفسرين أن موسى عليه السلام لما وفد إلى طور سيناء بالوعد اشتاق إلى ربه، وطالَت عليه المسافة من شدّة الشوق إلى الله تعالى، فضاقَ به الأمرُ حتى شقَّ قميصَه، ثم لم يصبر حتى ترك السبعين المختارين من قومه، ومضى وحدَه؛ فلما وقف في مقامه، فسأله الحق تبارك وتعالى: **{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى}**[6]؟ فبقي عليه السلام متحيراً من جواب هذه الكلمة، فكنى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا، **{قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}**[7]، أي: لتزدادَ عني رضا، وقد قال ذلك شوقاً[8].

وشاء الحق سبحانه أن يخبرَ موسى بما جرى لقومِه في غيبته، **{قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}**[9]، أي: دعاهم إلى الضلالة، أو هو سببها! "قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السامريّ من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر، فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبِهِ ما فيه من عبادة البقر"[10]، **{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا}**[11]، فوجد أن السامري قد أخذَ حُليَّ القوم، وسبكها على شكل عجل جسد، وضبط اتجاهَه بحيث تدخل الريح من دبره، وتخرج من فمِه، فيخرج منه صوت يشبهُ خوار البقر، **{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}**[12]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره، فيخرج من فيه، فيُسمَعُ له صوتٌ"[13]، وادعى السامريُّ أن موسى قد نسي إلهَه ومضى، **{فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}**[14]. وكان هارون عليه السلام قد

(1) سورة الأعراف، الآية: (143).
(2) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [471/3].
(3) سورة الأعراف، الآية: (143).
(4) سورة الأنعام، الآية: (103).
(5) سورة الأعراف، الآية: (144 - 145).
(6) سورة طه، الآية: (83).
(7) سورة طه، الآية: (84).
(8) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [103/8].
(9) سورة طه، الآية: (85).
(10) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [104/8].
(11) سورة طه، الآية: (86).
(12) سورة الأعراف، الآية: (148).
(13) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [311/5].
(14) سورة طه، الآية: (88).

حذرهم من هذه الفتنة، وقال: **{يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي}**[1]، يـا قـوم، أفلا ترون أن العجلَ لا يُكلمكم، ولا يهديكم سبيلاً؟! أفلا ترون أنه لا يرجعُ إليكم قـولاً، ولا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟! فكان جوابهم: **{قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}**[2]، "أي: لا نترك عبادتـه حتى نسـمع كلام مـوسى فيه! وخالفـوا هـارون عليه السلام في ذلك، وحاربوه، وكادوا أن يقتلـوه!"[3] وتمسكوا بعبادتهم عجل السـامري، **{اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}**[4].

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا}[5] وَبَّخَ قومَه على انحرافهم في العقيدة، **{قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي}**[6]! **{يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْـدُ}**[7]؟ **{أَعَجِلْتُـمْ أَمْـرَ رَبِّكُـمْ}**[8]؟ **{أَمْ أَرَدْتُـمْ أَنْ يَحِـلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُـمْ مَوْعِـدِي}**[9]؟ فاعتـذروا إليـه، وأخبروه بما فعله السـامري، **{قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّـامِرِيُّ}**[10].

فَحمَّـل موسى عليه السلام المسـؤوليـة لأخيـه هـارون عليه السلام، **{وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}**[11]، **{قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ● أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}**[12]؟ فأجابه هارون عليه السلام بلطف ورقة: **{قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}**[13]، وإن نبيَّ الله هارون عليه السلام قدم اعتذاره لنبي الله موسى عليه السلام في سبب عدم لحاقه به ليخبره بما كان من عبادة بني إسرائيل لعجل السامري، قال إِنِّي خَشِيتُ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتَهم وحدَهم، وفرقتَ بينَهم، وما راعيتَ ما أمرتُك به حيث استخلفتك فيهم؟[14] لكني حذرتُهم، وقلت لهم: إنما فتنتم بعجل السامري، **{وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي}**[15]، ولكنَّ **{الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**[16]، فهدأ روع موسى عليه السلام، و**{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}**[17]، وتوعَّد الذين عبدوا العجل بغضبٍ من الله وذِلَّة في الدنيا جزاء على افترائهم، **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا**

---

(1) سورة طه، الآية: (90).
(2) سورة طه، الآية: (91).
(3) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [312/5].
(4) سورة الأعراف، الآية: (148).
(5) سورة الأعراف، الآية: (150).
(6) سورة الأعراف، الآية: (150).
(7) سورة طه، الآية: (86).
(8) سورة الأعراف، الآية: (150).
(9) سورة طه، الآية: (86).
(10) سورة طه، الآية: (87).
(11) سورة الأعراف، الآية: (150).
(12) سورة طه، الآية: (92 - 93).
(13) سورة طه، الآية: (94).
(14) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [312/5].
(15) سورة طه، الآية: (90).
(16) سورة الأعراف، الآية: (150).
(17) سورة الأعراف، الآية: (151).

الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}[1].

ومضى موسى عليه السلام إلى السامري، **{قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ● قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}**[2]، "وكان بنو إسرائيل استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إن ما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه، فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامري، فألقي في روعه أنك لو قذفتَ هذه القبضةَ في هذه، فقلت: "كن" كان، فقذفَ القبضةَ، وقال: "كن"، فكان عجلاً له خوار"[3]، فحكم عليه موسى عليه السلام بالطرد والإبعاد، وحَرَّم على أحد من قومه لقاءَه، أو التحدث معه، **{قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}**[4]، أي: ماذا يملك لك أو لنفسه؟! **أُقْسِمُ {لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}**[5]، ولما حَرَّق موسى العجل، ونسفه في اليم، أثبتَ لقومهِ عجز الأوثان عن تقديم شيء لنفسها إزاء خطر يتهدَّدها، فكيف تملك كشفَ الضر عن الآخرين؟ **{إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}**[6]، ثم أخذَ الألواح يبلغ قومَه ما فيها من الهدى والرحمة، **{وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}**[7].

توبتهم من عبادة العجل:

حاسب موسى عليه السلام قومَه على عبادتهم للعجل، فندموا على زلتهم: **{قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ● فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}**[8]، وقد أخبرهم موسى أنهم ظلموا أنفسهم بعبادة العجل، وأن عليهم أن يتوبوا إلى الله بقتل أنفسهم، **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}**[9]، وقد تعدَّدتِ الرواياتُ وأقوال المفسرين وآراؤهم في تفسير هذه الآية؛ لأن فيها أمراً بقتل النفس، وهو مخالف لما أجمعت عليه الشرائع من مقصد حفظ النفس، فكيف يؤمَر الإنسانُ بقتل نفسهِ وهو مأمورٌ بحفظها؟! **{وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ● وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}**[10]، فالنصُّ واضحٌ وصريح في أن الذي يقتل نفسَه مصيره إلى النار، بينما الآية التي نحن بصدد تفسيرها تجعل قتلَ النفس شرطاً للتوبة! وقد أجمل المسألة صاحب التحرير والتنوير فذكر أن هذا تشريع حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التي قيل قد اتفقَت عليها شرائع الله،

---

(1) سورة الأعراف، الآية: (152).
(2) سورة طه، الآية: (95 - 96).
(3) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [313/5].
(4) سورة طه، الآية: (97).
(5) سورة طه، الآية: (97).
(6) سورة طه، الآية: (98).
(7) سورة الأعراف، الآية: (154).
(8) سورة طه، الآية: (87 - 88).
(9) سورة البقرة، الآية: (54).
(10) سورة النساء، الآية: (29 - 30).

فالنصُّ في ظاهره يدلُّ على أنه كلفَهم بقتل أنفسهم قتلاً حقيقة؛ إما بأن يقتل كل مَن عبد العجل نفسَه، فيكون المراد بالأنفس الأرواح التي في الأجسام، فالفاعل والمفعول واحد على هذا، وإما بأن يقتل مَن لم يعبدوا العجل عابديه، فيكون المعنى: فليقتلْ بعضُكم بعضاً، فالفاعل والمفعول متغايران. وهذا الحكم منسوخٌ، وهو خاصٌّ بقوم موسى الذين عبدوا العجل، ولا يسري على غيرهم، ومن جانب آخر ذكر بعض المفسرين أن الأمر بقتل النفس هنا محمول على معنى القتل المجازي، وهو التذليل والقهر، ويعقب ابن عاشور على ذلك بقوله: "وفيه بُعدٌ عن اللفظ، بل مخالفة لغرض الامتنان؛ لأن تذليل النفس وقهرها شريعة غير منسوخة"[1]. ويرجح الباحث رأي من يقول بأن الأمر محمول على القتل المجازي لأنه موافق لمقصد الشرائع السماوية في حفظ النفس.

واختار موسى عليه السلام من قومه وفداً مؤلفاً من سبعين رجلاً من أخيارهم للذهاب معه إلى جبل الطور؛ ليعتذروا عن عبادة قومهم للعجل، ويقدموا الطاعة لله، ويندموا على ما اقترفوا من إثم، **{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا}**[2]، وقال لهم موسى: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسَلُوه التوبة على مَن تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم، فلما جاؤوا سمعوا تكليم الله لنبيه موسى، غير أن جماعة منهم لم يؤمنوا أن الله هو الذي يكلم موسى، فطلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة، **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}**[3]، فإذا كان ضوء الصاعقة قد أخذ الأبصار الحسية التي في رؤوسهم، فكيف تتمكن أبصارهم من رؤية الله سبحانه؟! وهكذا أماتهم الله جميعاً عدا موسى عليه السلام[4]. وقد تضرع موسى إلى الله طالباً العفو عما صدر من سفهائهم، وألا يؤاخذ المجموع بما فعله السفهاء، **{فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ● وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}**[5]، وراح موسى يبكي ويقول لربه: لقد قتلتَ من بني إسرائيل من عبد العجل منهم، واخترتَ من بقيتهم هؤلاء، فإذا رجعتُ إليهم، ولا يكون معي منهم أحدٌ، فماذا أقول لهم؟! أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل؟ فقال الله لموسى: **{عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}**[6].

ثم استجاب اللهُ دعاءَه، فأحياهم من بعد موتهم، عسى أن يكونوا من الشاكرين: **{ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**[7].

* * *

(1) يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [297/1].
(2) سورة الأعراف، الآية: (155).
(3) سورة البقرة، الآية: (55).
(4) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [480/3].
(5) سورة الأعراف، الآية: (155 - 156).
(6) سورة الأعراف، الآية: (156).
(7) سورة البقرة، الآية: (56).

المطلب الثالث:
إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة

وهذه حادثة وقعت مع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر في ظروف غامضة، ألجأت الأطراف المتخاصمة إلى حمل السلاح، فقال أصحاب الرأي فيهم: علامَ يَقتلُ بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟! فأتَوا نبيَّ الله موسى يتقاضَون إليه، فكان ما كان من أمر البقرة، وقد ذكرها القرآن الكريم في معرض ذكر كثرة اختلاف بني إسرائيل على أنبيائهم[1].

وهناك لطيفة في قول نبي الله موسى عليه السلام لبني إسرائيل: **{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}**[2]، وهي أن موسى عليه السلام إنما أمرهم بذبح بقرة دون غيرها؛ لأنها كانت من جنس ما عبَدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته، ويعلق القرطبي قائلاً: وهذا المعنى علة في أمر موسى عليه السلام لبني إسرائيل أن يذبحوا بقرة[3].

وأما رواية القصة كاملة؛ فقد ذكر المفسرون تفاصيل قصة البقرة عن ابن عباس، وعن عدد من أئمة التابعين وهم: عبيدة السلماني[4]، وأبو العالية[5]، والسدي[6]، وتذكر مجمل هذه الروايات أنه كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخاً كبيراً، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موتَه ليرثوه، فعمد أحدُهم إليه، فقتله ليلاً، ثم أخذَه وطرحَه على طريق أفضل سبط من الأسباط، فلما أصبح الناسُ اختصموا فيه، وتدارؤوا دمَه؛ حيث دفعت كل طائفة الدم عن نفسها إلى غيرها، وجاء ابن أخيه -القاتل- فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟! فمضى المتظلم -القاتل- إلى نبي الله موسى عليه السلام يطلب منه الكشفَ عن الجاني وإنصافه منه، فقال موسى: "أنشد الله رجلاً عندَه علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به"! فلم يكن أحدٌ عندَه علمٌ سوى القاتل المتظلم، فقالوا: يا نبي الله، سل لنا ربك، فسأل موسى عليه السلام رب العزة، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة، **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}**[7]، فقالوا له: نحن نسألك عن أمر القتيل، وأنت تأمرنا أن نَذْبح بقرة؟! **{قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا}**[8]، فأجابهم موسى بأن الهزء من صفات الجاهلين، **{قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}**[9]، بل أبلغكم ما أوحي إليَّ من ربي. ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لحصل المقصود،

---

(1) يُنظَر: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1415هـ)، [285/1].

(2) سورة البقرة، الآية: (67).

(3) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [445/1].

(4) عبيدة السلماني: الفقيه، الكوفي، أخذ عن علي وابن مسعود، روى عنه إبراهيم النخعي وابن سيرين، أسلم يوم الفتح وليس له صحبة، وتوفي عام 72هـ. يُنظَر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، (المتوفى: 748هـ)، سير أعلام النبلاء، الطبعة العاشرة، (1414هـ - 1994م)، [41/7].

(5) أبو العالية: رفيع بن مهران، الإمام، المقرئ الحافظ، المفسر، البصري، أسلم في خلافة أبي بكر، قرأ القرآن على أبي بن كعب، سمع من عمر وعلي وعائشة وابن مسعود رضي الله عنهم، وغيرهم، توفي عام 93هـ. يُنظَر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، [231/7].

(6) السدي: إسماعيل بن عبد الرحمن، الإمام، المفسر، حدّث عن أنس وابن عباس رضي الله عنهم، وحدّث عنه شعبة، وسفيان الثوري وآخرون، توفي عام 120هـ. يُنظَر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، [314/9].

(7) سورة البقرة، الآية: (67).

(8) سورة البقرة، الآية: (67).

(9) سورة البقرة، الآية: (67).

ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم، فسألوا موسى عليه السلام عن صفة هذه البقرة، **{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ}**[1]، فأجابهم عليه السلام بما أوحى الله إليه بأنها بقرة ليست بمسنة انقطعت ولادتها، ولا بكراً لم يسبق لها أن ولدت، بل هي عوان، أي: نِصفٌ بين الكبيرة والصغيرة[2]، **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ}**[3] غير أنهم ماطلوا في تنفيذ أمر الله، وسألوا موسى عليه السلام أن يسأل ربه عن لونها، **{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا}**[4]، فأوحى الله إليه: **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}**[5].

وعلى الرغم من ندرة هذا اللون في الأبقار، فقد طلبوا مزيداً من العلامات تشدداً، وتوجهوا إلى موسى عليه السلام بالقول: **{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}**[6]، وهذه مقولة توضح تلكؤهم في تنفيذ أمر الله، فشدد اللهُ عليهم في أوصاف البقرة مرة أخرى؛ إذ طلب منهم أن تكون البقرة لم تُذلَّل بالحرث والسقي، سالمة من العيوب، **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}**[7]، وكأنه بكل ما قدَّم من أوصاف، وبلغهم من وحي، لم يأتِ بالحق، حتى قالوا له: الآن جئت بالحق!

وممضوا ليبحثوا عن البقرة المحددة الأوصاف، وقد شاء الله سبحانه أن تخدم هذه القضية مسألة إيمانية أخرى، فقد روي أن رجلاً صالحاً يتحرى الحِلَّ في صرفه وإنفاقه، لم يبقَ له عند احتضاره سوى بقرة، فقال: اللهم إني أستودعك هذه البقرة لولدي، وكان هذا الولد باراً بأبيه، فكافأه الله على برّه، وجعل له في هذه البقرة خيراً كثيراً، فقد جاء المختصمون الباحثون عن البقرة المطلوبة، فوجدوها عنده، فطلبوها منه، فأبى عليهم حفاظاً على ميراث أبيه، فأرغبوه في ثمنها، حتى أعطوه بوزنها ذهباً، فباعها لهم، ثم أخذوها، **{فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}**[8]، يقول القرطبي: "وهذا إخبار عن تثبيطهم في ذبحها، وقلة مبادرتهم إلى أمر الله، وخوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم"[9].

وحتى يخرج الله تعالى ما يكتمون من أمر هذا القتيل؛ فقد أوحى الله إلى موسى أن يأخذوا بعضاً من البقرة المذبوحة، ويضربوا به الميت، **{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**[10]، فضربوا الميت بعظم الفخذ، فأحياه اللهُ تعالى، فقام حياً، وأوداجه تشخبُ دماً! فقال

(1) سورة البقرة، الآية: (68).
(2) يُنظر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [299/1].
(3) سورة البقرة، الآية: (68).
(4) سورة البقرة، الآية: (69).
(5) سورة البقرة، الآية: (69).
(6) سورة البقرة، الآية: (70).
(7) سورة البقرة، الآية: (71).
(8) سورة البقرة، الآية: (71).
(9) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [455/1].
(10) سورة البقرة، الآية: (73).

له موسى: مَن قتلك؟ فقال: قتلني ابن أخي فلان، ثم عاد ميتاً كما كان[1].

فأقام موسى عليه السلام الحد على القاتل، ومنعه من الميراث؛ إذ من المقرر في الشرائع السَّماويَّة أنه من استعجلَ الشيء قبل أوانه عُوقِب بحرمانه، والقاتل لا يرث؛ إذ إن القتل يُعَدَّ مانعاً من الميراث، كما روي عن عبيدة السلماني: "أن رجلاً من بني إسرائيل كان له ذو قرابة، وهو وارثه، فقتلَه ليرثَه، ثم ذهبَ فألقاه على باب قوم آخرين، ـــ وذكر قصة البقرة ـــ وذكر بعدها؛ فلم يورَّث بعدها قاتل"[2].

***

(1) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [108/1].

(2) أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق: محمّد الصادق قمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1405ه)، [43/1].

المبحث الرابع:
موسى عليه السلام مع العبد الصالح

وفيه ستة مطالب:

- المطلب الأول: التعريف بالعبد الصالح.
- المطلب الثاني: البحث عن العبد الصالح.
- المطلب الثالث: لقاء موسى والخضر.
- المطلب الرابع: أحداث رحلة موسى والخضر عليهما السلام.
- المطلب الخامس: تفسير حقيقة الأحداث.
- المطلب السادس: حقيقة العبد الصالح (الخضر).

المطلب الأول:
التعريف بالعبد الصالح

في قصة موسى والعبد الصالح التي ورد ذكرها في القرآن الكريم[1]، يرد على الذهن سؤال: من هو هذا العبد الصالح، الذي أثارت مواقفه تساؤلات موسى الكليم؟

ويكتفي القرآن الكريم بالإشارة إليه بقوله: **{فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}**[2]؛ دون التصريح باسمه أو لقبه أو نسبه، وهذه عادة القرآن في القصص، يهتم بالغايات، والأهداف.

اسمه ونسبه: ورد في اسمه ونسبه روايات: أشهرها أنه: "بليا بن ملكان"، وأما لقبه فهو؛ الخضر، وهو المشهور به. قال الإمام النووي: "كنية الخضر: أبو العباس، واسمه: بَلْيا بن مَلْكان، قال وهب بن منبه: اسم الخضر: بليا بن ملكان، وكان أبوه من الملوك"[3]. يقول العلامة الألوسي - بعد أن ذكر في تفسيره مختلف الأقوال الواردة في ذلك وناقشها -: "ولم يصح عندي شيءٌ من هذه الأقوال؛ بيدَ أن صنيع النووي عليه الرحمة في شرح مسلم يشعر باختيار أنه بَلْيا بن مَلْكان، وهو الذي عليه الجمهور، والله تعالى أعلم"[4].

وأما لقبه: فهو الخَضِر كما تدل عليه الأخبار الصحيحة الواردة في تفسير قوله تعالى: **{فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا}** "هذا هو الخضر، كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ"[5]. وذكر البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ»**[6]، قال ابن حجر: "عن ابن الأعرابي: الفروة: أرضٌ بيضاء ليس فيها نبات"[7]، وقال القاضي عياض: "الفروة: الأرض التي لا نبات فيها"[8]. وأورد الخازن في تفسيره روايات فيها: أن الخضر كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا، وتركوا الدنيا[9].

ويجد المطلع على قصة الخضر في القرآن الكريم أن النص القرآني قد ذكر صفات للعبد الصالح جديرة بالإشارة إليها، وهي أنه:

أ. حاز شرف العبودية لله؛ إذ شهد اللهُ له بذلك في قوله تعالى: **{فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا}**[10].

ب. آتاه اللهُ رحمة من عنده، وقد وصفَه اللهُ تعالى بقوله: **{آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا}**[11].

ج. علمه الله علماً لَدُنِّيّاً عرف من خلاله حكمة الأقدار والأفعال، كما جاء في وصفه تعالى له: **{وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}**[12].

---

(1) في سورة الكهف، الآيات: (60 – 82).
(2) سورة الكهف، الآية: (65).
(3) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مصدر سابق، [136/15].
(4) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مصدر سابق، [320/15].
(5) الدمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [92/3].
(6) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليه السلام، رقم: (3402)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، في كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، رقم: (2380).
(7) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشّافعي، أبو الفضل (ت852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، (1379هـ)، [433/6].
(8) القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي (ت544هـ)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة ودار التراث، الطبعة الأولى، [244/1].
(9) الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [223/4].
(10) سورة الكهف، الآية: (65).
(11) سورة الكهف، الآية: (65).
(12) سورة الكهف، الآية: (65).

د. كانت أفعاله صادرة عن وحي من الله تعالى، ولهذا قال العبد الصالح لموسى وهو يعلل الحكمة من أفعاله: **{وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}**[1].

وقد اختلف العلماء في حقيقة الخضر ، فمن قائل: إنه نبي، ومن قائل: إنه عبد صالح أوتي علم الباطن، ولكل فريق أدلته، وسنرجئ الحديث عن حقيقته إلى نهاية قصته في القرآن الكريم.

***

المطلب الثاني:
البحث عن العبد الصالح

وقف موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، يعظهم ويذكرهم بأيام الله، فلما انتهى من خطبته، سأله رجل قائلاً: مَن أعلَمُ أهل الأرض؟ فقال موسى: أنا كليم الله.

وإن الناظر في إجابة موسى ليرى أنها صواب؛ إذ هو كليم الله، وقد نجى اللهُ بني إسرائيل على يديه، وأنزل عليه التوراة، وكلمه الله بلا واسطة من وراء حجاب، ولكن موسى عليه السلام عندما لم ينسب العلم إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك يا موسى.

وقد ورد في الصحاح حكاية ذلك عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ...»**[2]، قال العيني: "وهذا الحديث أخرجه البخاري في أكثر من عشر مواضع"[3].

وفي رواية أخرى عن أبي بن كعب رضي الله عنه: **«إِنَّ مُوسَى رَسُولَ اللهِ ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا؛ حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَعُتِبَ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا أَعْلَمَ مِنْكَ»**[4]، وكان هذا الوحي أمراً إلهياً[5]

---

(1) سورة الكهف، الآية: (82).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) [الكهف: 60]، رقم: (4725).

(3) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت864هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار إحياء التُّراث العربي، [316/35].

(4) أخرجه أحمد في مسنده، مصدر سابق، [54/35]، رقم: (21119). وعلق عليه الشيخ شعيب الأرنؤوط بقوله: "حديث صحيح".

(5) قال ابن جرير في تاريخه عن الخضر عليه السلام (وهو العالم الذي أمره الله تبارك وتعالى بطلبه). يُنظَر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، [257/1].

بضرورة أن يلحق موسى عليه السلام بمَن هو أعلم منه، ويطلب العلم على يديه، حتى ولو طوى لأجل ذلك المسافات الشاسعة!

فسأل موسى عليه السلام ربه أن يدله على مكان الخضر ليهاجر إليه، فدله الله على مكانه بعلامة بارزة، وهي أن يتخذ الحوت الذي يحملُهُ طريقَهُ إلى البحر عند مجمع البحرين، وقد ورد في كتب الصحاح: **«... قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ»**[1].

فقرر موسى عليه السلام أن يهاجر إلى الخضر العالِم دون توقف، وطلب من فتاه أن يهيئ العدة للسفر، وفي ذلك قوله تعالى حكاية عن كليم الله موسى عليه السلام: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا}**[2].

وقد ورد في الصحاح أن فتاه هو يوشع بن نون[3]، ففي قصة الخضر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ)[4].

وأما مجمع البحرين فقد جاءت فيه أقوال؛ منها ما ذكره القرطبي، قال: "قيل هما بحر الأردن وبحر القلزم"[5].

وتجد في قرار هجرة موسى عليه السلام إلى الخضر الإصرار على طلبِ من هو أعلم، ولو بمسألة خفية، والرحلة من أجل ذلك إلى الآفاق البعيدة، مع أنه أحد الرسل أولي العزم، وقد أوتي علم النبوة؛ إذ هو القائل: **{لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا}**[6]، والحُقُب؛ هو الدهر كما في مختار الصحاح: "الحُقُبُ بضمتين: الدهر، وجمعه أحْقابٌ"[7].

وأعد موسى عليه السلام وفتاه العُدَّة، وحملا زاداً للطريق، وكان من بين الزاد الحوت، وقد أمر اللهُ موسى أن يحمله في المكتل كما سبق، ثم سار موسى وفتاه يقطعان المسافات الطويلة، ويطويان الأرض تحت أقدامهما؛ حتى وصلا مجمع البحرين، فتوقفا للاستراحة من وعثاء السفر، فأخذَتْ موسى سِنَةٌ من النوم، وبينما هو كذلك؛ إذ رد الله الحياة للحوت، فمضى في طريقه إلى البحر سرباً على حين غفلة من موسى وفتاه، جاء تفصيل ذلك في قوله ﷺ: **«... فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ؛ حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي البَحْرِ، {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا}، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ...»**[8].

ومعنى: **«فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ»**؛ أي: مثل الكوة غير النافذة، لا يلتئم عليها الماء، ورد في

---

(1) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4725).

(2) سورة الكهف، الآية: (60).

(3) يوشع بن نون: يقول ابن الأثير: (يوشع بن نون من أكبر أصحاب موسى عليه السلام، ومن آمن به وصدقه، ولم يزل معه إلى أن مات، وخلفه في شريعته، فكان من أعظم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى). يُنظَر: ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، [115/12].

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، رقم: (2380).

(5) محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، مصدر سابق، [9/11].

(6) سورة الكهف، الآية: (60).

(7) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، (1415هـ – 1995م)، مادة: (حقب)، (ص: 423).

(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) [الكهف: 60]، رقم: (4725).

روايةٍ عند مسلم: «**فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمَاءِ، فَجَعَلَ لَا يَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، صَارَ مِثْلَ الْكُوَّةِ**»[1].

وقد أشارت الآيات إلى ما جاء في الحديث الشريف، قال الله تعالى: **{فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا}**[2]، فبينما كان الفتى يتفقد الحوت، وجده يغطس في البحر، فما تجرأ على إخبار موسى بذلك، ولما انتهت مدة الاستراحة، تابعا المسير، فأحسَّا بالجوع، فطلب موسى من فتاه أن يشوي الحوت لتناول طعام الغداء: **{فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا}**[3]، وهنا لم يجد الفتى بداً من إخبار موسى بالحقيقة، **{قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا}**[4].

جاء في الحديث الشريف: «**فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ، قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: {آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا}، قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَا المَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَبًا}، قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا...**»[5].

فأدرك موسى عليه السلام أنه وصل إلى بغيته: **{قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا}**[6]، ورجعا يقتفيان آثار أقدامهما ليصلا إلى الصخرة التي فقد عندها الحوت، حيث سيلقى موسى الخضر عليه السلام كما أخبره الله سبحانه، وبعد تتبع الآثار وصلا إلى الصخرة.

جاء في الحديث قوله ﷺ: «**فَقَالَ مُوسَى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا}**[7]، **قَالَ: رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ**»[8].

يقول المفسر القرطبي: "وجمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً، وأن موسى عليه السلام مشى عليه متبعاً للحوت؛ حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر، وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر"[9].

* * *

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، رقم: (2380).
(2) سورة الكهف، الآية: (61).
(3) سورة الكهف، الآية: (62).
(4) سورة الكهف، الآية: (63).
(5) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: 60]، رقم: (4725).
(6) سورة الكهف، الآية: (64).
(7) سورة الكهف، الآية: (64).
(8) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4725).
(9) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [12/11].

المطلب الثالث:
لقاء موسى والخضر

نظر موسى عليه السلام يمنة ويسرة، فوجد رجلاً على وجهه دلائل النبوة، يسطع منه نور، ينبئ عن صلاح وتقوى وسماحة، وذلك قوله تعالى: **{فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}**[1]، فسلم موسى على الرجل؛ ليتعرف إليه، فسأله الخضر عليه السلام: مَن أنت؟ قال: أنا موسى! قال: موسى نبيُّ بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومن أعلمك بهذا؟ قال: الذي بعثك إليَّ! فعلم موسى أن هذا الرجل ضالته التي ينشدها، وبغيته التي جهد في سبيلها.

نجد تفصيلاً لأول لقاء جرى بين موسى والخضر عليهما السلام في الحديث النبوي الشريف: **«فَرَجَعَا فَوَجَدَا خَضِرًا عَلَى طِنْفِسَةٍ خَضْرَاءَ، عَلَى كَبِدِ البَحْرِ مُسَجًّى بِثَوْبِهِ، قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ، وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلاَمٍ؟! مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ»**[2].

وفي رواية: **«فَقَالَ: مَنْ عَرَّفَكَ هَذَا؟ قَالَ: الذِي بَعَثَكَ إِلَيَّ»**[3]، ثم قال الخضر لموسى: **«فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: جِئْتُ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا، قَالَ: أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الوَحْيَ يَأْتِيكَ يَا مُوسَى؟»**[4]، وفي بعض الأخبار قال الخضر لموسى: **«كَفَى بالتوراةِ عِلماً، وببني إسرائيل شُغْلاً، فقالَ لهُ مُوسى: إنَّ اللـهَ أمرَني بِهَذا»**[5].

تلطف موسى عليه السلام في القول، وطلب من الخضر أن يأذنَ له في صحبته طلباً للعلم الذي علمه الله إياه، وأرشده إليه، كما جاء في قوله تعالى: **{قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}**[6]، قال القرطبي: "هذا سؤال الملاطِف، والمخاطِب المستنزِل، المبالِغ في حسن الأدب، والمعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ وفي هذه الآية دليل أن المتعلم تبَع للعالم، وإن تفاوتت المراتب"[7].

فقال الخضر لموسى عليه السلام: إنَّ طلب العلم يحتاج إلى صبر، ولا أراك من الصابرين على صحبتي، وقد حكى القرآن عن الخضر قائلاً: **{قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}**[8]، أورد القرطبي تفسير قول الخضر: "يا مُوسى، لا تُطِيقُ أن تَصبِرَ على مَا تَرَاهُ مِن عِلْمي؛ لأن الظواهِرَ التي هي علمك لا تعطيه"[9]، وقال الخازن: "وإنما قال ذلك لأنه عَلِمَ أنه يرى أموراً منكرة، ولا يجوز للأنبياء الصبر مع المنكرات"[10].

---

(1) سورة الكهف، الآية: (65).
(2) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) [الكهف: 60]، رقم: (4726).
(3) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، مصدر سابق، [530/12].
(4) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4726).
(5) الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [223/4].
(6) سورة الكهف، الآية: (66).
(7) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [17/11]، يقول القرطبي تعقيباً: (ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشد عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله؛ فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه؛ لأنه نبيٌّ، والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة. والله أعلم).
(8) سورة الكهف، الآية: (67).
(9) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [17/11].
(10) الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [223/4].

ومن الطبيعي أن يفقد الإنسان صبرَه إذا قلَّت خبرتُه بالشيء، لأجل ذلك قال الخضر معتذراً عن موسى: **{وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}**[1]، وقد أورد القرطبي تفسيره لمعنى قول الخضر فقال: "وكيف تصبر على ما تراه خطأ، ولم تخبر بوجه الحكمة فيه؟"، ثم قال: "والأنبياء لا يقرون المنكر، ولا يجوز لهم التقرير"، فأجابه موسى: **{قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}**[2]، "أي: سأصبر بمشيئة الله"[3]، ولعل موسى: "إنما استثنى؛ لأنه لم يَثِقْ من نفسِه بالصبر"[4].

فاشترط الخضر على موسى عليه السلام أن يضبط نفسَه، ولا يعترض عليه، حتى ولو رأى في تصرفاته أموراً يُنكِرها من حيث الظاهر، إلى أن يفسر له حقيقة الأمر، ويُحدِث له منه ذكراً، **{قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}**[5]، والمعنى: "فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني، ولكن جعل الاختيار إليه، ثم شرط عليه شرطاً؛ بأن يتريث في الاعتراض على معلمه"[6]. وذكر المفسرون أن: "هذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض، فتعين الفراق والإعراض"[7]، ولهذا كان تعقيب الرسول ﷺ على قصة موسى والخضر عليهما السلام بقوله ﷺ: **«وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»**[8].

وجاء في الأحاديث الصحاح بيان ذلك وتفصيله: قال موسى للخضر -عليهما السَّلام-: **«أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا، قَالَ: {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا}، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ، فَقَالَ مُوسَى: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}»**[9].

يقول ابن حجر في الفتح معلقاً على قول الخضر: **«إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ»**: "والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص"[10].

وصار بين موسى والخضر عليهما السلام عقد على الشروط المذكورة وهي: الصبر، وعدم الاعتراض على ظاهر الأحداث قبل تفسيرها ومعرفة حقيقتها.

* * *

(1) سورة الكهف، الآية: (68).
(2) سورة الكهف، الآية: (69).
(3) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [17/11].
(4) الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [223/4].
(5) سورة الكهف، الآية: (70).
(6) يُنظَر: الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [223/4].
(7) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [18/11].
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: 60]، رقم: (4725).
(9) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4725).
(10) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، [219/1].

المطلب الرابع:
أحداث رحلة موسى والخضر

بعد الاتفاق بين موسى والخضر عليهما السلام انطلقا في الساحل؛ حتى لمحا سفينة في البحر، فقصداها وطلبا من أهلها أن يحملاهما إلى حيث يذهبون، فحملوهما وأكرموهما، ورد في الحديث: **«فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ»**[1]، وبينما هما في السفينة، وعلى حين غفلة من أهلها، قام الخضر بإحداث خرق في السفينة "فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ودخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رقعها"[2]، فبادر موسى عليه السلام بالاعتراض: كيف تقابل إحسانهم بالإساءة؟! كيف تتآمر على قوم أكرمونا، وتخرق سفينتهم لتغرقهم؟ وذلك كما في قوله تعالى: **{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}**[3]، فما كان من الخضر إلا أن ذكَّر موسى بشرط الصحبة، وهو عدم الاعتراض على ما يراه من ظواهر الأحداث؛ حتى يتعرف على الحقيقة: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}**[4]، حينئذ أدرك موسى مخالفته للشرط، فاعتذر إلى الخضر كما حكى عنه القرآن: **{قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}**[5].

وفي كتب الصحاح: **«فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالقَدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ● قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ● قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}»**[6][7]، "والمراد: لا تُعَسِّر عليَّ متابعتك، ويسِّرها عليَّ بالإغضاءِ وتركِ المناقشةِ"[8]. قال رسول الله ﷺ **«وكَانَتِ الأُولَى مِن مُوسَى نِسْيَانًا»**[9]، أي؛ اعتراضُ موسى على الخضرِ خَرْقَهُ للسفينة، فقبل الخضر اعتذار موسى عليه السلام.

وبينما هم في السفينة - تقول الروايات كما جاء في الصحاح -: **«وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ»**[10]؛ ليتابعا الرحلة.

وبينما هما يمشيان؛ إذ لقيا غلاماً يلعب مع أقرانه، ولم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن سلوك الغلام، فعمد الخضر إلى الغلام فقتله، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: **{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا**

---

(1) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4725).
(2) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [97/3].
(3) سورة الكهف، الآية: (71).
(4) سورة الكهف، الآية: (72).
(5) سورة الكهف، الآية: (73).
(6) سورة الكهف، الآية: (71 - 73).
(7) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4725).
(8) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مصدر سابق، [338/15].
(9) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4725).
(10) تقدم تخريجه آنفاً؛ حديث البخاري، رقم: (4725).

غُلَامًا فَقَتَلَهُ}[1]، قال البيضاوي في التفسير: "الفاء في قوله تعالى: **{فَقَتَلَهُ}** للدلالة على أنه كما لقيه قتله، من غير تَرَوٍّ واستكشافِ حالٍ"[2]، ففزع موسى من هذا القتل الشنيع المخالف بحسب الظاهر لشرع الله؛ إذ كتب الله على موسى في التوراة أنه لا يجوز أن تقتلَ نفساً بغير حق، كما ذكر القرآن الكريم **{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}**[3]، وكذلك جاء التصريح في قوله تعالى: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}**[4]، من هذا المنطلق أنكر موسى عليه السلام على الخضر قتلَه للغلام: **{قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْـرًا}**[5]، ونقل السيوطي في الدر المنثور: "عن سعيد بن جبير في قوله: **{نَفْسًا زَكِيَّةً}**، قال: لم تَبلغ الخطايا"[6].

ولكن موسى عليه السلام يكون بهذا الاعتراض قد خالف الشرط المتفق عليه، وهو كما ورد في الآية: **{قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}**[7]، فالتفتَ إليه الخضر عليه السلام ووجه له تذكيراً آخر بشرط الصحبة: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}**[8]، وقد ورد تفصيل ذلك في الحديث: «**فَبَيْنَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: "أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا"، "قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا؟"**»[9].

يلاحظ في مسألة خرق السفينة قول موسى للخضر عليه السلام: **{لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}**[10]، وفي مسألة قتل الغلام قول موسى للخضر عليه السلام: **{لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْـرًا}**[11]، قال ابن عادل في اللباب: "وهل النكر أبلغ من الإمر، أو بالعكس؟ فقيل: الإمرُ أبلغُ؛ لأنَّ قتل أنفسٍ بسبب الخرقِ أعظم من قتل نفسٍ واحدة، وأيضاً: فالإمر؛ هو الداهية العظيمة، فهو أبلغ من النُّكر، وقيل: النُّكر أبلغ؛ لأن معه القتل الحتم، بخلاف خرق السفينة، فإنه يمكن تداركه"[12] وقال ابن عطية: "وعندي أنهما لمعنَيين، وقوله: **{إِمْرًا}** أفظع وأهول، من حيث هو مُتوقع عظيم، و**{نُكْـرًا}** بيِّن في الفساد؛ لأن مكروهه قد وقع"[13].

ويلاحظ أن التنبيه هنا من الخضر لموسى عليه السلام كان أشد لهجة؛ إذ فيه توجيه خطاب مباشر، بقوله: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ}**[14]، على

---

(1) سورة الكهف، الآية: (74).
(2) البيضاوي، ناصر الدين البيضاوي عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار إحياء التراث 1418هـ، [513/3].
(3) سورة المائدة، الآية: (45).
(4) سورة المائدة، الآية: (32).
(5) سورة الكهف، الآية: (74).
(6) السيوطي، عبد الرَّحمن بن أبي بكر، الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، [426/5].
(7) سورة الكهف، الآية: (70).
(8) سورة الكهف، الآية: (75).
(9) تقدم تخريجه آنفاً: حديث البخاري، رقم: (4725).
(10) سورة الكهف، الآية: (71).
(11) سورة الكهف، الآية: (74).
(12) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، مصدر سابق، [538/12].
(13) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسيّ، تفسير ابن عطية = المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الطّبعة الأولى، (1977م)، [532/3].
(14) سورة الكهف، الآية: (75).

حين أن التنبيه في المرة الأولى كان بصيغة غير مباشرة، حيث اكتفى بالقول: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ}**[1]، وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في قول النبي ﷺ: **«وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى»**[2]، إشارة إلى قول الخضر في المرة الثانية: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}**[3]. قال العيني في الشرح: "أي: أوكَدُ من الأولى؛ حيث زادَ كلمة (لك)"[4]. وقال الرازي في مفاتيح الغيب: "وهذا عينُ ما ذكرَه في المسألة الأولى، إلا أنه زادَ ههنا لفظة (لك)؛ لأن هذه اللفظة تؤكِّد التوبيخ"[5].

عندئذ استحيا موسى عليه السلام، وأدرك أنه أثقل على الخضر عليه السلام، فطلب منه أن يمنحه آخر فرصة، فإن أخلَّ بالشرط فهو في حل من مرافقته وقطع صحبته، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: **{قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا}**[6]، قال رسول الله ﷺ عند ذلك: **«رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ، {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا}، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ»**[7]. قال القرطبي: "وكأنه استحيا من تكرار مخالفته، ومما صدر عن الخضر من تغليظ الإنكار"[8]، ويؤكِّد هذا المعنى ما ذكره صاحب الكشاف في قوله تعالى: **{قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً}** روايةً عن رسول الله ﷺ قال فيها: **«رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى، اسْتَحْيَا فَقَالَ ذَلِكَ»**[9]، وفي مفاتيح الغيب: "قال موسى: إن سَأَلْتُكَ عَن شَيء بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي، مع العلم بشدة حرصهِ على مصاحبته، وهذا كلام نادم شديد الندامة"[10].

فقبل الخضر اعتذار موسى عليه السلام وانطلقا لمتابعة الرحلة، وسارا مسافة طويلة؛ حتى صادفا قرية في طريقهما، فدخلاها ليستريحا من وعثاء السفر، ويتزودا بالطعام والشراب، فما كان من أهل القرية إلا أن قابلوهم باللؤم والشح؛ إذ رفضوا أن يقدموا للضيوف أيَّ خدمة، وهذا يدل على المستوى الأخلاقي الدنيء الذي وصل إليه أهلُ هذه القرية: **{فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا}**[11]، عن أبي بن كعب رضي الله عنه: **«فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا»**[12]. قال الألوسي: "وذكر بعضهم أن في قوله تعالى: **{فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا}**[13] من التشنيع ما ليس في أبَوا أن يطعموهما؛ لأن الكريم قد يرد السائل المستطعم، ولا يُعاب كما إذا

(1) سورة الكهف، الآية: (72).
(2) تقدم تخريجه آنفاً: حديث البخاري، رقم: (4725).
(3) سورة الكهف، الآية: (75).
(4) العيني، بدر الدين، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، [318/35].
(5) الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب = تفسير الرازي، مصدر سابق، [132/21].
(6) سورة الكهف، الآية: (76).
(7) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، رقم: (2380).
(8) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [23/11].
(9) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة، (2009م)، [708/2].
(10) الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب = تفسير الرازي، مصدر سابق، [132/21].
(11) سورة الكهف، الآية: (77).
(12) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، رقم: (2380).
(13) سورة الكهف، الآية: (77).

رد غريباً استضافه، بل لا يكاد يردُّ الضيف إلا لئيم، ومن أعظم هجاء العرب: (فلانٌ يطرد الضيف)، وعن قتادة: (شرُّ القُرى التي لا يُضاف فيها الضيف، ولا يُعرف لابن السبيل حقه)"[1].

وخرج موسى مع الخضر عليهما السلام من القرية جائعَيْن ساخطَيْن، وقبل أن يجاوزا حدود القرية وجدا جداراً يتداعى للسقوط، فقال الخضر لموسى: تعال لنصلح الجدار، فلم يلقَ هذا الرأيُ ارتياحاً لدى موسى؛ غير أن الرجلَ أعاد بناء الجدار وأقامَه، فاعترض موسى بالقول: أتجازي هؤلاء القوم اللئام بهذا الإحسان؟ لو شئتَ لاتخذتَ على ذلك أجراً نسدُّ به حاجتنا، **{فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}**[2]، وفي الحديث: **«فَقَامَ الْخَضِرُ فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا، {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}»**[3].

وبهذا الاعتراض من موسى عليه السلام انفضَّ العقدُ بينه وبين الخضر عليه السلام، قال الله حكاية عن الخضر: **{قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}**[4]، وجاء في الفتح: "فأخذ موسى بطرف ثوبه، فقال الخضر لموسى: أتلومني على خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، ونسيتَ نفسك حين ألقيت في البحر، وحين قتلت القبطي، وحين سقيت أغنام ابنتي شعيب احتساباً"[5]، ثم قال الخضر: **{سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}**[6]، قال ابن عجيبة: "فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أَبَوَيْ الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز"[7].

* * *

(1) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مصدر سابق، [356/11].
(2) سورة الكهف، الآية: (77).
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: 60]، رقم: (4725).
(4) سورة الكهف، الآية: (78).
(5) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، [420/8].
(6) سورة الكهف، الآية: (78).
(7) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [265/4].

المطلب الخامس:
تفسير حقيقة الأحداث

قام الخضر بإطلاع موسى عليه السلام على حقيقة الأحداث التي ظاهرها أمور منكرة، فابتدأ ببيان الهدف من خرق السفينة إذ قال: **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}**[1]، ولو أنه لم يحدِث فيها خرقاً لتعدى عليها جند الملك الغاصب، وحرموا منها المساكين أصحابها الشرعيين.

وقد أورد القرطبي في تفسيره أن السفينة "كانت لعشرة إخوة من المساكين، ورثوها من أبيهم؛ خمسة زَمْنى، وخمسة يعملون في البحر"[2]، فأراد الخضر عليه السلام أن يُحدِث فيها عيباً، مبيناً السبب بقوله: **{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}**[3]، والأكثر على أن معنى (وراء) -هنا-: أمام، يعضده قراءة ابن عباس وابن جبير: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً)"[4].

ثم بَيَّن الخضر لموسى عليه السلام سبب قتله للغلام بقوله: **{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ● فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}**[5]، وفي الحديث النبوي الشريف: **«إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا»**[6].

قال قتادة: "قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه فيما يحب"[7]، وأما قول الخضر: **{فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}**[8]، فقال قتادة: "أبدلهما منه ابنة، فتزوجها نبيٌّ، فولدَتْ له اثني عشر غلاماً كلهم أنبياء"[9].

ثم بَيَّن الخضر لموسى عليه السلام سبب إقامته للجدار المتداعي للانهيار بقوله: **{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}**[10]، وقد حُفِظ الكنزُ بإقامة الخضر عليه السلام للجدار؛ إذ إن القرية التي أبى أهلها خدمة الضيفان هي قرية فاسدة، لا يؤتمن أهلُها على أموال اليتامى؛ حتى إذا بلغ اليتيمان النكاح، واشتد أزرهما صار بإمكانهما استخراج الكنز والمحافظة عليه، وإقامة حياتهما به.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان لوحاً من ذهب، فيه:
عجباً لمن أيقن بالموت، كيف يفرح؟!
عجباً لمن أيقن بالقدر، كيف يغضب؟!
عجباً لمن أيقن بالرزق، كيف يتعب؟!
عجباً لمن أيقنَ بالحساب، كيف يغفل؟!
عجباً لمن أيقنَ بزوال الدنيا وتقلّبها بأهلها، كيف يطمئن؟!"[11].

---

(1) سورة الكهف، الآية: (79).
(2) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [34/11].
(3) سورة الكهف، الآية: (79).
(4) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [34/11].
(5) سورة الكهف، الآية: (80 - 81).
(6) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: (2661).
(7) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [98/3].
(8) سورة الكهف، الآية: (81).
(9) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [416/10].
(10) سورة الكهف، الآية: (82).
(11) الخازن: علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [227/4].

وبعد أن بَـيَّن الخضر تأويل ما جرى معه ومع موسى كليم الله ، أرجع ذلك إلى الله ﷻ، وذلك كما في قوله: **{وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}**[1]، أي: باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه إياي، وقيل معناه: إنما فعلت هذه الأفعال لغرض أن تظهر رحمة الله؛ لأنها بأسرها ترجع إلى معنى واحد، وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى[2]، ثم أردف قائلاً: **{ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}**[3]،أي: "هذا تفسير ما ضقْتَ به ذرعًا"[4].

وفي قوله: **{ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً}** حذف هنا التاء تخفيفاً[5]، جاء في الجلالين: يقال: "اسطاع واستطاع بمعنى أطاق، ففي هذا وما قبله جمعٌ بين اللغتين"[6]، والملاحظ أنه قال قبل التأويل: **{سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}**[7]، وقال بعد التأويل: **{ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}**[8]، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، فقابل كلاً بما يناسبه لفظًا ومعنى، والله أعلم[9].

ويمكن للمطَّلع أن يلاحظ في قول الخضر في السفينة: **{فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا}**[10]، وقوله في قصة الغلام: **{فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا}**[11]، وقوله في قصة الجدار: **{فَأَرَادَ رَبُّكَ}**[12]، رعاية الخضر للأدب في الحضرة الإلهية، ففي الأولى أضاف الخضر العيب لنفسه تأدباً مع الله تعالى، كما تأدب إبراهيم الخليل عليه السلام مع ربه في قوله: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}**[13]، وفي الثانية أضاف القتل إلى نفسه بصيغة الجمع بما يتناسب ومسألة القتل، وأضاف التبديل إلى الله تعالى، وفي الثالثة قال: **{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}**[14]، أضاف محض الفضل إلى الله تعالى في إقامة الجدار، مع العلم أن كل ما فعله الخضر كان بأمر الله ووحيه، وقد أشار إلى ذلك مع نهاية التأويل بقوله: **{وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}**[15].

* * *

(1) سورة الكهف، الآية: (82).
(2) يُنظَر: الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [228/4].
(3) سورة الكهف، الآية: (82).
(4) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [100/3].
(5) البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مصدر سابق، [518/3].
(6) الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، تفسير الجلالين، القاهرة، دار الحديث، الطبعة الأولى، (ص: 392).
(7) سورة الكهف، الآية: (78).
(8) سورة الكهف، الآية: (82).
(9) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [100/3].
(10) سورة الكهف، الآية: (79).
(11) سورة الكهف، الآية: (81).
(12) سورة الكهف، الآية: (82).
(13) سورة الشعراء، الآية: (80).
(14) سورة الكهف، الآية: (82).
(15) سورة الكهف، الآية: (82).

المطلب السادس:
حقيقة العبد الصالح (الخضر)

تناولَت العديدُ من البحوث والدراسات حقيقة شخصية الخضر عليه السلام وقد توقف بحث علمي للباحث العراقي م. رعد كاظم عزيز، نشرته مجلة أوراق ثقافية اللبنانية بعنوان: (الخضر بين النّبوة والولاية والحياة والموت)، وقد ذكر الباحث اختلاف المؤرخين والمفسرين في ذلك على ثلاثة أقوال مشهورة:

- **القول الأول:** قيل إنّه ملك من الملائكة، ويتصور في صور الإنسان، وقد قال الإمام النّووي: هذا قول غريب باطل[1]، وقال غيره: هذا قول غريب جدًا[2].
- **القول الثاني:** قيل إنه وليٌّ، ذهب إلى مثل هذا القول جماعة من العلماء، ومنهم: الحكيم التّرمذي، وابن عربي وغيرهم.
- **القول الثالث:** قال جمهور العلماء المحققين: إن الخضر نبي، ومن القائلين بذلك كثير من العلماء والمفسرين ومنهم: الثّعلبي، والطبري، وابن حجر العسقلاني، والألوسي، قال القرطبي: الخضر نبي عند الجمهور، وقال الفراهيدي: الخَضِرُ: نبيٌّ مُعَمَّر محجوب عن الأبصار، وهو نبيٌّ من بني إسرائيل، وهو صاحب موسى عليه السلام الّذي التقَى معه في مجمع البحرين[3].

وأميل في بحثي هذا إلى ترجيح القول الثالث، وهو القول بنبوته لما يأتي:

1. وصفه الله بالعبودية له سبحانه بقوله: **{فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا}**[4]، وهذا المقام وصف الله به الأنبياء في القرآن، فقال عن نوح عليه السلام: **{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}**[5]، وقال عن إبراهيم عليه السلام : **{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}**[6]، وقد شملت الآية كلاً من إسحاق ويعقوب عليهما السلام،وقال عن أيوب عليه السلام: **{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**[7]، وقال عن داوود عليه السلام: **{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ}**[8]، وقال عن سليمان عليه السلام: **{وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**[9]، وقال عن زكريا عليه السلام: **{ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا}**[10]، وقال عن عيسى عليه السلام: **{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ}**[11]، وقال عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا}**[12].
2. آتاه الله رحمة من عنده، فقال: **{آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا}**[13]، والرحمة تأتي بمعنى النبوة، كما جاء على لسان صالح عليه السلام: **{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ**

---

(1) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مصدر سابق، [136/15].
(2) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (1408هـ - 1988م)، [383/1].
(3) منقول بتصرف: م رعد كاظم عزيز، بحث بعنوان: "الخضر بين النّبوة والولاية والحياة والموت"، مجلة أوراق ثقافية، العدد (16) السنة الثالثة، خريف (2021م)، https:// www.awraqthaqafya.com/1580 ، تاريخ الزيارة: (2022/12/26م).
(4) سورة الكهف، الآية: (65).
(5) سورة الإسراء، الآية: (3).
(6) سورة ص، الآية: (45).
(7) سورة ص، الآية: (44).
(8) سورة ص، الآية: (17).
(9) سورة ص، الآية: (30).
(10) سورة مريم، الآية: (2).
(11) سورة النساء، الآية: (172).
(12) سورة الإسراء، الآية: (1).
(13) سورة الكهف، الآية: (65).

رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي}[1]، فالرحمة هنا هي النبوة، وكذلك في قوله تعالى عن موسى عليه السلام: **{وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً}**[2]، وقوله أيضاً: **{وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}**[3]، وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: **{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا}**[4]، وجاء في وصف القرآن: **{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}**[5]، فهذه الآيات تدلُّ على أنَّ الرحمةَ قد وردَتْ بمعنى النبوة والرسالة.

3. علَّمَه اللهُ علماً من لَدُنه، فقال: **{وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}**[6]، وقد ذكر القرآن الكريم أن الله قد تولى بنفسه مهمة تعليم الأنبياء عليهم السلام، فقال عن آدم عليه السلام: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}**[7]، ووصف يعقوب عليه السلام بقوله: **{وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ}**[8]، وقال على لسان يوسف عليه السلام: **{ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي}**[9]، وقال عن داوود عليه السلام: **{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ}**[10]، وقال الله لعيسى عليه السلام: **{وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}**[11]، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: **{وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}**[12].

4. إن العبد الصالح بعد أن فسَّر لموسى حقيقة الأحداث الثلاثة قال له: **{وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}**[13]، وهذا أقوى دليل على نبوته؛ إذ إن الأنبياء والمرسلين لا يتصرفون في شيء إلا بأمر الله، إن يتبعون إلا ما يُوحَى إليهم من الله، كما جاء في القرآن الكريم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: **{إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ}**[14].

5. إن فيما أقدم عليه العبد الصالح من أفعال -وخاصة قتل الغلام- خالفَ نصوصاً إلهية أنزلها الله على موسى عليه السلام، فلو لم يكن نبياً يتصرف عن وحي من الله لكان عقابه القتل وفق ما أنزل الله، وليس عجباً أن يوحي الله إليه بأن يقتل الغلام لحكمة يعلمها الله، فقد ورد أن الله أوحى إلى إبراهيم بأن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام: **{قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}**[15].

6. إن القول بنبوة الخضر عليه السلام يسد الباب أمام مَن يتخذ قصة الخضر مبرراً لانتهاك الحرمات تحت أعذار أمور باطنية تخفى على الناس.

وإن الدارس لسيرة نبي الله موسى عليه السلام ليجدها من أطول قصص الأنبياء في القرآن الكريم، ولهذا أخذت في البحث صفحات مطولة.

---

(1) سورة هود، الآية: (63).
(2) سورة هود، الآية: (17).
(3) سورة مريم، الآية: (53).
(4) سورة مريم، الآية: (21).
(5) سورة الإسراء، الآية: (82).
(6) سورة الكهف، الآية: (65).
(7) سورة البقرة، الآية: (31).
(8) سورة يوسف، الآية: (68).
(9) سورة يوسف، الآية: (37).
(10) سورة الأنبياء، الآية: (80).
(11) سورة المائدة، الآية: (110).
(12) سورة النساء، الآية: (113).
(13) سورة الكهف، الآية: (82).
(14) سورة الأنعام، الآية: (50).
(15) سورة الصافات، الآية: (102).

وفي الفصل الثاني
يسلط البحث الضوء
على أهم القيم الإنسانيَّة
التي تضمنتها سيرة
نبي الله موسى عليه السلام.

الفصـل الثانـي:
القيـم الإنسـانيَّـة في حيـاة مـوسى عليه السلام

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: ميثاق القيم الإنسانيَّة.
- المبحث الثاني: القيم الإنسانيَّة في صلة الإنسان بربه سبحانه.
- المبحث الثالث: القيم الإنسانيَّة في العلاقة مع الآخر.

المبحـث الأول:
ميثاق القيم الإنسانيَّة في قصة موسى عليه السلام

إن ميثاق القيم مبثوث في آيات قرآنية كثيرة، حيث يذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الله سبحانه قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل، ومن ذلك قوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[1]، **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}**[2]، وتشير الآيات الكريمات إلى ارتباط بين الميثاق ورفع الجبل فوقهم مثل الغمام؛ تأكيداً على ضرورة أخذ الميثاق بقوة العزيمة للعمل به، كما يدل قوله تعالى: **{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[3].

وإنَّ المتدبِّرَ في آيات القرآن الكريم لَيَرى أنَّ ميثاق بني إسرائيل يَحوي القيم الآتية:

1. عبادة اللهِ وحدَه لا شريكَ له: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}**[4].
2. تنزيه الله عما لا يليق به سبحانه : **{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}**[5].
3. الالتزام بالقول الحسن والكلام الطيب: **{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}**[6].
4. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}**[7]، **{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ}**[8].
5. الإيمان بالرسل، كما جاء في قول الله لهم: **{وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ}**[9]، وقد أرسل الله إليهم عدداً من الرسل والأنبياء؛ ليؤمنوا بهم، قال تعالى: **{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ}**[10]، وقد أكَّد عليهم الميثاق أن يؤمنوا بالنبي الأمي محمد ﷺ، كما جاء في قول الله تعالى لموسى عليه السلام: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ}**[11].

---

(1) سورة البقرة، الآية: (63).
(2) سورة البقرة، الآية: (93).
(3) سورة الأعراف، الآية: (171).
(4) سورة البقرة، الآية: (83).
(5) سورة الأعراف، الآية: (169).
(6) سورة البقرة، الآية: (83).
(7) سورة البقرة، الآية: (83).
(8) سورة المائدة، الآية: (12).
(9) سورة المائدة، الآية: (12).
(10) سورة المائدة، الآية: (70).
(11) سورة الأعراف، الآية: (157).

6. الحفاظ على حرمة الدماء والأوطان، كما جاء في خطاب الله لهم: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}**[1]، وقد نصَّتِ التوراةُ التي أُنزِلَت على موسى عليه السلام أنه لا يجوزُ أن تُقتَل نفسٌ بغير حق، كما في قوله تعالى: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}**[2].

7. البعد عن الربا والحث على القرض الحسن لوجه الله سبحانه، كما قال الله لهم: **{وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}**[3]، وقد ذمَّهم الله بقوله: **{وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}**[4].

8. التحلي بالتواضع وعدم التكبر على العباد؛ كما قال الله عنهم: **{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا}**[5].

9. عدم كتمان شيء مما أنزلَه الله وعلموا به: **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}**[6].

10. احترام يوم السبت، وتحريم الصيد فيه حفاظاً على الثروة المائية والحيوانية: **{وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}**[7]، **{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}**[8].

11. الإحسان إلى الوالدين والقرابة والأيتام والمساكين، قال تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}**[9].

12. العدل والقصاص، قال القرآن الكريم عن التوراة: **{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}**[10].

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم ذمَّ الذين يَنقُضون ميثاقَ الله لما يتضمنه من القيم التي لا تستقيم حياةُ الإنسان إلا بها، قال تعالى: **{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}**[11].

* * *

(1) سورة البقرة، الآية: (84).
(2) سورة المائدة، الآية: (32).
(3) سورة المائدة، الآية: (12).
(4) سورة النساء، الآية: (161).
(5) سورة النساء، الآية: (154).
(6) سورة آل عمران، الآية: (187).
(7) سورة النساء، الآية: (154).
(8) سورة البقرة، الآية: (65).
(9) سورة البقرة، الآية: (83).
(10) سورة المائدة، الآية: (45).
(11) سورة المائدة، الآية: (13).

المبحث الثاني:
القيم الإنسانيَّة في صلة الإنسان بربه سبحانه

برزت القيم الإنسانيَّة في صلة الإنسان بربه في مواضع متعددة من قصة موسى عليه السلام، ومن ذلك:

أولاً: تكريم الإنسان بالعبادة

إن أول خطاب تلقاه موسى عليه السلام بعد أن استمع لما يوحى كان تقريراً لوحدانية الله: **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}**[1]، ثم أمراً بعبادة الله الواحد: **{فَاعْبُدْنِي}**[2]، ثم بياناً لكيفية العبادة المتمثلة في الصلاة: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}**[3]، ثم تأكيداً على رجوع الناس إلى الله يوم الدين للجزاء والحساب: **{إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}**[4]، وهذا يعني أن الإنسان خُلِق ليعبد الله كما جاء في القرآن: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**[5]، وإن أشكال العبادة المطلوبة كما أمر الله تتمثَّلُ في الصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر وتلاوة القرآن وصِدق التوجّه إلى الله في الأعمال الصالحة، كما تأكَّد ذلك في ميثاق القيم: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}**[6]، **{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}**[7].

ثانياً: الاستدامة في صلة المخلوق بالخالق

طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون عليه السلام وزيراً يشدُّ به أزره، وينصره أمام المكذبين، ولما كلَّفَه اللهُ بأن يذهبَ مع أخيه إلى فرعون؛ **{قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}**[8]، فبيَّن له الحق –سبحانه– أنه من كان اللهُ نصيراً له، فلا يخاف من أحد أبداً، **{قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}**[9].

وقد منَّ الله على موسى عليه السلام ونصره على فرعون إذ رباه في قصره دون أن يمسَّه بسوء، وأرجعه إلى أمه ترضعه، وتأخذ أجرها، وصنعه على عينه، فلماذا الخوف، والله نعم المولى ونعم النصير؟

وقد استشعر موسى عليه السلام هذه المعية المستدامة في صلته بالله سبحانه، وذلك حين تبعهم فرعون وجنوده، وغشيهم من اليم ما غشيَهم، **{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ● قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}**[10].

وقد شرع الله لاستدامة المعية الإلهية لبني إسرائيل عدة أمور، ذكرها بقوله في سورة المائدة: **{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ**

(1) سورة طه، الآية: (14).
(2) سورة طه، الآية: (14).
(3) سورة طه، الآية: (14).
(4) سورة طه، الآية: (15).
(5) سورة الذاريات، الآية: (56).
(6) سورة البقرة، الآية: (83).
(7) سورة المائدة، الآية: (12).
(8) سورة طه، الآية: (45).
(9) سورة طه، الآية: (46).
(10) سورة الشعراء، الآية: (61 - 62).

اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[1].

ويمكن تحقيقُ استدامة المعية الإلهية بالقيم الإيمانية، كما يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: **{وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}**[2]، وبتقوى الله التي تستلزم امتثال أوامره واجتناب نواهيه، كما يدل على ذلك قوله تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}**[3]، وبدوام الاستعانة بالله بالصبر والصلاة، كما يدل على ذلك قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}**[4]، وبالإحسان إلى الخلق، كما يدل على ذلك قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}**[5].

ثالثاً: قيمة تذوُّق حلاوة الإيمان

إن المتأمل في إيراد القرآن الكريم لموضوع إيمان السَّحَرة برب موسى وهارون يدرك بأن الإيمان إذا دخل القلب واستشرى في اليقين؛ لا يملك أحدٌ زعزعتَه ولا نزعَه، وهذا ما حصل مع السحرة لما تذوقوا حلاوة الإيمان، كما حكى القرآن عنهم: **{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ● قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ● قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ● إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**[6]، فبعد أن تذوقوا حلاوة الإيمان، ارتقت صلتهم بالله سبحانه وأيقنوا بأن الآخرة خير وأبقى، **{قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ● وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}**[7].

وفي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**[8].

وينقل الإمام النووي -رحمه الله- عن العلماء قولهم في مَعْنَى حَلَاوَة الْإِيمَان بأنه: "اِسْتِلْذَاذ الطَّاعَات وَتَحَمُّل الْمَشَقَّات فِي رِضَا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُوله ﷺ، وَإِيثَار ذَلِكَ عَلَى عَرَض الدُّنْيَا، وَمَحَبَّة الْعَبْد رَبّه -عَزَّ وجَلّ- بِفِعْلِ طَاعَته، وَتَرْك مُخَالَفَته، وَكَذَلِكَ مَحَبَّة رَسُول اللَّه ﷺ"[9].

وفي حديث آخر يُبَيِّنُ النبي ﷺ أموراً يتذوق بها الإنسان حلاوة الإيمان فيقول: **«ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»**[10]، وينقل النووي عن الْقَاضِي عِيَاض -رحمه الله- في مَعْنَى هذا الْحَدِيث قوله: "صَحَّ إِيمَانه، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ نَفْسه، وَخَامَرَ بَاطِنه؛ لِأَنَّ رِضَاهُ بِالْمَذْكُورَاتِ دَلِيل

(1) سورة المائدة، الآية: (12).
(2) سورة الأنفال، الآية: (19).
(3) سورة البقرة، الآية: (194).
(4) سورة البقرة، الآية: (153).
(5) سورة النحل، الآية: (128).
(6) سورة طه، الآية: (70 - 73).
(7) سورة الأعراف، الآية: (125 - 126).
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، رقم: (16)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم: (43).
(9) أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مصدر سابق، [122/1].
(10) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، رقم: (34).

لِثُبُوتِ مَعْرِفَته، وَنَفَاذ بَصِيرَته، وَمُخَالَطَة بَشَاشَته قَلْبه؛ لِأَنَّ مَنْ رَضِيَ أَمْرًا سَهُلَ عَلَيْهِ، فَكَذَا الْمُؤْمِن إِذَا دَخَلَ قَلْبَهُ الْإِيمَانُ سَهُلَ عَلَيْهِ طَاعَاتُ اللَّه تَعَالَى، وَلَذَّتْ لَهُ. وَاَللَّه أَعْلَم"[1].

رابعاً: الإيمان بالحكمة والعدل الإلهي

برزتْ قيمةُ العدل الإلهي في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، ومفادها أن الإنسان قد يرى في الحياة أحداثاً لا تتفقُ في ظاهرها مع العدل والرحمة، ولا يدري لها حكمة، فيَنسب ذلك إلى الظلم أو العبثية، وسبب ذلك هو أن هذا الإنسان لم يتمكَّن من الإحاطة بمجمل الحدث من كل جوانبه؛ إذ خفيت عليه أمور دقيقة، فجاء حكمه غير صحيح!

ومثال ذلك: إذا دخل إنسان إلى قاعة مسرح أو صالة عرض لأفلام سينمائية، فرأى من المسرحية أو الفيلم الفصل الأول أو الثاني، وسرعان ما حكم على المسرحية وكاتبها بالعبث، ونسب إليه الخطأ، فيقال له: اصبر حتى النهاية؛ إذ لا يحق لك أن تحكم على عمل مبتور؛ حتى إذا أكمل المسرحية بكل فصولها، صفق بشدة للكاتب والمخرج والممثلين؛ إذ حُلَّتْ في فكره العُقد التي رآها في الفصل الأول.

وقد ضرب الله لنا مثلاً في قصة موسى مع العبد الصالح عليهما السلام ليُبَيِّنَ أن الإنسان مهما عاش؛ فلن يرى أكثر من فصل واحد في الحياة؛ إذ إن عمر الإنسان قصير مهما طال؛ والملاحِظ يرى أن موسى قد حضر الفصل الأول فقط من أحداث رحلته مع العبد الصالح؛ إذ رأى الخضر يقتلع ألواحاً من السفينة، ويحدث فيها خرقاً، ولم يَدْرِ عن الملك الغاصب خبراً، فلو أنه صبر ردحاً من الزمن، لرأى جند الملك الغاصب يأخذون كل سفينة صالحة غصباً، فعندما يرون سفينة المساكين المخروقة يعرضون عنها!

وكذلك الأمر في قتل الغلام؛ حيث رأى موسى فصلاً واحداً، وهو إقدام الخضر على قتل غلام، وغابَت عن موسى حكمةٌ يعلمها الله الذي أوحى إلى العبد الصالح بقتل الغلام!

وتتَّضحُ المسألة أكثر في إقامة الجدار الذي يخفي تحتَه كنزاً لغلامين يتيمين؛ حيث أخذَ موسى عليه السلام جانباً واحداً، هو إمكانية أخذ أجرة من أهل القرية الأشحاء على بناء الجدار، لكنه لم يطلع على ما أطلع اللهُ عليه الخضر عليه السلام من وجود الكنز تحت الجدار، الذي ينتظر بلوغ اليتيمين أشُدهما لاستخراج كنزهما.

ويذكر العلامة الفقيه الوزير الكاتب أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي[2] عن بعض الكتب الإسرائيلية: أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل كان يجلس على قمة جبل، فرأى فارساً، وبيده صُرة مال، وأتى على بئرٍ، فوضع الصرة على حافة البئر، ونزل فشرب، ثم نسي المال وانصرف، فجاء راعي غنم يسقي غنمه، فوجد المال فالتقطه، وسقى الغنم وانصرف، ثم جاء البئرَ بعد انصراف الراعي حطابٌ، فشرب وجلس، وتذكر الفارس مالَه فرجع، فوجد ذلك الرجلَ يجلس على حافة البئر، قال: أين المال؟ قال: ما أعرف شيئاً، قال: المال معك، ولم يشكّ الفارس أنه التقط المال، فلما أنكر الرجلُ، أخرج

(1) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مصدر سابق، [111/1].

(2) ابن عاصِم، محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي، أبو يحيى، قاض وزير، من بلغاء الكتّاب، كان ينعت بابن الخطيب الثاني، (ت 857 ه)، في كتاب: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، دار المازري، (1410ه – 1989م). وينظر: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، (2002م)، [48/7].

الفارسُ رمحاً وقتله، فقال ذلك النبيّ: أيُقْتَل البريءُ ويَفرُّ الآخِذُ؟!

إن ذلك النبي لم يشاهد من القصة سوى فصلها الأخير، فتعجَّب وتحيَّر! فأوحى الله إليه، وأخبره بأحداث القصة من بدايتها؛ ليرى أن اللهَ أحكم الحاكمين، فتبيَّنَ له ما يأتي:

1. إن المال كان مِلْكاً لوالد الراعي، أعطاهُ والدَ الفارس، ولا يدري الراعي، ولا الفارس! وجاء اليوم، فأخذ الراعي مالَ أبيه ومضى.
2. وهذا الحطَّابُ كان قد قتلَ والدَ الفارس، فسلط الله ولي الدم عليه، فأخذ بثأر أبيه!

فبَكى ذلك النبي وقال: لا أعود!

وفي ذلك درس للإنسان الذي يرى ظالماً يموت دون أن يحاكَم، ومظلوماً يموت دون أن يأخذ حقَّه من الظالم، أو يرى مشاهد لا يدري لها تفسيراً، ولا يعلم لها حكمة، فيقول: ما فائدة الزلازل والبراكين؟ ما ذنب الأعمى؟ ما ذنب الفقير؟ ما ذنب الطفل الصغير يموت دون أن يرى شيئاً من الحياة؟ وهكذا...

إن الإجابة تكمن في التسليم لقدر الله تعالى، القائل: **{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}**[1]، فلا يوجد عبث في هذا الكون؛ إذ كله سائر ضمن توازن رتيب، قدرهُ العزيز الحكيم، ولكن كم من حكمة خَفِيَت عن الأولين، وبدَت واضحة للمتأخرين!

قديماً كان يقال عن الأفعى: إنها شر كلها، لا فائدة فيها؛ سوى قتل الناس وإيذاء البشر، فإذا بالإنسان مع تقدم العلوم يكتشف أن في سم الأفعى أدوية للعديد من الأمراض، فاستغلوها أيما استغلال حتى صارت صورتها شعاراً يوضَع على أبواب الصيدليات والمصانع الدوائية. وهكذا فإن عدم وجدان الحكمة لا يستلزم عدم وجودها؟ فحكمة الله موجودة في كل شيء، وإن ما يخفى علينا من حكم ستكتشفه الأجيال اللاحقة.

وإذا رأى أحدٌ أن ظالماً مات دون أن يُقتَص منه، فإن يوم الدين كفيل بإرجاع الحقوق إلى أصحابها، وما على الإنسان إلا أن يسلّم للحكيم الخبير، كما جاء في قصة موسى مع العبد الصالح عليهما السلام؛ إذ قال له: **{وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}**[2]، فلو أن إنساناً مضى إلى طبيب أسنان خبير مختص، فأخرج الطبيب محفاراً ليحفر الخَرِبَ من الأسنان، فهل يحق لهذا الإنسان أن يعترض على الطبيب، أو يقول له: أحَفَرتها لتَخربها؟ لقد جئت شيئاً إمراً؟! طبعاً لا يحق له الاعتراض؛ لأنه سيكتشف بعد صبرهِ زمناً أن الطبيبَ الخبير مصيب في عملهِ، ولذلك فإنه في النهاية سيقدم له الشكر على جهوده، ويدفع له أجراً، ويعود إليه كرة أخرى.

إذا كان هذا حال الإنسان أمام خبير من البشر، فينبغي أن يصبر أمام الحكيم الخبير رب العالمين، ويصبر على قضائه، ويشكره على نعمائه، ويحمده في السراء والضراء على ما أعطى وأنعم، وعلى ما أخذ ومنع، فإن أصيب الإنسان بمرض، فلا يحقُّ له أن يَتذمَّر أو يعترض على الله، وإن فقد عزيزاً عليه فليشكر الله، وإن أصابَه مكروهٌ فليلجأ إلى الله، وهذا الأمر ينسحب على كل ما يأتي من الله، ولا يقدر الإنسان على رده والتصرف بشأنه.

***

(1) سورة المؤمنون، الآية: (115).
(2) سورة الكهف، الآية: (68).

المبحث الثالث:
القيم الإنسانيَّة في العلاقة مع الآخر

أولاً: حفظ النفس الإنسانيَّة

برزَتْ هذه القيمةُ في مشاهد عديدة من قصة موسى عليه السلام، ففي بنود الميثاق الذي أخذَه اللهُ على بني إسرائيل نصٌّ على احترام النفس الإنسانيَّة وحفظها، كما جاء في قوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}**[1].

وفي نص التوراة التي أنزلت على موسى أنه لا يجوز أن تُقتَل نفسٌ بغير حق، كما يدل على ذلك قوله تعالى: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}**[2].

وفي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام استنكر موسى قتل الخضر للغلام بغير حق، **{قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}**[3].

وقصة البقرة جاءت في إطار التحقيق والبحث عن الجاني الذي قتل رجلاً ليرث أمواله، فجاء الأمر بذبح بقرة، وضرب المقتول بجزء منها، ليحيا ويخبر بالجاني القاتل! **{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ● فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**[4].

ثانياً: قيمة الحوار

قام موسى عليه السلام بالحوار اللين مع فرعون، وقدم له في هذا الحوار الأدلة المقنعة، والحجة الساطعة على وجود الله، وضرورة الإيمان بوحدانيته، وقد حاول فرعون مراراً أن يغلق باب الحوار، ولجأ إلى التهديد والوعيد بالقوة والنار والبطش والإرهاب، وهدد موسى: **{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}**[5]، فقدم موسى عليه السلام المزيد من الحجج، ليبقي باب الحوار مفتوحاً أمام العقول الحُرَّة، والقلوب المستنيرة، **{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ● قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**[6].

ويلاحظ أنه عندما يعجز المبطلون عن إقامة الحجة يغلقون باب الحوار معهم، ويلجؤون إلى التهديد باستخدام القوة؛ وهذا ما قام به فرعون؛ إذ اتهم موسى بالجنون، فقال: **{إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}**[7]، كما اتهمه بأنه مسحور؛ إذ قال: **{إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}**[8]، واتهمه بأنه كاذب؛ إذ قال لهامان: **{فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}**[9]، ولم يكتفِ بذلك، بل عيَّره بأنه ألثغ، لا يُفهم كلامه إذ قال: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}**[10]، وعلى الرغم من كل ذلك، فقد حقق موسى عليه السلام انتصاراً في الحوار؛ إذ أقام

(1) سورة البقرة، الآية: (84).
(2) سورة المائدة، الآية: (32).
(3) سورة الكهف، الآية: (74).
(4) سورة البقرة، الآية: (72 - 73).
(5) سورة الشعراء، الآية: (29).
(6) سورة الشعراء، الآية: (30 - 31).
(7) سورة الشعراء، الآية: (27).
(8) سورة الإسراء، الآية: (101).
(9) سورة القصص، الآية: (38).
(10) سورة الزخرف، الآية: (52).

الحجة العقلية على وجود الله وإبطال عبودية الإنسان لغير الله سبحانه.

وإن المتدبر لآيات القرآن الكريم والقارئ لسيرة الأنبياء سيجد أنهم قد تعرضوا لمثل هذا الإكراه، ومن أمثلة ذلك:

1. **نوح** عليه السلام: هدده قومه بقولهم: **{لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}**[1].

2. **إبراهيم** عليه السلام: هدده أبوه بالرجم بقوله: **{قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}**[2].

3. **لوط** عليه السلام: حُكم عليه وعلى أتباعه بالطرد والإبعاد من الوطن بتهمة الطهارة والعفاف، كما جاء على لسان قومه: **{أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}**[3].

4. **يوسف** عليه السلام: هددَتْه امرأةُ العزيز بالسجنِ والصغار إن بقي متمسِّكاً بعفَّتِه، وقالت أمام جمع من النسوة: **{وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ}**[4].

5. **شعيب** عليه السلام: هدده قومُه بالطردِ من البلاد والرجم بالحجارة إن لم يعدْ إلى ملَّتهم الباطلة، قال تعالى: **{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}**[5]، وقالوا له: **{وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ}**[6].

6. **وقد أرسل الله رسولين إلى قرية، وعززهما بثالث**، فكان جواب أصحاب القرية: **{إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}**[7].

7. **وتحدث القرآن عن إكراه الكفار للمرسلين**، فقال: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}**[8].

8. **عيسى** عليه السلام: حاولوا قتله وصلبه للتخلص منه، لكن الله نجاه، **{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ● بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}**[9].

9. **محمد رسول الله** ﷺ: حفلَتْ سيرتُه المباركة بالأحداث العظام؛ إذ ما أوذي أحدٌ مثلما أوذي ﷺ، وقد جاء في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ»**[10]، وإن ما يستفيدُه المسلمُ من ذلك هو أن يقدم الإسلام للناس بحقيقته وجوهره، وألا يستخدم الإكراه مع أحد؛ لأن العطشان لا يحتاج إلى إكراه ليشرب الماء الزلال، كما أن الجائع لا يحتاج إلى إكراه ليأكل الطعام الطيب الشهي.

---

(1) سورة الشعراء، الآية: (116).
(2) سورة مريم، الآية: (46).
(3) سورة النمل، الآية: (56).
(4) سورة يوسف، الآية: (32).
(5) سورة الأعراف، الآية: (88).
(6) سورة هود، الآية: (91).
(7) سورة يس، الآية: (18).
(8) سورة إبراهيم، الآية: (13).
(9) سورة النساء، الآية: (157 - 158).
(10) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: بابٌ، رقم: (2472) وقال: "هذا حديث حسنٌ صحيح".

ثالثاً: إعانة الضعفاء

برزَتْ قيمةُ إعانة الضعفاء في مواضع عديدة من قصة موسى عليه السلام، ومن ذلك:

1. أن موسى عليه السلام لما آتاه الله القوة جعلها في نصرة المستضعفين؛ إذ صار يرفع الظلم عن المظلومين، ويكفُّ عادية المتسلطين من جند فرعون وأعوانه! فرأى المظلومون في متبنَّى فرعون نصيراً لهم، فصاروا يقصدونه لاسترداد حقوقهم من جند فرعون، ومثال ذلك ما ذكره القرآن الكريم عن قصة الذي استغاثه: **{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}**[1]!

2. وقد ذكر القرآن الكريم إعانة موسى عليه السلام لامرأتين ضعيفتين عند بئر يتزاحم فيه الناس على السقاية، فسألهما موسى عليه السلام: ما شأنكما معتزلتَين بغنمكما دون القوم لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: لا نستطيع أن نسقي حتى يسقي الناس، فنحن - كما ترى - امرأتان ضعيفتان، ليس لنا قوة نُزاحِم الرجال، ولذلك فإننا ننتظر فضول حياضهم[2]، **{فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}**[3].

3. وفي الميثاق الذي أخذه اللهُ على بني إسرائيل نصٌّ على الإحسان إلى اليتامى والمساكين، قال تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}**[4].

4. وفي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام بنى الجدار لغلامين يتيمين في المدينة؛ ليحفظ لهما كنزهما خشية من سرقته أو ضياعه، وهذا ما قاله الخضر لموسى: **{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}**[5].

رابعاً: العلم، والصبر في تحصيله

أعطى موسى عليه السلام درساً في طلب العلم؛ إذ عقد العزم على الهجرة في طلب العلم مهما بعدت المسافة، فقال لفتاه: **{لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا}**[6]، والحقب جمع حقبة، وهي مدة من الزمن، وقد "روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: "الحُقُب ثمانون سنة"[7]، قال الإمام القرطبي: "في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصَّاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بعدت أقطارهم"[8].

---

(1) سورة القصص، الآية: (15).
(2) يُنظَر: محمد بن جرير الطَبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [211/18].
(3) سورة القصص، الآية: (24).
(4) سورة البقرة، الآية: (83).
(5) سورة الكهف، الآية: (82).
(6) سورة الكهف، الآية: (60).
(7) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [174/5].
(8) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [433/7].

ولا عجب ولا غرابة أن يعقد موسى عليه السلام العزم على الهجرة إلى المعلم هذه المدة من الزمن، ليعلمنا إدراك قيمة العلم ومنزلة المعلم؛ ذلك أن العلم يؤتى ويُهاجر إليه، وفي الحديث الشريف: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»[1]، وقد جعل الإسلامُ طلب العلم فرضاً لازماً، كما جاء الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[2].

وقد كانت الهجرة إلى المعلم الأول رسول الله ﷺ فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ إذا توفرَتِ القدرةُ ورفعت الموانع، وكان علماء الحديث الشريف يرحلون مسافات شاسعة، ويسيرون الشهور والسنين؛ ليسمعوا حديثاً عن رسول الله ﷺ. ويحتاج طلب العلم إلى صبر، كما علَّم الخضرُ موسى عليه السلام بطريقة التنبيه: {**قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**}[3]، وقد تعهد موسى بالتزام الصبر لمتابعة العلم، {**قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**}[4]، فمن صبر ظفر، ومَن سار على الدرب وصل.

وقد ورد في الصحيح أن النبي ﷺ علمنا الصبر في تحصيل العلم، وذلك في معرض الحديث عن قول الخضر لموسى عليه السلام: {**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**}[5]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ، فَقَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا**»[6].

خامساً: الاعتدال واليسر في الدين

لقد برزت قيمةُ الاعتدال واليسر في الدين في قصة البقرة التي أمر اللهُ قوم موسى بذبحها لكشف أمر القتيل؛ إذ قال لهم نبي الله موسى عليه السلام: {**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**}[7]، قال ابن عباس: "فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأَتْ عنهم، ولكنهم شدَّدوا وتعنَّتوا على موسى، فشدد الله عليهم"[8]، ذلك أنهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يسأل ربه عن مواصفاتها، فقالوا: {**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ**}[9]، أي: ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟[10] وفي ذلك من التضييق والتشدد في الدين، فلما اكتملَتْ أوصافُها، {**قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**}[11]، وذهبوا ليبحثوا عن البقرة المحددة في أوصافها الدقيقة "فلم يجدوا البقرة التي نُعِتَت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهي القيّمة عليهم، فلما علمت أنه لا

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: (2699).

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه، مصدر سابق، افتتاح الكتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: (224)، وهو حديث حسن، قال محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه عليه: (في الزوائد - [220/2] -: إسناده ضعيف لضعف حفص بن سليمان. وقال السيوطي: سئل الشيخ محي الدين النووي رحمه الله تعالى عن هذا الحديث فقال: إنه ضعيف – أي: سنداً - وإن كان صحيحاً – أي: معنى -. وقال تلميذه جمال الدين المزي: هذا الحديث رُوي من طرق تبلغ رتبة الحسن. وهو كما قال).

(3) سورة الكهف، الآية: (67).

(4) سورة الكهف، الآية: (69).

(5) سورة الكهف، الآية: (78).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم: (3401).

(7) سورة البقرة، الآية: (67).

(8) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [296/1].

(9) سورة البقرة، الآية: (68).

(10) يُنظر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [298/1].

(11) سورة البقرة، الآية: (71).

يزكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن، فأتوا موسى، فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها، فقال لهم موسى: إن الله قد كان خفَّف عليكم، فشددتم على أنفسكم، فأعطوها رضاها وحكمها، ففعلوا، واشتروها فذبحوها"[1].

ويعلق القرطبي على ذلك فيقول: "وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم، ودِين الله يُسْرٌ، والتعمّق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم، نسأل الله العافية"[2].

وقد أكد رسول الله ﷺ على هذه القيمة، يقول أبو هُرَيْرَةَ ﷺ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **«أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا»**، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَوْ قُلْتُ: "نَعَمْ" لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»**[3].

وقد بوَّبَ الإمامُ البخاري في صحيحه: "بَاب مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ، وَقَوْلُهُ تعالى: **{لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}**[4]"، وصنَّف فيه عدداً من الأحاديث، ومنها عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»**[5]، وقد نبه الصحابي الجليل سهل بن حنيف ﷺ أحدَ المتشددين إلى الكفِّ عن تشدُّدِه في ممارسة الشعائر؛ وقال له: إن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **«لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ، {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}[6]»**[7].

* * *

(1) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [295/1].
(2) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [239/1].
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، رقم: (1337).
(4) سورة المائدة، الآية: (101).
(5) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، رقم: (7289).
(6) سورة الحديد، الآية: (27).
(7) أخرجه أبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: في الحسد، رقم: (4904)، وسكت عنه، وقال الهيثمي، في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [256/6]: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء، وهو ثقة".

اتفقَت النصوصُ الدِّينيَّة في القرآن الكريم والكتاب المقدس على تقديس قيمة حياة النفس الإنسانيَّة وحرمتها، فحياة الإنسان مقدَّسَة في الرسالات السَّماويَّة الثلاث، وهي من المقاصد الكبرى التي جاءَت التشريعات الربانية بحفظها، وتحريم الاعتداء عليها، وتعظيم حرمتها وقدسيتها.

البَاب الثّاني:

القِيَـمُ الإِنْسَانِيَّــة فِـي حَيَــاة رُوحِ اللّـهِ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عليه السلام مِـن خِــلال القُــرْآن الكَرِيــم

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: حياة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم.
- الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة في حياة عيسى عليه السلام وتعاليمه.

الفصـل الأول:
حياة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: التعريف بشخصية عيسى عليه السلام.
- المبحث الثاني: ولادة عيسى عليه السلام.
- المبحث الثالث: رسالة عيسى عليه السلام.
- المبحث الرابع: معجزات عيسى عليه السلام.
- المبحث الخامس: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء.

المبحث الأول:
التعريف بشخصية نبي الله عيسى عليه السلام

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام نبي الله، وهو من أولي العزم من الرسل، كما ورد ذلك في القرآن الكريم قوله سبحانه: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}**[1]. وورد في الحديث قوله ﷺ: **«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»**[2]، وتذكر الروايات أن الفترة بين بعثة سيدنا محمد ﷺ ورفعِ سيدنا المسيح عليه السلام قريبة من (580) خمسمائة وثمانين سنة، لم يُبْعث فيها نبيٌّ[3]، قال الله تعالى: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[4]، وأهل الفترة - عند علماء العقيدة - هم الذين قال الله تعالى فيهم: **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}**[5].

أولاً: حياة نبي الله عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

عندما يتجول القارئ بين أفنان آيات القرآن الكريم، وما فيها من علوم وأسرار، باحثاً عن قصة عيسى النبي عليه السلام يجد سيرته العطرة ومعجزاته تملأ آي القرآن، وتتوزع فيما بين خمس عشرة سورة من سوره، وهي حسب الترتيب كما هي مرتبة في المصحف الشريف[6]:

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: (7).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} [مريم: 16]، رقم: (3442)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، رقم: (2365).

(3) كانت بعثة سيدنا محمد عام 610م، ورُفع سيدنا المسيح عام 33م. يُنظَر: الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، تفسير الجلالين، مصدر سابق، (ص:71).

(4) سورة المائدة، الآية: (19).

(5) سورة الإسراء، الآية: (15).

(6) وضع كشيدة (-) بين رقمين يدل على التسلسل الرقمي، أما وضع الفاصلة (،) بين الرقمين فيدل على أن الأرقام منفصلة، ولا يوجد تسلسل.

م	السورة	رقمها	أرقام الآيات
1	البَقَرَة	2	87 و136 و253
2	آلُ عِمْران	3	33-37 و42-64 و84
3	النِّسَاء	4	156-159 و163 و171-172
4	المَائِدَة	5	17 و46 و72-77 و110-118
5	الأَنْعَام	6	85
6	التَّوْبَة	9	30-31
7	مَرْيَم	19	16-37
8	الأَنْبِيَاء	21	91
9	المُؤْمِنُون	23	50
10	الأَحْزاب	33	7
11	الشُّورَى	42	13
12	الزُّخْرُف	43	57-65
13	الحَدِيد	57	27
14	الصَّف	61	6 و14
15	التَحْرِيم	66	12

ومن الملاحظ:

أن ذكر قصة المسيح عليه السلام كان استعراضها بشكل مطول في السور الآتية: (آل عمران، النساء، المائدة، مريم، الزخرف)، بينما جرى ذكرها في السور الأخرى بالإشارة إليها، أو بشكل مختصر.

ثانياً: أسماء النبي عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

ذُكر اسم النبي عيسى عليه السلام في القرآن الكريم 12 مرة بالاسم الصريح (عيسى)، كما ذكر اسمه (المسيح) ثماني مرات، وذكر مرتين باسم (ابن مريم)، ومن أسمائه في القرآن الكريم: روح الله، وكلمة الله، وعبد الله، وهي على التفصيل الآتي:

1. **عيسى عليه السلام:** الاسم العلم للمسيح عليه السلام، هو (عيسى)، قال الله تعالى: **{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}**[1]، كما صرح القرآن الكريم بهذا الاسم في البشارة به لأمه مريم عليها السلام في قوله تعالى: **{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}**[2].

واسم (عيسى) على وزن فِعلى، وهو اسم عِبْرانيّ مُعرَّب، من إيشوع أو يشوع، قال الشربيني: "عيسى معرب إيشوع، وهو بالشين المعجمة؛ السيد"[3].

"وقال الزجاج: عيسى اسم عَجَمِيّ عُدِلَ عن لفظ الأَعجمية إِلى هذا البناء، وهو اسم مشتق من العِيَس، ومعناه: البياض يُخالِطُه شيءٌ من الشُّقْرة، واحده أَعْيَس، والأُنثى منه عَيْساء.

قال الأَصمعي: إِذا خالط بياض الشَّعر شُقْرة فهو أَعْيَس، وقيل: هو لون أَبيضُ مُشْرَب صَفاءً في ظُلمة خفِية، وقيل: هو بياضٌ تعلوه حمرة، وقد ورد في حديث الإسراء: **«وَأَمَّا عِيسَى فَرجُلٌ رَبْعَةٌ سَبطٌ، تَعْلُوهُ حُمْرَةٌ كَأَنَّهُ يَتحادَرُ مِنْ لِحْيَتِهِ الجُمَانُ»**[4].

ويجمع اسم عيسى على عِيسَون، والنسبة إليه: عِيسَوي كمُوسَوي، بقلب الياء واواً، ويلاحظ أنه عليه السلام نُسب إلى أمه تنبيهاً على أنه يولد من غير أب"[5]، ولقد كان ذلك بمعجزة إلهية كما سيأتي بيانه.

2. **المسيح عليه السلام:** وهو لقب النبي عيسى عليه السلام سماه الله تعالى به، كما جاء في بشارة الملائكة لأمه مريم: **{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}**[6]، وأصل (المسيح) بالعبرية مشيحا، ومعناه (المبارك)، وهو مشتق من المسح؛ لأنه مُسح بالبركة، أو لأنه يَمسح الأرض ولا يستوطن في مكان[7]، أو أنه كما قالوا: يمسح رؤوس اليتامى تطييباً لخاطرهم، ويمسح عين الأعمى فإذا هو بصير بإذن الله، ويمسح جسم الأبرص فإذا هو معافى بإذن الله، وهو قوله تعالى: **{وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي}**[8]، والأكمه: هو الأعمى

---

(1) سورة مريم، الآية: (34).
(2) سورة آل عمران، الآية: (45).
(3) الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشافعي (ت 977هـ)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، القاهرة، مطبعة بولاق - الأميرية، (1385هـ)، [176/1].
(4) السيوطي، عبد الرّحمن بن أبي بكر، الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، [41/8].
(5) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: عيس، [152/6]. والبيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مصدر سابق، [40/2].
(6) سورة آل عمران، الآية: (45).
(7) البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مصدر سابق، [40/2].
(8) سورة المائدة، الآية: (110).

المطموس البصر، وأما الأبرص فهو معروف وظاهر[1]، قال ابن عباس: سمي مسيحاً؛ لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برئ[2].

3. **كلمة الله:** سماه الله تعالى: (كلمة الله)، وذلك كما في قول الله تعالى: **{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ}**[3]، وفي آية أخرى: **{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}**[4].

ومعلوم أن الله تعالى خلق عيسى ابن مريم بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى بإذن الله، فعيسى إنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: **{كُنْ}**[5] فكان، كما نقل ابن أبي حاتم في تفسيره: "ليس الكلمةُ صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى"[6].

وقد تكون الكلمة بمعنى الآية، كما قال تعالى عن مريم عليها السلام: **{وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا}**[7]، أي: إنها صدَّقت بآياته، وقال تعالى: **{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ}**[8]، أي: آياته الدالة عليه.

وفي هذا الإطار يكون معنى أن (عيسى كلمة الله) هو آية دالة على قدرة الله، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً}**[9]، وقوله تعالى: **{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ}**[10].

ويحمل بعض العلماء معنى الكلمة على سبيل الاستعارة؛ ذلك أن عيسى عليه السلام لما فُقد في حقه سببٌ من الأسباب المادية المتعارف عليها في التوالد من الذكر والأنثى، أضيف حدوثه إلى الكلمة، فكأنه جُعِل الكلمة نفسها، كما يقال على من غلب عليه الكرم: إنه محض الجود، وباعتبار أن كل مولود له سببان؛ أحدهما: قريب وهو (المني) والآخر: بعيد وهو قول: **{كُنْ}**، وإنَّ عيسى عليه السلام قد فُقِدَ في حقه السبب القريب، فأضيف إلى السبب البعيد، وهو قوله تعالى: **{كُنْ}** ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: **{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ}**[11]، أي: أوصلها إليها، وحصلها فيها[12].

وعلى كل الاحتمالات؛ فإنَّ تفسيرَ (الكلمة) بأنها جزءٌ من الذات لا يصح عقلاً ولا نقلاً ولا لغة.

---

(1) الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [109/2].
(2) الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب (ت 977هـ)، السراج المنير، مصدر سابق، [176/1].
(3) سورة النساء، الآية: (171).
(4) سورة آل عمران، الآية: (45).
(5) سورة آل عمران، الآية: (59).
(6) ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي، الحنظلي، الرازي (ت 327هـ)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، الطبعة الثالثة، (1419هـ)، [1123/4].
(7) سورة التحريم، الآية: (12).
(8) سورة لقمان، الآية: (27).
(9) سورة المؤمنون، الآية: (50).
(10) سورة مريم، الآية: (21).
(11) سورة النساء، الآية: (171).
(12) يُنظَر: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مصدر سابق، [160/3].

4. **روح الله:** كان نبي الله عيسى عليه السلام يدعى بـ (روح الله)، وقد ورد هذا الاسم في قول الله تعالى: **{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}**[1]، وذكر العلماء وجوهاً من المعاني في المقصود بهذه التسمية، وهذا بسطها بالتفصيل:

أ. تطلق كلمة (الروح) ويقصد بها النفخة، وعلى هذا يكون معنى: {وَرُوحٌ مِنْهُ}، أي: ونفخة منه؛ لأن عيسى عليه السلام قد حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم عليها السلام بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه روح من الله؛ لأنه بأمره كان.

قال الجصاص: "وأما قوله تعالى: **{وَرُوحٌ مِنْهُ}**؛ فلأنه كان بنفخة جبريل بإذن الله، والنفخ يسمى روحاً"[2].

وإنما سُمي النفخ (روحاً)؛ لأنَّ النفخة عبارة عن ريح تخرج من الروح، وفي الحديث: **«الريح من رَوْح الله»**[3]، أي: من رحمته بعباده[4].

ب. وتطلق كلمة الروح ويقصد بها الرحمة، وعلى هذا المعنى يكون: **{وَرُوحٌ مِنْهُ}**، أي؛ رحمة منه، كما في قوله تعالى: **{أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}**[5]، أي: برحمة منه، وقد نزلت هذه الآية في الصحابة رضي الله عنهم[6].

وجاء على لسان يعقوب عليه السلام في قصة يوسف عليه السلام: **{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}**[7] أي؛ ولا تيأسوا من رحمة الله[8].

وقد جعل الله عيسى عليه السلام رحمة منه لمن اتبعه وآمن به وصدقه؛ إذ يهديهم سبيلَ الرشاد، ويؤيد هذا المعنى قولُه تعالى في عيسى عليه السلام: **{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}**[9].

ج. وتطلق كلمة (الروح) ويقصد بها الخلق، وعلى هذا المعنى فقول الله تعالى: **{وَرُوحٌ مِنْهُ}**، أي: من خلقه، كما في قوله تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}**[10]، أي: من خلقه[11]، وإنما أضيفَت الروح إلى الله

---

(1) سورة النساء، الآية: (171).
(2) أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، أحكام القرآن، مصدر سابق، [282/3].
(3) تتمة الحديث: «... تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ مِنْ خَيْرِهَا، وَعُوذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا»، أخرجه أحمد في مسنده، مصدر سابق، [417/16]، رقم: (10714)، والحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)، المستدرك على الصحيحين، متضمناً تعليقات الذهبي في التلخيص والميزان، والعراقي في أماليه، والمناوي في فيض القدير وغيرهم، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1411هـ – 1990م)، [318/4]، رقم: (7769)، وصحَّحهُ، ووافقه الذهبي، وهو "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن".
(4) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: روح، [455/2].
(5) سورة المجادلة، الآية: (22).
(6) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [309/17].
(7) سورة يوسف، الآية: (87).
(8) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [415/3].
(9) سورة مريم، الآية: (21).
(10) سورة الجاثية، الآية: (13).
(11) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [23/6].

تعالى إضافة تشريف، كما أضيفت الناقة إلى الله تعالى على لسان صالح عليه السلام: **{هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً}**[1]، وكما أضيف البيت إلى الله تعالى كما في قوله تعالى: **{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}**[2].

د. إن النفخ سبب ظاهري لإيجاد الروح في كل مولود، وقد قال الله تعالى عن آدم عليه السلام **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}**[3]، وكذلك قال الله تعالى في خلق عيسى عليه السلام: **{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا}**[4]، وكان ذلك النفخ بواسطة جبريل عليه السلام؛ إذ تمثل لها بشراً سوياً، فنفخ في جيب درعها حتى صار الحمل بعيسى عليه السلام.

ومن المُسَلَّم به أن آدم عليه السلام نفخ الله تعالى فيه من روحه بلا واسطة، كما جاء في حديث الخلق: **«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ»**[5]، وفي حديث الشفاعة: **«فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ، أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ»**[6]، ومع كل هذا التكريم لآدم عليه السلام فلا أحد يقول بأنه جزء من ذاته سبحانه، وكذلك عيسى عليه السلام فهو روح من الله، مصداق قوله تعالى: **{فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا}**[7]، والحالتان متماثلتان والتفريق بينهما تعسُّف.

هـ. أما تفسير حرف (مِن) في قوله تعالى: **{وَرُوحٌ مِنْهُ}** فإن حرف الجر هنا لابتداء الغاية، كما في قوله تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}**[8]، كما يقول جمهور المفسرين، وليست للتبعيض[9].

6. **عبد الله:** سمى المسيح عليه السلام نفسه (عبد الله) في أول كلمة نطق بها يوم تكلم في المهد صبياً، إقراراً منه أنه عبدٌ لله، وقد ورد في القرآن حكاية عنه: **{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}**[10]، وقد شهدَ اللهُ له بأنه عبدٌ لله بقوله سبحانه: **{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}**[11]، وبقوله تعالى: **{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}**[12].

وقد بلَّغ المسيح رسالتَه لقومِه، ودعاهم إلى عبادة الله وحدَه، كما في قوله تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: (73).
(2) سورة الحج، الآية: (26).
(3) سورة ص، الآية: (72).
(4) سورة الأنبياء، الآية: (91).
(5) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب تفسير القرآن، باب: بابٌ، رقم: (3368)، وقال: "هذا حديثٌ حسن غريب من هذا الوجه".
(6) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء عليهم السلام، باب: قول الله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [نوح: 1]، رقم: (3340)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم: (194).
(7) سورة الأنبياء، الآية: (91).
(8) سورة الجاثية، الآية: (13).
(9) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [590/1].
(10) سورة مريم، الآية: (30).
(11) سورة الزخرف، الآية: (59).
(12) سورة النساء، الآية: (172).

{وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}[1].

ويؤكّدُ المسيحُ على عبوديته لله عندما يسأله الله يوم القيامة، {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ● مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[2].

ثالثاً: نبوته وصفاته عليه السلام

أوحى الله تعالى إلى النبي عيسى عليه السلام كما أوحى إلى غيره من الأنبياء والمرسلين؛ حيث ذكره معهم في قوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}[3].

وهذه صورة للمسيح عيسى عليه السلام كما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم:

1. جعل الله تعالى النبي عيسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين أخذ منهم ميثاقاً غليظاً، وذكرهم في قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}[4].
2. شهد الله تعالى لنبي الله عيسى عليه السلام بخالص العبودية، ذكر ذلك في قوله تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ}[5].
3. شهد الله تعالى لنبي الله عيسى عليه السلام بأنه من الصالحين، وذلك في قوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ}[6].
4. أنزل الله تعالى على النبي عيسى عليه السلام كتاباً اسمه: (الإنجيل)، كما قال الله تعالى: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ}[7].

(1) سورة المائدة، الآية: (72).
(2) سورة المائدة، الآية: (116 - 117).
(3) سورة النساء، الآية: (163).
(4) سورة الأحزاب، الآية: (7).
(5) سورة النساء، الآية: (172).
(6) سورة الأنعام، الآية: (85).
(7) سورة الحديد، الآية: (27).

5. كانت رسالة النبي عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل؛ كما جاء في وصفه بقوله تعالى: **{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}**[1].

6. تضمنَت رسالة النبي عيسى عليه السلام التي بُعث بها تصديقاً لمن جاء قبله من النبيين والمرسلين عليهم السلام، وبشارة بخاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**[2].

7. أيد الله تعالى النبي عيسى عليه السلام بمعجزات تجلَّت في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وإنزال المائدة عليه من السماء، وصُنع الطير من الطين والنفخ فيه ليكون طيراً بإذن الله، وسيأتي تفصيل لهذه المعجزات في مبحث مستقل من هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

8. ولد النبي عيسى عليه السلام بمعجزة إلهية من أم بلا أب، على ما سيأتي تفصيله، في بحث مستقل، وظاهر الآيات القرآنية أنه صار نبياً وهو ما يزال في المهد صبياً، كما ذكر القرآن ذلك على لسان المسيح عليه السلام بقوله يوم تكلَّم في المهد: **{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}**[3]. وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى الآية فمنهم من أجراها على ظاهرها كما جاء في قول ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه فذلك قوله: **{إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}**[4] ويذكر البغوي أن هذا قول الأكثرين فيقول "وقال الأكثرون أوتي الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال"[5]

ويذهب فريق آخر من المفسرين إلى تضعيف الفهم الظاهر للآية ومنهم الطبري حيث يقول "وقوله **{آتَانِيَ الْكِتَابَ}** يقول القائل: أو آتاه الكتاب والوحي قبل أن يخلق في بطن أمه فإن معنى ذلك بخلاف ما يظنّ، وإنما معناه: وقضى يوم قضى أمور خلقه إليّ أن يؤتيني الكتاب"[6] ويرى القرطبي أن الفهم الظاهر للآية في غاية الضعف فيقول "قيل: آتاه في تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوّة كما علم آدم الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلي. وهذا في غاية الضعف على ما نبينه في المسألة بعد هذا. وقيل: أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلاً في الحال؛ وهذا أصح"[7]

ويقوي هذا الفريق تفسيره بأن عيسى عليه السلام انقطع كلامه بعد إثبات براءة أمه وعاش حياته كسائر الأطفال إلى أن كلف بالرسالة كما ذكر ذلك الطبري بأن عيسى لم يتكلم إلا عند ذلك ثم انقطع كلامه في المهد حتى

(1) سورة آل عمران، الآية: (49).
(2) سورة الصف، الآية: (6).
(3) سورة مريم، الآية: (30).
(4) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [229/5].
(5) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [230/5].
(6) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [190/18].
(7) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [499/7].

بلغ مبلغ الغلمان[1] ونقل مثل ذلك القرطبي بقوله "وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ، ثم عاد إلى حالة الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، فكان نطقه لإظهار براءة أمه! لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة ، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة. ولم يُنقَل أنه دام نطقه ، ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر ، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولادة لكان مِثله مما لا ينكتم"[2]

ويميل الباحث إلى الفريق الثاني فيصبح معنى **{آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}** سيؤتيني الكتاب وسيجعلني نبياً.[3] والله أعلم.

❋❋❋

(1) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [190/18].
(2) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [500/7].
(3) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [230/5].

المبحـث الثانـي:
ولادة عيسى عليه السلام

لقد كرَّم الله سبحانه النبي عيسى عليه السلام وأمه مريم الصِدّيقة عليها السلام، كما كرَّم عائلته الطاهرة أيضاً؛ حيث سُميت سورة من السبع الطوال باسم عائلته، وهي سورة آل عمران، ورقمها (3)، وسورة باسم أمه، وهي سورة مريم، ورقمها (19)، وسورة باسم إحدى معجزاته، وهي سورة المائدة، ورقمها (5).

ولدى دراسة الآيات الكريمة التي تتحدث عن النبي عيسى عليه السلام نجد أن القرآن الكريم احتفى بولادة السيد المسيح عليه السلام كما احتفى أيضاً بولادة أخيه موسى بن عمران عليه السلام، وإنما ذلك احتفاءً بصاحبَي أكبر رسالتَين سماويتَين مجاورتَين لرسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ، مشيراً بذلك إلى مدى الصلة التي تربط بين أتباع الدِّيانات الثلاث.

بدأ الحديث عن ولادة السيد المسيح عليه السلام في القرآن الكريم بذكر العائلة المطهرة، والحرز الملائكي الذي نشأت فيه مريم ابنة عمران المطهرة البتول عليها السلام والدة السيد المسيح عليه السلام، ويمكن للقارئ معرفة مدى الحفاوة التي تمتع بها السيد المسيح عليه السلام وأمه مريم وعائلة آل عمران في القرآن الكريم من خلال المراحل التي توالت فيها قصة الولادة الشريفة، وهذا بيان لتسلسل هذا الحدث المعجزة:

1. طهَّر الله تعالى عائلة آل عمران التي كانت الأصل المبارك والمنبت الطيب للسيد المسيح عليه السلام وأمه مريم المطهرة البتول، واصطفاها فيمن اصطفى على العالمين لما علم منها صفاء الفطرة، وذكاء الطبع، والنماء الصالح، قال الله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}**[1].

2. نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً لله، أي؛ خالصاً مفرغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، قال الله تعالى حكاية عنها: **{إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**[2]، وقدَّر الله تعالى أن يكون المولود أنثى، ويخبر القرآن عن ذلك فيقول: **{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}**[3]، ومريم بلغتهم: العابدة الخادمة[4]، ثم ما لبثَت أمُّها أن توفيت.

3. ترعرعت مريم البتول في كنف نبي الله زكريا عليه السلام، فلما بلغَت سنَّ الفتوة والصبا انتقلت إلى بيت المقدس وفاءً لنذر أمها امرأة عمران، فعاشَت حياةَ الأتقياء، ونبتَت فيه نباتاً حسناً، وكانت قد اجتهدَت في العبادة، ودرجَت حتى صارت من أهل الإنابة، وأصبحت من أهل الكرامات، وكانت تزورها الملائكة.

ويتحدث القرآن الكريم عن حياة مريم البتول في بيت المقدس عندما يقول:

(1) سورة آل عمران، الآية: (33).
(2) سورة آل عمران، الآية: (35).
(3) سورة آل عمران، الآية: (36).
(4) يُنظَر: ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [414/1].

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[1]، قال ابن عباس: (وجد عندها ثمارَ الجنة، فاكهةَ الصّيف في الشتاء، وفاكهةَ الشتاء في الصيف)[2]، ومن العلماء المفسرين من يتجاوز المعنى الحسي والمادي للرزق ويفسره بالعلم؛ كما روي عن مجاهد: **{وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا}** أي: علماً، أو قال: صُحفًا فيها علم[3].

4. كانت زيارة الملائكة لمريم البتول عليها السلام إشارة لبلوغها صفات الكمال، وكانت زيارة الملائكة لها أيضاً إرهاصات ما قبل الاصطفاء، فلما أن بلغَت مريم البتول مقام الكمال جاءت الملائكة لتخبرها بأن الله اصطفاها على نساء العالمين بعد أن طهرها، ثم طلبَت منها الملائكة أن تستمر في العبادة، لتتهيأ للاصطفاء الأكبر، وهي كونها أماً للمسيح عليه السلام، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ● يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}**[4]، وقد تكرر الاصطفاء في الآية؛ لأن الاصطفاء الأول هو اختيارها للعبادة، وأما الاصطفاء الثاني فكان على نساء العالمين، بأن تكون أماً للمسيح عليه السلام من غير أب[5].

5. وكانت زيارة الملائكة لمريم المطهَّرة هذه المرة قد حملت إليها البشارة من الله تعالى بأنها ستكون أمًّا للمسيح عليه السلام الذي سيُجري الله تعالى على يديه المعجزات منذ ولادته، وسيكون كما قال القرآن: **{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}**[6]، كانت هذه البشارة صريحة: **{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ● وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ}**[7].

6. وعند بشارة الملائكة لمريم المطهرة بالمسيح عليه السلام تعجبت! إذ كيف يكون لها غلام دون أن يمسَّها أحد من البشر في نكاح ولا سفاح؟! **{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}**[8]، وهذا استفهام منها عن أمر لم تجرِ به العادة سواء من الحرام أم من الحلال! فأجابها جبريل عليه السلام: **{قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}**[9]، أي: بالأسباب، أو بدون أسباب، حسب المشيئة، فإن الله سبحانه **{إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**[10].

(1) سورة آل عمران، الآية: (37).
(2) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [356/6].
(3) يُنظَر: ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد الرازي، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [640/2].
(4) سورة آل عمران، الآية: (42 - 43).
(5) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [82/4].
(6) سورة آل عمران، الآية: (49).
(7) سورة آل عمران، الآية: (45 - 46).
(8) سورة آل عمران، الآية: (47).
(9) سورة آل عمران، الآية: (47).
(10) سورة آل عمران، الآية: (47).

7. وهنا ضاق صدر مريم عليها السلام، وشق عليها أن تُقذَف من قبل قومها - بني إسرائيل - إذا علموا بأمر الحمل، فاعتزلتهم وتنحَّت عنهم، واتخذت شرق بيت المقدس حجاباً لها عن الناس متوارية عن قومها، يصور القرآن هذا المشهد بعد أن جاءتها الملائكة بالبشرى وكأنه يتراءى للقارئ، يقول الله تعالى: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ● فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا}**[1]، ومن الجدير بالذكر أن مكان الخلوة الذي اتخذته مريم شرق بيت المقدس لتتوارى عن الناس، وتنقطع فيه للعبادة والتبتل؛ اتخذه النصارى فيما بعد قبلة لهم.

8. في مكان خلوتها أتاها جبريل عليه السلام بهيئة بشرية - والملائكة يتشكلون -، قال الله تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}**[2]، أي: جبريل عليه السلام على غير هيئته الحقيقية، فلما لم تعرفه، استعاذت باسم الله الرحمن من شر هذا الذي اقتحم عليها، وهي في محراب عبادتها، وقد قطعَ عليها عزلتها، يقول الله تعالى: **{قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}**[3]، وإنما قالت: **{إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}**[4] لتثير فيه نزعة الخوف من الله تعالى، وتستحث فيه خُلُق التقوى، وكأنها تقول له: ألَّا يقترب منها إن كان من المتقين.

9. لما رأى جبريل عليه السلام ما بها من الفزع هدَّأ من روعها، فاطمأنَّت بعد أن عرفت حقيقة أمره: **{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا}**[5]، ولكنها سألت جبريل عليه السلام سؤال المتعجب: **{قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا}**[6]، ذلك أن الولد إما أن يكون من نكاح شرعي صحيح، وإما أن يكون من فعل الحرام؛ وهي ليست بذات زوج، كما أنها ليست من البغايا، فأجابها جبريل عليه السلام: **{قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}**[7]، يكون آية للناس دالة على أن الله يخلق ما يشاء، قال الله تعالى: **{وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}**[8]، وأما قوله تعالى: **{وَرَحْمَةً مِنَّا}**[9]، أي: رحمة لمن آمن به من المؤمنين، وكذلك قوله تعالى: **{وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}**[10] معناه: وكانت ولادته أمراً مقدراً في اللوح المحفوظ، وكأنه واقع، أو فهو واقع لا محالة[11].

وفي آية أخرى ذكر القرآن قول جبريل عليه السلام عقب تعجب مريم واستفهامها، قال تعالى: **{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي**

(1) سورة مريم، الآية: (16 - 17).
(2) سورة مريم، الآية: (17).
(3) سورة مريم، الآية: (18).
(4) سورة مريم، الآية: (18).
(5) سورة مريم، الآية: (19).
(6) سورة مريم، الآية: (20).
(7) سورة مريم، الآية: (21).
(8) سورة الأنبياء، الآية: (91).
(9) سورة مريم، الآية: (21).
(10) سورة مريم، الآية: (21).
(11) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [91/11].

بَشَّرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[1]، فلما قال لها الملك جبريل عليه السلام ما قال، استسلمت لقضاء الله تعالى، وأن الخيرة فيما قضى الله.

وقد ذكر القرآن شأنها وأنها صدقت بكلمات ربها، وذكر القرآن -أيضاً- الطريقة التي حصل فيها الحمل، وذلك في قوله تعالى: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}**[2]، والروح: جبريل عليه السلام، وجعل نسبة الملك جبريل عليه السلام إليه في قوله: **{رُوحِنَا}** للتشريف، نفخ جبريل عليه السلام في جيبها، فحملت بذلك النفخ[3] بقدرة الله تعالى.

10. ثم ما لبثت مريم البتول أن ظهرَت عليها علامات الحمل، وتحقَّقَت في نفسها بالبشرى، فأعلمت بخبر ما جرى معها امرأة زكريا عليه السلام التي كانت حاملاً أيضاً بنبي الله يحيى عليه السلام استجابة لدعوة أبيه زكريا، وكانت امرأة زكريا عليه السلام عقيماً لا تلد[4].

يقول المفسرون: إن مريم دخلت على امرأة زكريا، وكانت من قبلُ تعيش في كنفها، فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فبادرتها مريم البتول قائلة: وهل علمت أيضًا أني حبلى؟ وذكرت لها ما كان من شأنها[5].

وبعد أن أعلمت مريمُ امرأةَ زكريا بحملها، وتصورت ما يمكن أن يجري على ألسنة عامة الناس في شأنها اتخذَت مكاناً لها وراء الجبل بعيداً عن الناس، يدعى "بيت لحم" معتزلة عنهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: **{فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا}**[6]، يذكر المفسرون عن فترة الحمل: "والمشهور الظاهر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، وهذا رأي جمهور المفسرين" [7].

ولما تقدمت الأيام بمريم عليها السلام، وبدأت تظهر عليها مظاهر الحمل، شعرت بالحرج، ويوماً بعد يومٍ دنى الأجل، ودب فيها الطلق، ومر على ذاكرتها ما يمكن أن يكون من حديث عنها على ألسنة الناس، فالتجأت إلى نخلة قريبة في المكان، وتمنَّت الموت على أن تُرمى بالفاحشة بعد أن كانت تُعرف في قومها بالطاهرة البتول، قال الله تعالى: **{فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا}**[8].

11. سمعت مريم عليها السلام صوتاً من تحتها يناديها يطلب منها أن لا تحزن، ويذكر لها ما يطيب خاطرها، ويشعرها بأنها ليست وحيدة، وإنما معها العناية الإلهية، وذلك

(1) سورة آل عمران، الآية: (47).
(2) سورة التحريم، الآية: (12).
(3) يُنظَر: ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [596/1].
(4) ينظر القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [82/11].
(5) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [116/3].
(6) سورة مريم، الآية: (22).
(7) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [116/3].
(8) سورة مريم، الآية: (23).

قوله تعالى: **{فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}**[1]، قيل: إن الذي نادها هو جبريل عليه السلام كانت مريم على ربوة عندها نخلة بالقرب منها، وكان الملك جبريل عليه السلام في مكان منخفض أسفل منها.

وقيل: إن الذي ناداها عيسى عليه السلام ورجح الإمام الطبري: أن يكون المنادي هو عيسى عليه السلام بعد الولادة[2]، بينما رجح القرطبي: أن يكون المنادي جبريل عليه السلام وكلا القولين منقول عن كبار التابعين، ولعلي أميل إلى ما قاله القرطبي.

وأما قوله تعالى: **{قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}**؛ فقد قال القرطبي: "السَّري" هو عيسى عليه السلام؛ لأن السَّري من الرجال: العظيم الخصال السيد. قال الحسن: كان والله سرياً من الرجال. وفي رأي الجمهور: "السري" هو جدول الماء[3]. وهذا القول أظهر، وهو مناسب لما بعده[4]. ويقال: كان قد انقطع ماؤه، فأجراه الله كرامةً لمريم عليها السلام، وليطمئن قلبها.

ثم قال لها جبريل عليه السلام: **{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}**[5]، وكان الجذع يابساً؛ آيةً لمريم من آيات الله على قدرته ومشيئته سبحانه، فتساقط منه الرطب، ثم تابع جبريل عليه السلام فقال: **{فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا}**[6]، فكلي من الرطب، واشربي من ماء الجدول، واهنئي بالمسيح الموعود عيسى عليه السلام كرامةً لك، ثم خاطبها مبيّناً لها ما تفعل عند رؤية الناس، فقال: **{فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}**[7]، وكانوا في شريعة بني إسرائيل إذا صاموا انقطعوا عن الطعام والكلام، فكان ذلك عذرها عن عدم الكلام.

12. وكان مع مريم عليها السلام في بيت المقدس ابن عم لها يدعى يوسف النجار، وكانا معاً يخدمان المسجد، ويجتهدان بالعبادة، فلما رأى من تغير حالها منعه من سؤالها ما يعلم عنها من الطهارة والإنابة، وكان هذا الخاطر لا يكاد ينصرف عن خياله؛ حتى سألها مرة قائلاً لها: أي مريم، أخبريني: هل يكون زرع بغير بذار؟ وهل يكون نبات بغير مطر؟ وهل يكون ولد من غير ذكر؟! قالت: يا ابن عم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه بغير بذار؟! ألم تعلم أن الله خلق آدم وزوجه بغير ذكر ولا أنثى؟! فزالت الشكوك من نفسه، عندئذ صدقها وسلم لها حالها[8]، وعلم ابن عمها يوسف عند ذلك أن هذا من كمال قدرة الله تعالى كما قال جبريل عليه السلام لمريم البتول: **{إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**[9].

---

(1) سورة مريم، الآية: (24).
(2) يُنظَر: محمد بن جرير الطَّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [174/18].
(3) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [94/11].
(4) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [117/3].
(5) سورة مريم، الآية: (25).
(6) سورة مريم، الآية: (26).
(7) سورة مريم، الآية: (26).
(8) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [116/3]، وشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مصدر سابق، [80/16].
(9) سورة آل عمران، الآية: (47).

13. شاع الخبر بين القوم، وبدأت ألسنة السوء توجّه الاتهامات الباطلة، وتكيل الافتراءات الزائفة لمريم الطاهرة التي أحصنت فرجها، وشهد الله بطهرها وبراءتها، كما أخبر عنها القرآن: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}**[1]، ولكن مريم الطاهرة عليها السلام -وقد اطمأن قلبها لما رأت من الآيات- لم تجد بُدّاً من مواجهة قومها، فأتت إليهم تحمل ولدها، واثقة بأن الله ناصرها، وقد أخبر القرآن عنها فقال: **{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ}**[2].

14. دخلت مريم الطاهرة على أهلها تحمل الغلام، فتسامع القوم بمجيئها، وكانوا من قبل قد سمعوا بشأنها، فمدَّت إليها امرأةٌ يدَها لتضربها، فيبست يدها، وقال أحدهم: ما أراها إلا زانية، فأخرس اللهُ لسانَه عن الكلام، فخاف القومُ، وجعلوا يلينون لها الكلام في عتاب قائلين: **{يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}**[3]، أي: مفترى يلحق العار بالعائلة، **{يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}**[4]، كانت من أهل بيت يُعرف بالصلاح، وهارون أخو موسى النبي عليه السلام، كانت من نسله، كما يقال للتميمي أو المضري يا أخا تميم، يا أخا مضر، ومثله في كلام العرب كثير، وقيل: كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل، وكان يُعرف بالصلاح، وقصدوا بقولهم: يا شبيهة هارون في الصلاح[5]، ويريدون بقولهم: **{مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}** أي: إنك من عائلة نقية طاهرة عرفت بالصلاح والتقوى، ولم يدنّس سمعتها أحدٌ من قبل، فكيف أقبلت على هذه الفعلة والفرية؟! وهذا اتهام بالزّنى، وطلبوا منها أن تدافع عن نفسها، وتبيّن هل غصبها أحدٌ، أو اعتدى عليها فاسق، أو أن تقول كلاماً توضِّحُ فيه موقفَها؟

15. التزمت مريم الطاهرة البتول الصمت، واكتَفت في دفاعها عن نفسها أن أشارت إلى المولود، كما قال القرآن: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ}**[6]، فغضبوا وقالوا: **{كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}**[7]، قالوا: هل تهزئين بنا يا مريم حتى تأمرينا أن نكلم في المهد صبياً؟! عندها أنطق الله المسيح عليه السلام وهو في المهد، فكان آية تتلى: **{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ● وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ● وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ● وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}**[8]، كان كلاماً أشاع الطهر في المكان، وآذن بالمسيح الموعود عليه السلام، وحظيَت مريم عليها السلام في قومها بمقام الصديقية.

---

(1) سورة التحريم، الآية: (12).
(2) سورة مريم، الآية: (27).
(3) سورة مريم، الآية: (27).
(4) سورة مريم، الآية: (28).
(5) يُنظَر: ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، مصدر سابق، [53/13].
(6) سورة مريم، الآية: (29).
(7) سورة مريم، الآية: (29).
(8) سورة مريم، الآية: (30 - 33).

وإن ولادة عيسى ﷺ من أمٍّ بلا أب تُعدُّ معجزة دالة على قدرة الله؛ إذ ليست هذه هي المرة الأولى التي يخرق اللهُ تعالى فيها القانون الذي وضعه في الإيجاد، ليُظهر بذلك للناس قدرتَه على كل شيء، وقد أوضحَت مريم عليها السَّلام هذه الحقيقة بقولها لابن عمها: فمن خلق الإنسان الأول؟ ومعنى هذا أن الله سبحانه قد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وكانت مادة خلقه الأولى التراب: **{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}**[1]، وخلق زوجاً لآدم - وهي حواء - من ذكر بلا أنثى كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}**[2]، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الناس من ذكر وأنثى، وفي ذلك يقول تعالى: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**[3]، وهذا دليل على أن الله ﷻ لا يُعجزُه شيءٌ، وإن قانون الأسباب والمسببات هو من وضعه سبحانه، ويخرقه متى يشاء.

وقد أثار وفدُ نصارى نجران[4] هذه الشبهة؛ إذ قالوا لرسول الله ﷺ: (مَا لَكَ تَشتُمُ صاحِبَنا؟ قال: **«وَمَا أَقُولُ؟»** قالوا: تقول: إنَّهُ عَبدٌ، قال: **«أَجَل، إنه عبدُ اللهِ ورسُولُهُ، وكَلِمتُهُ أَلْقاهَا إلى مَرِيَمَ العَذْراء البَتُول»**، فغَضِبوا وَقَالُوا: هَل رَأَيتَ إنْساناً قَط مِنْ غَيرِ أبٍ؟ فإن كُنتَ صَادِقاً فَأرِنا مِثلَه، وفي رواية أنهم سألوه: مَن أبو عِيسَى؟ فأنزَلَ اللهُ سبحانه قوله: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ}**[5])[6]. وواضحٌ أن الآية قد ردَّتْ عليهم بأمرٍ قد سَلَّموا له سابقاً؛ بأنه لو لزمَ من وجود عيسى من أم بلا أب أن يكون ابناً لله؛ للزم أن يكون آدمُ ابناً لله بطريق الأوْلى، فإنه وُجِدَ من غير أم ولا أب باعتراف النصارى! ثم إذا جاز أن يَخلق الله تعالى آدم من التراب، فلِمَ لا يجوز أن يَخلق عيسى من دم مريم؟! وهذا الدليل مُلزِم لهم؛ إذ لم يقولوا بألوهية آدم ولا بنوَّته لله!

وبهذا الإلزام قطع القرآن الجدال بعد إقامة الحجة، وطُلِب من النبي ﷺ أن يدعوهم إلى المباهلة[7]، قال تعالى: **{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}**[8]. ولما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ وفد نجران إلى المباهلة، وكان أمرهم يرجع إلى ثلاثة

---

(1) سورة ص، الآية: (71).

(2) سورة النساء، الآية: (1).

(3) سورة آل عمران، الآية: (59).

(4) نجران: بلدة بين مكة واليمن، على نحو من سبع مراحل من مكة، أول من سكن بها وعمرها نجران بن زيدان بن سبأ فسميت باسمه، دخلتها النصرانية منذ زمن بعيد، وفيها قصة أصحاب الأخدود، كانوا على دين المسيح الحق، ثم بدلوا كما بدل غيرهم، فتحها الرسول ﷺ صلحاً. يُنظَر: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (ت626هـ)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، [266/5]، وأيضاً: أبو الفرج، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، (1427هـ)، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، [345/1].

(5) سورة آل عمران، الآية: (59).

(6) يُنظَر: الواحدي؛ أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه، (1388هـ - 1968م)، (ص: 96) وما بعدها.

(7) المباهلة: من البَهْل، وهو اللعن، وفي الحديث: «فعليه بَهلة الله»، أي: لعنة الله، وتضم باؤها وتفتح، وباهل القوم بعضهم بعضاً، وتباهلوا: تلاعنوا، والمباهلة: الملاعنة، أن يجتمع القوم فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا. يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: بهل، [71/11]، وحديث أبي بكر ﷺ: «من ولي من أمر الناس شيئاً فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة الله»، أخرجه الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، (المتوفى: 360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، [21/5]، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [202/5]: "رواه الطبراني ورجاله ثقات".

(8) سورة آل عمران، الآية: (61).

منهم، وهم: السيد والعاقب والأسقف، فقال العاقب: والله لقد عرفتم -يا معشر النصارى- أن محمداً نبيٌّ مرسَل، والله ما لاعَنَ قومٌ قط نبيّاً فعاشَ كبيرُهم، ولا نَبَتَ صغيرُهم، ولئن فعلتُمْ ذلك لتَهلكُنَّ، فوعدوه بأن تكون المباهلة في الغد، فغدا رسول الله ﷺ فأخذَ بيد علي وفاطمة وبيد الحسن والحسين، ثم أرسل إلى الوفد، فقال الأسقُف: يا معشر النصارى، إني لأرى وجُوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتَهلِكوا، وصالَحوه![1] وذكر ابن حجر: أن السيد والعاقب رجعا بعد ذلك فأسلما[2].

❋❋❋

(1) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [48/2]، والرازي، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب = تفسير الرازي، مصدر سابق، [247/8].
(2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، [145/23].

المبحث الثالث:
رسالة عيسى ابن مريم عليه السلام

يحسن قبل الحديث عن رسالة نبي الله عيسى عليه السلام أن يتمَّ التأكيدُ على ما يأتي:

أولاً: إن دينَ اللهِ واحدٌ، وهذا الدين لم يختلف - في عقيدته ومبادئه - في كل ما نزل من السماء على أنبياء الله ورسله عليهم السلام، ومما يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}**[1]، وبناء على ذلك فإن رسالة نبي الله عيسى عليه السلام لا تختلف من حيث العقيدة والإيمان عن رسالات الأنبياء السابقين، كما أنها لن تكون مختلفة في الإطار ذاته عن رسالة الإسلام.

ثانياً: بعض ما ورد في رسالة عيسى عليه السلام

1. **رسالة المسيح عليه السلام ليست عامة إلى البشرية، بل هي خاصة إلى بني إسرائيل،** كما جاء في القرآن في وصف عيسى عليه السلام: **{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}**[2].

2. **الأمر بعبادة الله الواحد،** قال الله تعالى: **{وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}**[3].

3. التأكيد على بشرية المسيح عليه السلام، وأنه رسول من عند الله، قال الله تعالى: **{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}**[4]، وقال أيضاً: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ● لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}**[5]، وقال -أيضاً- مؤكداً على أن المسيحَ عليه السلام وأمَّه بشرٌ يتعرضان للموت: **{قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}**[6].

وأما ما ورد عن رسالة السيد المسيح عليه السلام في الأناجيل؛ فقد ورد فيها قول المسيح عليه السلام: "إن الحياة الأبدية أن يعرفوك أنك أنت الإله الحقيقي وحدَك، ويسوع المسيح الذي أرسلته"[7]، وقوله عليه السلام أيضاً: "مَن يَقبلني يَقبل الذي أرسلني"[8]، وورد أيضاً: "فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون مِن أين أنا؟ ومن نفسي لم آتِ، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه، وهو أرسلني"[9].

(1) سورة الشورى، الآية: (13).
(2) سورة آل عمران، الآية: (49).
(3) سورة المائدة، الآية: (72).
(4) سورة المائدة، الآية: (75).
(5) سورة النساء، الآية: (171 - 172).
(6) سورة المائدة، الآية: (17).
(7) إنجيل يوحنا، الإصحاح: (5)، فقرة: (15 - 19).
(8) إنجيل متى، الإصحاح: (10)، فقرة (14).
(9) إنجيل يوحنا، الإصحاح: (7)، فقرة: (28 - 40).

4. **التصديق بالكتب السَّماويَّة من قَبْلِه**، قال الله تعالى: **{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ}**[1]، وقد ورد على لسان المسيح عليه السلام ما يؤكِّد هذه الحقيقة، من أنه جاء مكمِّلاً؛ ولم يأتِ ناقضاً لما قبله، يقول المسيح عليه السلام: "لا تظنوا أني جئتُ لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمِّل"[2].

5. **وصايا جديدة إلى بني إسرائيل خاصة**؛ قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: **{وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}**[3]، وقد ذكر القرآن أن الله تعالى عاقب طائفة من بني إسرائيل بأن حرَّم عليهم بعض الطيبات بسبب المعاصي التي ارتكبوها؛ مثل: الظلم، وأخذ الربا، وأكل أموال الناس بالباطل...، قال الله تعالى: **{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ● وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}**[4]، وقال أيضاً: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}**[5]، وقد جاء في رسالة المسيح ما ينسخُ بعضَ ما حُرِّمَ عليهم من الطيبات.

6. **البشارة بالرسالة الخاتمة**؛ فقد بشر عيسى ابن مريم عليه السلام بالنبي محمد ﷺ وصفاً واسماً، قال الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**[6]، وقد وردت أوصافه في التوراة والإنجيل، كما قال الله تعالى: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}**[7]، ومعلوم أن الإنجيل قد ورد فيه ذكر للبشارة بـ (الفارقليط)، ومعنى الكلمة يدور حول الحمد، وهو ما يؤكِّدُ البشارة بالنبي محمد ﷺ[8]، وقد ألف القس عبد الأحد داوود[9] في هذا المجال كتاباً أسماه: (محمد في الكتاب المقدس) جمع فيه كلَّ الفقرات التي تؤكِّد على البشارة بالنبي محمد ﷺ خاتم المرسلين.

---

(1) سورة المائدة، الآية: (46).
(2) إنجيل متّى، الإصحاح: (5)، فقرة: (17).
(3) سورة آل عمران، الآية: (50).
(4) سورة النساء، الآية: (160 - 161).
(5) سورة الأنعام، الآية: (146).
(6) سورة الصف، الآية: (6).
(7) سورة الأعراف، الآية: (157).
(8) يُنظَر: ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [553/2].
(9) عبد الأحد داوود: اسمه السابق: "ديفيد بنجامين"، ولد عام: 1867م، أسلم، وهو صاحب كتاب: "محمد في الكتاب المقدس"، توفي عام 1940م. عن موقع: "يونيو نبيديا"، تاريخ الزيارة: (2023/1/8م).

ونختم الحديث عن رسالة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ببعض النصوص من الإنجيل مقارنة بنصوص إسلامية؛ إذ توافقها من حيث المبدأ.

أ. ورد في إنجيل متى: "طوبى لصانعي السَّلام"[1]، وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«أَفْشُوا السَّلام بَينَكُمْ»**[2].

ب. ورد في إنجيل متى: "سمعتم أنه قيل: عينٌ بعين، وسنٌّ بسن، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً، ومَن سخَّرك ميلاً، فسر معه ميلين"[3]، وفي هذا النص نرى أن عيسى عليه السلام يدعو إلى دفع الشر ومقاومته بالإحسان إلى المسيء.

وأما في القرآن الكريم فنلاحظ الإقرار بمبدأ القصاص، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}**[4]، ولكن المطلع يرى من جهة أخرى أن الآية نفسها أشارت بعد ذكر القصاص إلى العفو والإحسان، كما أن النص القرآني قد رغَّب في آية أخرى بالعفو والإحسان، قال الله تعالى: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}**[5].

* * *

(1) الإصحاح: (5)، فقرة: (19).
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، رقم: (54).
(3) الإصحاح: (5)، فقرة: (28 - 29).
(4) سورة البقرة، الآية: (178).
(5) سورة فصلت، الآية: (34).

المبحث الرابع:
معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام

المعجزة: هي أمر ممكِنٌ عقلاً، خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، يجريه الله على يد مدَّعي النبوة لتصديقه في دعواه، فكأن الله سبحانه يقول: صدق عبدي فيما ادَّعى.

وقد أيَّد اللهُ رسلَه عليهم السلام بمعجزات؛ إذ خرقَ لهم نواميس الكون، فجعلَ النارَ برداً وسلاماً على إبراهيم، وأعطى نبيه موسى العصا واليد، وفلق له البحر، وشقَّ له الصخر وغير ذلك، وفي الإطار ذاته كانت لنبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام معجزات:

أولها: ولادته عليه السلام من غير أب؛ وهذا أمر خارق لقانون التناسل، كما جاء على لسان أمه مريم بنت عمران عليها السلام: **{أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا}**[1]، فبين لها الملَك جبريل عليه السلام أن هذا القانون من صُنع الله، يخرقه متى يشاء، **{قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ}**[2]، **{قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**[3].

ثانيها: أنه عليه السلام نطق وهو في المهد؛ فتكلم بكلام متوازن كما يتكلم الرجل الكامل في مرحلة الكهولة، قال الله تعالى: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ● قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ● وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ● وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ● وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}**[4].

ثالثها: صنع عليه السلام تمثالاً من الطين كهيئة الطير، فنفخ فيه فكان طائراً بإذن الله، وقيل كان ذلك الطائر على صورة الخفاش أو الوطواط، ذكر القرآن هذه المعجزة لنبي الله عيسى عليه السلام مرتين: المرة الأولى ذكرَها آيةً على صدقه عليه السلام حين أرسله الله إلى بني اسرائيل، قال الله تعالى: **{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}**[5]، والمرة الثانية ذُكِرت هذه المعجزة في مَعرِض ذكرِ النعم على المسيح عليه السلام وأمه، قال الله تعالى: **{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي}**[6].

وفي إطار معجزة خلق الطير لا بد من توضيح؛ فلا ينبغي أن يُفهَم من نسبة الخلق إلى عيسى عليه السلام أنه شارك الله سبحانه في الخلق؛ لأن معنى الخلق هو التقدير والتصوير على غير مثال سابق، وكانت معجزة المسيح عليه السلام الخلق على مثال سابق، وهذا هو معنى قول المسيح عليه السلام: **{أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ}**[7]، أي: أقدر وأصنع وأصوِّر مثل هيئة الطير، فالخلق إذا نُسب إلى الإنسان؛ فهو صنع وتقدير على مثال

(1) سورة مريم، الآية: (20).
(2) سورة مريم، الآية: (21).
(3) سورة آل عمران، الآية: (47).
(4) سورة مريم، الآية: (29 - 33).
(5) سورة آل عمران، الآية: (49).
(6) سورة المائدة، الآية: (110).
(7) سورة آل عمران، الآية: (49).

سابق، وإذا نُسب إلى الله تعالى؛ فهو الصنع والتقدير والإبداع على غير مثال سابق، فأصل الخلق لله تبارك وتعالى، فلذلك يقول الله تعالى: **{فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}**[1]، أي: المقدرين، وتتمة قول المسيح عليه السلام في الآية نفسها: **{فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}**[2]، يعطي دلالة بأن مصدر هذه القدرة هو الله الخالق، أيد بها رسوله، وما المسيح عليه السلام إلا عبدٌ لله، **{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}**[3].

والقول بناء على ما ذُكِر:

1. إن المسيح عيسى عليه السلام صَنع تمثالاً من الطين: فهو لم يوجِد الطين من العدم، والله سبحانه هو خالق الطين الذي هو مادة الطير.

2. إن المسيح عيسى عليه السلام صنع التمثال على هيئة الطير؛ فهو لم يبتكر شكله من عنده، والله هو خالق الهيئة والصورة.

3. إن المسيح عيسى عليه السلام إنما صنع ذلك بإذن الله؛ ولولا الإذن الإلهي لعيسى عليه السلام لما استطاع المسيح عيسى عليه السلام أن يخلق بعوضة، قال الله تعالى: **{لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}**[4].

4. إن النفخة التي نفخها المسيح عيسى عليه السلام في الطين كانت بإذن الله، فتحول بها الطين بإذن الله تعالى إلى طير، وهذا يعني أن الأمر كله متوقف على إذن الله تعالى خالق الروح وواهبها.

وقد جاءت هذه المعجزة في وقتٍ غرق الناسُ فيه في عالمِ المادةِ إلى حدٍ أوصلهم إلى إنكار عالم الروح، فكانت رسالة المسيح عليه السلام صيحة مدوية في عالم الماديات، وارتداداً إلى عالم الروح الذي به يسمو الإنسان، ومن هنا كان قول السيد المسيح عليه السلام: (ليس بالخبز وحدَهُ يَحيا الإنسانُ)[5].

رابعها: إحياء عيسى عليه السلام لعدد من الموتى بإذن الله: فالمحيي هو الله، والمباشِر للسبب هو عيسى عليه السلام بإذن الله، وهذا ما جاء على لسانه: **{وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}**[6]، وقد خاطب الله عيسى بقوله: **{وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}**[7].

وقد حدثتْ مثل هذه المعجزة -إحياء الموتى- على يد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}**[8].

(1) سورة المؤمنون، الآية: (14).
(2) سورة آل عمران، الآية: (49).
(3) سورة النساء، الآية: (172).
(4) سورة الحج، الآية: (73).
(5) إنجيل متى، الإصحاح: (4)، فقرة: (4).
(6) سورة آل عمران، الآية: (49).
(7) سورة المائدة، الآية: (110).
(8) سورة البقرة، الآية: (260).

كما أجرى الله إحياء الموتى على يدِ نبي الله موسى عليه السلام عندما أمرَ قومَه أن يذبحوا بقرة، وأمرهم أن يأخذوا جزءاً منها ويضربوا به المقتول ليخبر عن قاتله، قال الله تعالى: **{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى}**[1].

خامسها: كان نبي الله عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله: جاء في القرآن الكريم خطاب الله لعيسى عليه السلام: **{وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي}**[2]، كما تحدث عيسى عن نفسه فقال: **{وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ}**[3]، أي: أشفيهما وأصححهما[4].

وتعدَّدَت في الأكمه المعاني، فقال ابن عباس وقتادة: الأكمه هو الذي ولد أعمى، وقال الحسن والسدي: هو الأعمى، وقال عكرمة: هو الأعمش، وقال مجاهد: هو الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل[5].

وأما البرص؛ فهو داء جلدي مستعصٍ، وقد وَرَدَ أنه "ربما اجتمع عند عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً، مَن أطاقَ منهم أن يَبلغَه بلغَهُ، ومن لم يُطِق مشى إليهِ عيسى عليه السلام ، وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان"[6].

ويؤكد السيد المسيح عيسى عليه السلام على أن كل ما يجري على يديه من معجزات في إبراء المرضى وإحياء الموتى إنما مصدره الإذن الإلهي، كما أورد الله تعالى على لسانه عليه السلام في القرآن الكريم، قال الله تعالى: **{وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}**[7]، "وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك"[8].

سادسها: كان المسيح عيسى عليه السلام ينبئ أصحابه بطعامهم وشرابهم الذي يأكلونه أو يدَّخرونه في بيوتهم: وقد جاء على لسانه في القرآن الكريم: **{وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[9]، أي: برهاناً ودليلاً على صدق نبوتي، وأني رسول إليكم من رب العالمين، تأكيداً لما جاء في أول الآية: **{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}**[10].

وقد جرت مثل هذه المعجزة على يدي أخيه نبي الله يوسف عليه السلام؛ حيث أخبر عليه السلام صاحبيه في السجن: **{قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي}**[11]، وفي ذلك تأكيد من السيد المسيح عيسى عليه السلام على أن مصدر علمه في كل ذلك هو الوحي الإلهي.

(1) سورة البقرة، الآية: (73).
(2) سورة المائدة، الآية: (110).
(3) سورة آل عمران، الآية: (49).
(4) يقال: أَصَحَّ اللَّهُ تَعالَى فُلاناً وصَحَّحه: أَزالَ مَرَضَه. يُنظَر: أبو الفيض، تاج العروس، مصدر سابق، مادة: صحح، [529/6].
(5) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [40/2].
(6) يُنظَر: المصدر السابق نفسه، [40/2].
(7) سورة آل عمران، الآية: (49).
(8) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [40/2].
(9) سورة آل عمران، الآية: (49).
(10) سورة آل عمران، الآية: (49).
(11) سورة يوسف، الآية: (37).

سابعها: معجزة نزول المائدة من السماء على الحواريين: إن إنزال المائدة من السماء مما امتَنَّ اللهُ به على عبدهِ ورسولهِ عيسى عليه السلام، لما أجاب دعاءَه بنزولها، فأنزلها اللهُ آيةً ودلالةً ومعجزة باهرة وحجة قاطعة[1]، وفي القرآن الكريم سورة باسمها، وفيها قوله تعالى: **{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ● قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}**[2].

ومعنى سؤال الحواريين -كما روي عن السدي-: هل يطيعك ربك إن سألتَه أَن يُنَزِّلَ علينا مائدة من السماء؟ فكلمة "يستطيع" هنا أَتَتْ بمعنى يُطيع؛ كما تأتي كلمةُ استجاب بمعنى أجاب، وكذلك كلمة استطاع بمعنى أطاع[3].

ويذكر غير واحد من المفسرين أن سؤال الحواريين لم يكن عن شك في قدرة الله تعالى؛ لأنهم قالوا لعيسى قبل طلب المائدة: **{آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}**[4]، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **(كان الحواريون لا يشكُّون أن الله يقدر على إنزال مائدة، ولكن قالوا: هل تَسْتَطيعُ ربَّك)**[5] بالنصب، على تقدير محذوف: هل تستطيع أن تسألَ ربَّك؟ **{قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ● قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}**[6].

وقد استجاب الله دعاء عيسى عليه السلام، وأنزل مائدة من السماء على بني إسرائيل، وتذكر الروايات أنه كان ينزل عليهم كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة، فيأكلون ما شاؤوا من ضروب شتى، وحشا الله فيها البركةَ، فكان يَقْعُدُ عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل اللهُ مكان ذلك لمثلهم، فلبثوا على ذلك ما شاء الله عز وجل[7].

وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم[8].

وبالرجوع إلى نصوص الكتاب المقدس نجد أن معجزة المائدة لم تكن بإنزال مائدة من السماء، بل بتكثير الطعام، حيث أكل خمسة آلاف إنسان من خمسة أرغفة وسمكتين،[9] كما يذكر ذلك إنجيل متى "ولمّا رجع الرسل

---

(1) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [225/3].
(2) سورة المائدة، الآية: (112 - 113).
(3) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [361/4].
(4) سورة المائدة، الآية: (111).
(5) وكذا (تَسْتَطيع ربَّك) روي عن معاذ بن جبل، وسعيد بن جبير. يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [219/11]، والقرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [362/4].
(6) سورة المائدة، الآية: (114 - 115).
(7) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [227/3].
(8) يُنظَر: المصدر السابق نفسه، [225/3].
(9) https://www.linga.org/varities-articles/Nzk0NQ تاريخ الزيارة 2023/6/9م

أخبروه بجميع ما فعلوا فأخذهم وانصرف منفردًا إلى موضع خلاء لمدينة تسمى بَيْتَ صَيْدَا. * فالجموع إذ عَلِمُوا تَبِعُوهُ، فَقَبِلَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ عَنْ مَلَكُوتِ اللهِ، والمحتاجون الى الشفاء شفاهم. * فابتدأ النهار يميل. فتقدم الاثنا عشر وقالوا له: اصرِفِ الجمع ليذهبوا الى القرى والضياع حوالينا فيبيتوا ويجدوا طعامًا لأننا ههنا في موضع خلاء. * فقال لهم: أعطوهم أنتم ليأكلوا. فقالوا: ليس عندنا أكثر مِن خمسة أرغفة وسمكتين إلّا أن نذهب ونبتاع طعامًا لهذا الشعب كله. * لأنهم كانوا نحو خمسة آلاف رجل. فقال لِتَلاَمِيذِهِ: أَتْكِئُوهُمْ فِرَقًا خمسين خمسين. * ففعلوا هكذا وأَتْكَأُوا الجميع. * فأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وباركهُنَّ ثم كسر وأعطى التلاميذ ليقدِّموا للجمع. * فأكلوا وشبعوا جميعًا. ثُمَّ رُفِعَ مَا فَضَلَ عَنْهُمْ مِنَ الكِسَرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ قُفَّة"[1]

***

(1) إنجيل متى، الإصحاح: (14)، فقرة: (10-17).

المبحث الخامس:
رفعُ عيسى عليه السلام إلى السماء

يقول الله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ● إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[1].

ويقول تعالى عن الذين مكروا بنبي الله عيسى وأمه مريم عليه السلام: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ● وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ● بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ● وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}[2].

فقد مكَرَ أعداء الأنبياء بنبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام، وقرروا قتله والتخلُّص منه، وقد خانه أحدُ تلامذته، واسمه يهوذا الإسخريوطي[3]، وجاء بجند الرومان، ودخل عليه، فلم يجده، ووجد تلامذته نياماً، فسألهم: أين يسوع؟ قالوا: أنت هو! ذلك أن الله ألقى شبَه عيسى عليه، فصار كأنه هو، ودخل الجند؛ ليلقوا القبض على المسيح، فلم يجدوا يهوذا! فنادوا: أين يهوذا؟ فأجابهم أنا يهوذا! فقالوا: بل أنت المسيح، وأخذوه، وصلبوه، ثم قتلوه[4]، والحقُّ ما قاله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}[5].

ونشير هنا إلى أن نصوص الكتاب المقدس تَذكر أن عيسى قد قُتِل وصُلِبَ، ثم رُفِعَ إلى السماء بعد موته، ولسنا بصدد تفصيل هذه المسألة في الأناجيل، لكن الذي ينبغي أن نقف عنده أن عدداً من علماء المسلمين يقولون: إن عيسى ابن مريم قد مات فعلاً، ويستدلون بقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ}[6]، وأن الرفع المذكور كان للروح دون الجسد، أو هو لرفعة المكانة والمنزلة، ويفسر أصحاب هذا الاتجاه قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}[7]، أي: مميتك، ذكر ذلك من المفسرين المعاصرين مصطفى المراغي[8] في تفسيره[9].

لكن جمهور العلماء يرون أن الله سبحانه وتعالى قد رفع عيسى عليه السلام جسداً وروحاً، ونجَّاه من مكر الماكرين، ويستدلون على ذلك بما يأتي:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: (54 - 55).
(2) سورة النساء، الآية: (156 - 159).
(3) وفي الأخبار أن يهوذا الإسخريوطي أحد أصحاب المسيح، وكان قد ضل ونافق، هو الذي وشى بعيسى عليه السلام، وهو الذي ألقى الله عليه شبه عيسى، وأنه الذي صُلب، وهذا أصله في إنجيل برنابا أحد تلاميذ الحواريين. يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [21/6].
(4) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [574/1].
(5) سورة النساء، الآية: (157).
(6) سورة الأنبياء، الآية: (34).
(7) سورة آل عمران، الآية: (55).
(8) المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي، مفسر مصري، تخرج بدار العلوم سنة 1909م، وتوفي بالقاهرة عام 1952م. من كتبه: تفسير المراغي. يُنظَر: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الأعلام، مصدر سابق، [258/1].
(9) يُنظَر: المراغي، أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، [15/6].

1. لقد جاء قول الله تعالى: **{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}**[1] في سياق الآيات التي تحدثت عن المسيح عليه السلام، وأيضاً بعد قول الله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام: **{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}**[2]، ليدل على أنهم هموا بقتلهِ بمكرهم، وأن اللهَ قد نجَّاه من مكرهم، فلم ينالوا منه سوءاً، ونظير ذلك قولُه تعالى لنبيه محمد ﷺ عن حادثة الهجرة: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}**[3]، فكان المكر الإلهي بإنجاء عيسى عليه السلام برفعه جسداً وروحاً، وبإنجاء نبيه محمد ﷺ من أيدي الماكرين الكافرين[4].

2. وأما معنى جملة: **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}** في اللغة؛ فإن التوفِّي في أصل اللغة هو استيفاء الشيء كاملاً غير منقوص[5]، ومنه قوله تعالى: **{إِنَّما يُوفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ}**[6]، وقوله تعالى: **{وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ}**[7]، وحسب التفسير اللغوي هذا يكون معنى قوله تعالى: **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}**، أي: آخذك أخذاً كاملاً جسداً وروحاً، وبناء على هذا المعنى فإن قوله تعالى: **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}**[8] فيه تقديم وتأخير، وحرف العطف الواو فيه لا يفيد تقديم الرتبة، بمعنى؛ تقديم الوفاة على الرفع، بل إن معنى قوله تعالى للمسيح عليه السلام: **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}** أي: إني عاصمك من القتل، وإنك ستموت موتاً طبيعياً، وتوافقاً مع النصوص الصحاح؛ أن ذلك سيكون بعد نزوله عليه السلام في آخر الزمان، على ما سيأتي بيانه[9].

وينتقد الإمام القرطبي قول القائل بموت المسيح عليه السلام على الأرض قبل رفعه، فيقول: "قيل: هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه، أي: رفعه، وليس بشيء"، ويُفسر قولَ المسيح عليه السلام: **{فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}**[10] بالرفع، أي؛ فلما رفعتني إلى السماء[11]، ويعلل تفسيره هذا بقوله: "لأن الأخبار تظاهرت برفعه عليه السلام، وأنه في السماء حي، وأنه عليه السلام ينزل، ويقتل الدجال"[12].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: (54).
(2) سورة آل عمران، الآية: (52).
(3) سورة الأنفال، الآية: (30).
(4) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [454/6].
(5) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: وفي، [398/15].
(6) سورة الزمر، الآية: (10).
(7) سورة هود، الآية: (109).
(8) سورة آل عمران، الآية: (55).
(9) يُنظَر: ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، مصدر سابق، [269/5]، والبيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مصدر سابق، [45/2]، وغيرهما.
(10) سورة المائدة، الآية: (117).
(11) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [376/6]، ويورد القرطبي في تفسيره قول الحسن البصري مستدلاً به على ما ذهب إليه بقوله: "قال الحسن: الوفاة في كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه: وفاة الموت؛ وذلك قوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: 42]، يعني: وقت انقضاء أجلها. ووفاة النوم؛ قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام: 60]، يعني: الذي ينيمكم. ووفاة الرفع؛ قال الله تعالى: {يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [آل عمران: 55]" ا.هـ.
(12) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [376/6].

3. إن سياق النص القرآني في قوله تعالى: **{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ● بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}**[1]، لا يسمح بتفسير الرفع على أنه رفعة المكانة والمنزلة؛ إذ إن المعنى يصير كقول القائل: لست جائعاً، بل أنا دارس، وهذا قول غير صحيح؛ لأن (بل) تأتي للإضراب، وهو يعني نفي ما قبلها وإثبات ما بعدها[2]، فالصحيح أن يقال: لست جائعاً، بل أنا شبعان، وبهذا يصير معنى الآية: وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه من غير قتل.

يضاف إلى ذلك ما نُشِر حول اكتشاف عدد من المخطوطات الضائعة من مكتبة الإسكندرية كانت لنجع حمادي، وعثروا فيما عثروا على أناجيل مكتوبة بالقبطية، كانت قد دفنَت يوم أصدرت روما في القرن الرابع الميلادي أمرها بإحراق الأناجيل غير الأربعة، وقد جاء في الأناجيل القبطية المكتشفة: "جاء على لسان بطرس: إن الذي رأيته سعيداً يضحك هو يسوعُ الحيُّ، لكن من يدخلون المسامير في يديه وقدميه فهو البديل، فقد وضعوا العار على الشبيه"، وورد فيها أيضاً على لسان المسيح: "كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، وكنت أنا في العلاء أضحك لجهلهم"[3].

وبهذا المبحث ينتهي إيراد حياة عيسى عليه السلام ليقف البحث على عدد من القيم الإنسانيَّة فيها.

(1) سورة النساء، الآية: (157 - 158).

(2) يُنظَر: ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني المَوصِليّ النحوي (1972)، اللّمع في العربية، دار الكتب الثقافية، (ص: 93)، وفي ابن السراج: أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، الأصول في النحو، بيروت، الطبعة الثالثة، (1988م): (ما يقع بعد "بل" يقين)، [58/2].

(3) يُنظَر: مجلة "المجلة"، لندن، في عددها الصادر بتاريخ: (1993/10/9م)، برقم: (712).

الفصـل الثانــي:
القيم الإنسانيَّة في حياة عيسى عليه السلام

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: قيمة تربية الإنسان.
- المبحث الثاني: قيمة حفظ الأعراض.
- المبحث الثالث: قيمة حياة الإنسان والحفاظ على صحته.
- المبحث الرابع: قيمة إطعام الجائعين.
- المبحث الخامس: قيمة السَّلام.

المبحث الأول:
قيمة تربية الإنسان

برزت قيمة تربية الإنسان في بيت آل عمران، فلقد كَانَت امرأة عِمْرَانُ مِنْ أَتْقَى النِّسَاءِ وَأَحْسَنِهِنَّ خُلُقًا، فبعد حملها بأيام مَاتَ عنها زَوْجُهَا عِمْرَانُ، فَصَبَرَتْ عَلَى فَقْدِهِ، وَعَزَمتْ على أن يكون بيتها حصناً للقيم قبل أن يخرج مولودها من بطنها، **{إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**[1]، فكافأها اللَّهُ تَعَالَى على صِدْق نيتها، وَعَظِيم إِخْلَاصِهَا، فَوَهَبَهَا خَيْرَ النِّسَاءِ؛ مَرْيَمَ أُمَّ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلام، **{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ● فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}**[2]، وَهَيَّأَت لَهَا البِيئَةَ التربوية فِي كَفَالَةِ زَوْج خَالَتِهَا زَكَرِيَّا عليه السلام **{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}**[3]، فَاقْتَبَسَتْ مِنْهُ عِلْمًا نَافِعًا، وأخلاقاً فاضلة، فصارت صِدِّيقَةً قَانِتَةً، عفيفة طاهرة، فاستحقت ثناء ربها بقوله: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}**[4]، وصارت محصنة بالقيم الإيمانية والأخلاقية، حتى قالت لها ملائكة الله: **{يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}**[5].

ويلاحظ أن زكريا عليه السلام قد كفل مريم بدلاً عن أبيها الذي مات قبل أن تولد مريم، ليتكامل دور الرجل والمرأة في تربية الإنسان! ولما رأى ثمار هذه التربية الصالحة دعا ربه ليهبه الذرية الصالحة، **{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}**[6]، وذكر في دعائه أن تكون مكارم الأخلاق في ذريته فقال: **{فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ● يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}**[7]، فاستجاب الله دعاءَه، فوهبه يحيى عليه السلام، **{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}**[8]، وحملت الملائكة له البشارة: **{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}**[9]، فقام بتنشئته في بيئة تربوية مماثلة للبيئة التي تربَّت فيها مريم، فشهد الله له بقوله: **{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ● وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ● وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ● وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}**[10].

* * *

(1) سورة آل عمران، الآية: (35).
(2) سورة آل عمران، الآية: (36 - 37).
(3) سورة آل عمران، الآية: (37).
(4) سورة التحريم، الآية: (12).
(5) سورة آل عمران، الآية: (42).
(6) سورة آل عمران، الآية: (38).
(7) سورة مريم، الآية: (5 - 6).
(8) سورة مريم، الآية: (7).
(9) سورة آل عمران، الآية: (39).
(10) سورة مريم، الآية: (12 - 15).

المبحـث الثانـي:
قيمة حفظ الأعراض

إن حفظ الأعراض من المقاصد الكبرى للشرائع السَّماويَّة، وقد برزَت هذه القيمة في التحديات التي تعرضت لها مريم بنت عمران عليها السلام؛ حيث شهد الله سبحانه بطهرها وبراءتها، فقال: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}**[1]، فقد عُرِفَتْ مريم عليها السَّلام بين قومها بالعابدة التقية الطاهرة، وشاء الله سبحانه أن يخلق عيسى عليه السلام في رحمها بمعجزة، فتعرَّضَت لمحنة أمام القوم، ونالت الألسنةُ من طهرها، ووجَّهتْ لها الاتهامات والافتراءات دون أن يسمع أحدٌ منها ما حدث لها، **{قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ● يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}**[2].

وعلى الرغم من أن الظواهر تدل على إدانتها؛ إذ إنها تحمل وليدها على يديها، وهي ليست بذات زوج، فإن اللهَ برأها على لسان وليدها؛ إذ قال: **{وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}**[3]، وفي ذلك تعزيز لقيمة حفظ الأعراض؛ إذ يجب على الإنسان أن يُحسِن الظن بالناس، فلا يتهم أحداً في عِرضِه وشرفِه، ولا يشيع الاتهام لمجرَّد أنه ورد على ألسنة الناس، قال الله تعالى: **{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ}**[4]، وقد أمر الله سبحانه بالتثبت قبل النطق بالحكم، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}**[5]، والتبين من النبأ أو التحقق من الخبر مطلَب أخلاقي إسلامي غفل عنه كثيرٌ من الناس؛ إذ تراهم يشيعون السوء، ويرددون الخبر مدعين أنهم شاهدوا الحدث أو سمعوا من ثقة، ولو تتبَّعتَ حبل السماع لوجدتَه لا يَمُتُّ إلى الحقيقةِ بِصِلة! وأنه لا يعدو أن يكون إشباعاً لغريزة قال عنها رسولُ الله ﷺ: **«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»**[6]، أو حباً لشيوع خبر الفاحشة والسوء بين الناس، وقد قال الله تعالى مهدداً هذا الصنف من الناس: **{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}**[7].

وهناك قاعدة تقول: "بين الحق والباطل أربع أصابع، الحق أن تقول: رأيت، والباطل أن تقول: سمعت"؛ فلذلك كان قوله ﷺ: **«كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»**[8]، وكم من إنسان يُري نفسَه ما لم يَرَ، ويدَّعي أنه شَهِد ولم يَشهَد، ويقول: إن الذي أخبرني ثقةٌ، فإذا سألتَه عن اسمهِ تبيَّن أنه مجهول، فبئسَ المُوَثِّق وبئس المُوثَّق عنه!

---

(1) سورة التحريم، الآية: (12).
(2) سورة مريم، الآية: (27 - 28).
(3) سورة مريم، الآية: (32).
(4) سورة النور، الآية: (12).
(5) سورة الحجرات، الآية: (6).
(6) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب الزهد، باب: بابٌ، رقم: (2317) وقال: "هذا حديث غريب"، وابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، رقم: (3976).
(7) سورة النور، الآية: (19).
(8) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، مقدمة صحيح الإمام مسلم، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم: (5).

وإن الأحكام الشرعية تقوم على حُسنِ الظنِّ بالناس، وحملِ حالِهم على الصلاح، وقد ورد في الخبر: **«وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ»**[1]، فمن قذف إنساناً واتَّهمَهُ في عرضِهِ، ثم تبيَّن أن المُتَّهَم بريءٌ، فللقاضي أن يُوقِعَ على القاذفِ عقوبةً شرعيةً مقدارها ثمانون جلدة!

ويُضاف إلى ذلك سقوطُ عدالتهِ، وعدم قبول شهادتهِ في المسائل الشرعية والقضائية، قال تعالى: **{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}**[2]، وإن هذا التشريع يهدف إلى مقصد من المقاصد الكبرى للشرائع السَّماويَّة، وهو حفظ الأعراض.

* * *

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، [213/10]، جزء من حديث ذكره ابن حجر في باب الطيرة، وعزاه إلى عبد الرزاق، وقال عنه: "هذا مرسل، أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه البيهقي في الشُّعب"، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، مصدر سابق، [228/3]، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [78/8]: "رواه الطبراني، وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري، وهو ضعيف".

(2) سورة النور، الآية: (4).

المبحث الثالث:
قيمة حياة الإنسان، والحفاظ على صحته

إن حياة الإنسان مقدسة في جميع الشرائع السَّماويَّة، وقد بُعث نبي الله عيسى عليه السلام مصدقاً بشريعة نبي الله موسى عليه السلام، كما أثبتَ ذلك القرآن الكريم في مواضع متعددة، ومنها: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**[1]، وقد جاءت تعاليمُ السيد المسيح عليه السلام تحثُّ على العمل بشريعةِ موسى ووصاياه، كما جاء في الكتاب المقدَّس: "وَإِنَّمَا ٱحْرِصُوا جِدًّا أَنْ تَعْمَلُوا ٱلْوَصِيَّةَ وَٱلشَّرِيعَةَ ٱلَّتِي أَمَرَكُمْ بِهَا مُوسَى عَبْدُ ٱلرَّبِّ: أَنْ تُحِبُّوا ٱلرَّبَّ إِلَهَكُمْ، وَتَسِيرُوا فِي كُلِّ طُرُقِهِ، وَتَحْفَظُوا وَصَايَاهُ، وَتَلْصَقُوا بِهِ وَتَعْبُدُوهُ بِكُلِّ قَلْبِكُمْ وَبِكُلِّ نَفْسِكُمْ"[2].

وقد تضمَّنَت شريعةُ موسى عليه السلام ووصاياه أحكاماً لحفظِ النفس وتقديس حياة الإنسان، ومنها ما ذكره القرآنُ الكريم: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}**[3].

وفي إنجيل متى وعيد بحق من اعتدى على حياة الإنسان بالمصير إلى جهنم: "وَلَا تَخَافُوا مِنَ ٱلَّذِينَ يَقْتُلُونَ ٱلْجَسَدَ وَلَكِنَّ ٱلنَّفْسَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِٱلْحَرِيِّ مِنَ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ ٱلنَّفْسَ وَٱلْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ"[4].

فللنفس الإنسانيَّة قيمةٌ خالدةٌ في تعاليم الكتاب المقدَّس، ففي سِفْر التثنية نصٌّ صريح في تحريم قتل الإنسان لأخيه الإنسان، "لا تقتل"[5]، وفي إنجيل يوحنا نصٌّ واضحٌ يعتبر بغض الإنسان للإنسان بمثابة قتله! وأن القاتل سيحرم من الخلود الأبدي في النعيم، "كُلُّ مَنْ يُبْغِضُ أَخَاهُ فَهُوَ قَاتِلُ نَفْسٍ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ قَاتِلِ نَفْسٍ لَيْسَ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ"[6].

وتبرز قيمة حفظ النفس -أيضاً- في سيرة السيد المسيح عليه السلام في حرصه على مداواته للمرضى ليتمتعوا بحياة أفضل، كما ذكر ذلك القرآن الكريم على لسانه: **{وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}**[7].

* * *

(1) سورة الصف، الآية: (6).
(2) إنجيل يشوع، الإصحاح: (5)، فقرة: (22).
(3) سورة المائدة، الآية: (32).
(4) إنجيل متى، الإصحاح: (10)، فقرة: (28).
(5) سفر التثنية، الإصحاح: (5)، فقرة: (17).
(6) إنجيل يوحنا، الإصحاح: (3)، فقرة: (15).
(7) سورة آل عمران، الآية: (49).

المبحث الرابع:
قيمة إطعام الجائعين

برزت قيمة إطعام الجائعين في معجزة المائدة من السماء؛ حيث تذكر الروايات أن عيسى عليه السلام لما دعا ربه بإنزال المائدة استجاب الله له، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة، فيأكلون ما شاؤوا من ضروب شتى! وحشا الله فيها البركة، فكان يَقْعُدُ عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم، فلبثوا على ذلك ما شاء الله عز وجل[1].

وبوسع القارئ أن يتصور حجم الجائعين الذين يأكلون على مائدة عيسى عليه السلام!

ويشير إنجيل لوقا إلى إطعام الطعام على مائدة السيد المسيح عليه السلام وما فيها من البركة فيقول: "فَأَخَذَ ٱلْأَرْغِفَةَ ٱلْخَمْسَةَ وَٱلسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ وَبَارَكَهُنَّ، ثُمَّ كَسَّرَ وَأَعْطَى ٱلتَّلَامِيذَ لِيُقَدِّمُوا لِلْجَمْعِ، فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رُفِعَ مَا فَضَلَ عَنْهُمْ مِنَ ٱلْكِسَرِ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ قُفَّةً"[2].

ويحثُّ الكتابُ المقدَّس على قيمة إطعام الطعام، ومن ذلك ما جاء في سفر المزامير: "لِأَنَّهُ أَشْبَعَ نَفْسًا مُشْتَهِيَةً وَمَلَأَ نَفْسًا جَائِعَةً خَيْرًا"[3].

وهذه القيمة عززها القرآن الكريم ممتدحاً مَن يضعون اللقمة في فم الجائعين بقوله سبحانه: **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ● إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ● إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ● فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ● وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا}**[4].

ويعدل إطعام الطعام للمحتاجين ثواب حرية الإنسان من الاستعباد! كما يذكر ذلك قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ● فَكُّ رَقَبَةٍ ● أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ● يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ● أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}**[5]، ووعد النبي الكريم ﷺ مَن يُطعِم الطعامَ بدخول الجنة، فقال في أول خطبةٍ خطبها عند وصوله المدينة: **«أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»**[6].

بل إن القرآن الكريم ذم الذين يهملون الجائعين، وقرنهم بالمكذبين بالدين! وذلك في قوله تعالى: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ● فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ● وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}**[7].

ويحث النبي ﷺ على أولوية إطعام الجيران الجائعين فيقول: **«مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»**[8].

* * *

(1) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [227/3].
(2) إنجيل لوقا، الإصحاح: (9)، فقرة: (16 - 17).
(3) سفر المزامير، الإصحاح: (9)، فقرة: (107).
(4) سورة الإنسان، الآية: (8 - 12).
(5) سورة البلد، الآية: (12 - 16).
(6) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: بابٌ، رقم: (2485)، وقال: "هذا حديث صحيح"، وابن ماجه، كتاب: الأطعمة، باب: إطعام الطعام، رقم: (3251).
(7) سورة الماعون، الآية: (1 - 3).
(8) أخرجه الطبراني، في المعجم الكبير، مصدر سابق، [259/1]، رقم: (751)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [167/8]: "رواه الطبراني والبزار، وإسناد البزار حسن"، ولم أجده عند البزار.

المبحث الخامس:
قيمـــة السَّـــلام

يُؤكِّد القرآنُ الكريم على أنَّ عيسى عليه السلام بُعِثَ بالسَّلام منذ ولادتهِ، فحين نطق في المهد صبياً ختم كلامه بقوله: **{وَالسَّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ● ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}**[1].

وإن قيمة السَّلام طافحة نصوصها في العهد الجديد، فاسم السَّلام من صفات الله في الإنجيل، وفي رسالة بولس إلى أهل رومية يقول: "إلهُ السَّلام مَعكُمْ أَجمَعِين"[2].

وأكَّدَ أنَّ إلهَ السَّلام سيهزمُ الشيطان، فيقول: "إلهُ السَّلام سَيَسْحَقُ الشَّيطانَ تحتَ أرجُلِكم سَريعاً"[3].

وفي إنجيل لوقا ينص على تحقيق السَّلام في الأرض، فيقول: "المجدُ للهِ في الأعالي، وعلى الأرضِ السَّلام، وبالنَّاس المسرّة"[4].

ويذكر في أعمال الرسل ما يؤكد على أن عيسى بعث برسالة السَّلام: "الكلمة الّتي أرسلها إلى بني إسرائيل يبشّر بالسَّلام بيسوع المسيح"[5].

وفي رسالة بولس إلى أهل رومية: "ما أجملَ أقدام المبشّرين بالسَّلام، المبشّرين بالخيرات"[6]. وفي هذا السِّفْر نفسهِ يَصِفُ ملكوتَ الله بالسَّلام، فيقول: "لا تهلك بطعامك ذلك الّذي مات المسيح لأجله، فلا يفتر على صلاحكم؛ لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشربًا، بل هو برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الرّوح القدس"[7].

وتعدَّدَت النصوصُ الإنجيلية التي تُوصِي بالسَّلام، كما في إنجيل مرقس الوصية بالسَّلام من قِبَل يسوع لتلاميذه، فقال: "الملح جيّدٌ، ولكن إذا صارَ الملح بلا ملوحةٍ، فبماذا تصلحونه؟ ليكن لكم في أنفسكم ملحٌ، وسالموا بعضكم بعضاً"[8].

ويحث الرسول بولس المؤمنين على السَّلام، فيقول في رسالته إلى أهل كورنثوس الثانية: "أخيرًا -أيّها الإخوة- افرحوا، اكملوا، تعزّوا، اهتمّوا اهتمامًا واحدًا، عيشوا بالسَّلام، وإله المحبّة والسَّلام سيكون معكم"[9]. وكذلك يقول في رسالته إلى أهل روما: "إن كان ممكنًا فحسب طاقتكم سالموا جميع النّاس"[10]. ويقول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: "ولكنَّ اللهَ قد دَعانا في السَّلام"[11].

والسَّلام هو التحيةُ بين الناس، كما يذكر إنجيل متى: "وحين تدخلون البيت سلّموا عليه، فإن كان البيت مستحقًّا، فليأتِ سلامُكم عليه، ولكن إن لم يَكن مستحقًّا،

(1) سورة مريم، الآية: (33 - 34).
(2) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [15: 33].
(3) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [16: 20].
(4) إنجيل لوقا، الإصحاح: (2)، فقرة: (14).
(5) سفر أعمال الرسل، الإصحاح: (10)، فقرة: (36).
(6) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [10: 15].
(7) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [14: 15 - 18].
(8) إنجيل مرقس، الإصحاح: (9)، فقرة: (50).
(9) رسالة بولس الرّسول الثّانية إلى أهل كورنثوس، [13: 11].
(10) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [12: 18].
(11) رسالة بولس الرّسول الأولى إلى أهل كورنثوس، [7: 15].

فليرجع سلامكم إليكم"[1]، وكانت تحية يسوع لتلامذته: "سلام لكم"[2]، وقبل أن يفارقهم باركهم قائلاً: "سلامًا أترك لكم سلامي، أعطيكم ليس كما يعطي العالم، أعطيكم أنا"[3]، وكثيراً ما كان يقول: "اذهب بسلام"، فها هو في مرقس يقول: "فقال لها: يا ابنة، إيمانك قد شفاك، اذهبي بسلامٍ وكوني صحيحةً من دائك"[4]، وفي إنجيل لوقا: "فقال للمرأة: إيمانك قد خلّصك، اذهبي بسلامٍ"[5].

والسَّلام من القيم المشتركة بين الأنبياء كما ذكرها القرآن الكريم مقرونة بعدد من المرسلين في سورة الصافات: **{سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ}**[6]، **{سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}**[7]، **{سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}**[8]، **{سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ}**[9]، **{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ● وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[10].

* * *

(1) إنجيل متى، الإصحاح: (10)، فقرة: (12 - 14).
(2) إنجيل لوقا، الإصحاح: (24)، فقرة: (36).
(3) إنجيل يوحنا، الإصحاح: (14)، فقرة: (27).
(4) إنجيل مرقس، الإصحاح: (5)، فقرة: (34).
(5) إنجيل لوقا، الإصحاح: (7)، فقرة: (50).
(6) سورة الصافات، الآية: (79).
(7) سورة الصافات، الآية: (109).
(8) سورة الصافات، الآية: (120).
(9) سورة الصافات، الآية: (130).
(10) سورة الصافات، الآية: (181 - 182).

إن ما تضمَّنَته حياةُ نبي الله عيسى عليه السلام ورسالته السَّماويَّة مِن قِيَم تتفق تماماً مع ما جاء في تعاليم نبي الله موسى عليه السلام وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم؛ حيث برزت قيمة تربية الإنسان في بيت آل عمران، كما تأكدَت قيمة حفظ الأعراض بكونها من المقاصد الكبرى للشرائع السَّماويَّة.

البَاب الثّالث:

القِيَمُ الإِنْسَانِيَّة فِي رِسَالَة خَاتم الأَنبِيَاء مُحَمّد بن عَبدِ اللّه ﷺ مِن خِلال القُرْآن الكَرِيم ومُقارَنَتِها بِالقِيَمِ الإِنْسَانِيَّة فِي الكِتَاب المُقَدَّس

الفصـل الأول:
معالم سيرة خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ في القرآن الكريم

وفيه أربعة مباحث:

- المبحـث الأول: التعريـف بمحمـد ﷺ من خـلال القـرآن الكريـم.
- المبحـث الثانـي: معنى شهـادة أن محمـداً رسـول الله.
- المبحـث الثالث: الوظائـف الأساسيـة لرسالـة سيدنـا محمـد ﷺ.
- المبحـث الرابـع: مواقـف قريـش من رسالـة سيدنـا محمـد ﷺ، وحكمتـه ﷺ في التعامـل معهـا.

المبحث الأول:
التعريف بمحمد ﷺ من خلال القرآن الكريم

أولاً: النسب النبوي الشريف

محمد رسول الله ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب[1] بن هاشم[2] بن عبد مناف بن قصي[3] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[4] بن مالك بن النضر بن كنانة[5] بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. هكذا أورده البخاري في المناقب[6].

وعدنان: هو الجد العشرون في سلسلة النسب النبوي، وإليه نُسِب العرب العدنانية، وينتهي نسبه إلى إسماعيل النبي عليه السلام ابن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، يقول ابن عباس: "بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرَفون"[7].

يقول رسول الله ﷺ عن هذا النسب الشريف: **«إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»**[8].

وبين قريش –فهر، الجد العاشر– وكنانة -الجد الثالث عشر- جدان، هما: مالك -الجد الحادي عشر-، والنضر -الجد الثاني عشر-.

وقد طهر الله سبحانه النسب الشريف للنبي الكريم ﷺ من السفاح والحرام، كما يدل عليه قول الله تعالى: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ● الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ● وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}**[9]، المقصود بقوله تعالى: **{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}**، أي: تقلبك في أصلاب الأنبياء، والآباء المؤمنين، يقلبك من صلب نبي إلى صلب نبي؛ حتى أخرجك من ذرية إسماعيل عليه السلام، قال ابن عجيبة: "والحاصل: أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين في الجملة، ولا يقتضي ذلك كل فرد من الأفراد"[10]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: **{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}**، قال: (ما زال النبيُّ ﷺ يتقلَّبُ في أصلابِ الأنبياءِ حتى وَلدتْهُ أمُّه)[11].

---

(1) **عبد المطلب:** الجد المباشر في سلسلة النسب النبوي، وإنما سمي: "شيبة الحمد" لأنه ولد وفي رأسه شيبة، وقيل له: "عبد المطلب"؛ لأن عمه المطلب لما جاء به صغيراً من المدينة أردفه خلفه، فقيل: عبد المطلب، فقال المطلب: ويحكم! إنما هو شيبة ابن أخي هاشم! لكن غلب عليه الوصف المذكور فقيل له: عبد المطلب، عاش مائة وأربعين سنة، وكان ممن حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وكان مجاب الدعوة، رفض عبادة الأصنام، وكان يقال له: الفياض؛ لجوده. يُنظَر: أبو الفرج، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، مصدر سابق، [4/1].

(2) **هاشم:** الجد الثاني في سلسلة النسب النبوي، اسمه عمرو، ولقب هاشماً لأنه هشم الخبز، ونحر الجزور، وصنع ثريداً لأهل مكة في يوم مجاعة، وكان يقال له: سيد البطحاء، وفي آخر حياته خرج بتجارة إلى الشام، ومات بغزة. يُنظَر: أبو الفرج، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، مصدر سابق، [6/1].

(3) **قصي:** الجد الرابع في سلسلة النسب النبوي، اسمه: زيد، ويلقب بقصي لأنه ابتعد عن عشيرته، وأقام في قضاعة مع أمه منذ طفولته، عاد إلى مكة، وقد آلت به ولاية مكة إلى قريش، وكان عظيم الشأن، مطاعاً في قومه، أمرُه كالدِّين المتَّبَع. يُنظَر: أبو الفرج، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، مصدر سابق، [7/1].

(4) **فهر:** الجد العاشر في سلسلة النسب النبوي، فهر بن مالك، يلقب بقريش؛ لأنه به اجتمعت قريش بعد تفرق، فمن كان من ولده فهو قرشي. قال الزبير بن بكار: أجمع النسابون من قريش وغيرهم على أن قريشاً إنما تفرقت عن فهر. يُنظَر: ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، (1375هـ - 1955م)، [78/1]، وكذلك: أبو الفرج، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، مصدر سابق، [16/1].

(5) **كنانة:** الجد الثالث عشر في سلسلة النسب النبوي، كان شيخاً حسناً عظيم القدر، تحج إليه العرب لعلمه وفضله، وكان يقول: قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد، يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعزاً إلى عزكم، ولا تعتدوا - أي: تكذبوا ما جاء به - فهو الحق. يُنظَر: أبو الفرج، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، مصدر سابق، [16/1].

(6) ينظَر: البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: المناقب، باب: مبعث النبي ﷺ محمد بن عبد الله... وذكره.

(7) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [344/9].

(8) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجَر عليه قبل النبوة، رقم: (2276).

(9) سورة الشعراء، الآية: (217 - 219).

(10) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [297/5].

(11) السيوطي، عبد الرَّحمن بن أبي بكر، الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، [277/10].

ثانياً: تسمية الله نبيه محمداً بأشرف الأسماء

1. تسميته ﷺ في القرآن الكريم باسم (مُحمد):

في القرآن الكريم سورة باسم النبي (مُحمد ﷺ)، سماها الله ﷻ باسمه في كتابه الكريم، وقد ذكر هذا الاسم الشريف في أربعة مواضع من سور القرآن الكريم؛ في قوله تعالى: **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}**[1]، وقوله تعالى: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}**[2]، وقوله تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}**[3]، وقوله تعالى: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}**[4].

ويشير الإمام السيوطي في "الخصائص" إلى اشتقاق هذا الاسم الشريف من أسماء الله القدسية، في إشارة إلى قول شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت:

وشــق لــه مــن اسمــأه ليجلــه
فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

وعن ابن عباس ﷺ قال: (لما وُلِدَ النبيُّ ﷺ عَقَّ عنهُ جدُّهُ عبدُ المطلب بكبشٍ، وسمَّاهُ محمداً، فقيل له: يا أبا الحارث، ما حملك على أن سميته محمداً، ولم تسمِّه باسم آبائه؟ قال: أردتُ أن يحمده اللهُ في السماء، ويحمده الناس في الأرض)[5].

2. تسميته ﷺ في القرآن الكريم باسم (أحمد):

جاء ذكرُ هذا الاسم الشريف (أحمد) على لسان سيدنا عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}**[6].

وقد ذكر هذان الاسمان (محمد، وأحمد) في السُّنَّة الشريفة، في قوله ﷺ: **«لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ»**[7]، وفي رواية: **«وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»**[8].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: (144).
(2) سورة الأحزاب، الآية: (40).
(3) سورة محمد، الآية: (2).
(4) سورة الفتح، الآية: (29).
(5) السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر (ت: 911هـ)، الخصائص الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، (1405هـ - 1985م)، [133/1].
(6) سورة الصف، الآية: (6).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم: (3532)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ، رقم: (2354).
(8) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ، رقم: (2354).

3. تسميته ﷺ في القرآن الكريم باسم (طه):

قال الله تعالى: **{طه ● مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}**[1]، ذكر الخازن في تفسير كلمة (طه) أقوالاً، منها: معنى كلمة **{طه}**: يا رجل، والمراد به النبيّ ﷺ[2].

قال يحيى بن محمد العنبري[3]: "ولنبينا ﷺ خمسة أسماء في القرآن: محمد، وأحمد، وعبد الله، وطه، ويس. قال الله ﷻ في ذكر محمد ﷺ: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}**[4]، وقال: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**[5]، وقال الله ﷻ في ذكر عبد الله: **{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}**[6]، يعني النبي ﷺ ليلةَ الجن، وقال ﷻ: **{طه ● مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}**[7]، والقرآن إنما نزل على رسول الله ﷺ دون غيره، وقال ﷻ: **{يس ● وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ● إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}**[8]، و**{يس}** يعني: يا إنسان، والإنسان -هاهنا- العاقلُ، وهو محمد ﷺ"[9].

4. تسميته ﷺ في القرآن الكريم باسم (ياسين):

جاء هذا الاسم في القرآن الكريم في السورةِ نفسها التي سُمِّيَت باسمه (يس)، قال الله تعالى: **{يس ● وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ● إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}**[10]، وكما ذكر يحيى بن محمد العنبري: "**{يس}** يعني: يا إنسان، والإنسان -هاهنا- العاقل، وهو محمد ﷺ"[11]، وعن محمد ابن الحنفية[12] قال: "**{يس}** قال: محمد ﷺ"[13].

---

(1) سورة طه، الآية: (1 - 2).

(2) الخازن: علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [262/4].

(3) العنبري: أَبُو زَكَرِيَّا، يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدِ العَنْبَرِيُّ، الإِمَامُ، الثِّقَة، المفسّر، المُحَدِّث، الأَدِيْب، العَلاَّمَة النيسابوري المُعَدَّلْ، توفي سنة (344هـ). يُنظَر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، [533/15].

(4) سورة الفتح، الآية: (29).

(5) سورة الصف، الآية: (6).

(6) سورة الجن، الآية: (19).

(7) سورة طه، الآية: (1 - 2).

(8) سورة يس، الآية: (-1 3).

(9) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، (المتوفى: 458هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1405هـ)، [160/1].

(10) سورة يس، الآية: (-1 3).

(11) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، مصدر سابق، [160/1].

(12) **محمد ابن الحنفية:** السيد، الإمام، محمد بن علي بن أبي طالب ﷺ، (21 - 81هـ) المعروف بابن الحنفية، أخو الحسن والحسين، أمه من سبي اليمامة زمن أبي بكر الصديق ﷺ، وهي خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها تمييزاً له عنهما، كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون. مولده ووفاته في المدينة. يُنظَر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، [533/15]، وخير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الأعلام، مصدر سابق، [270/6].

(13) البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، مصدر سابق، [158/1].

5. تسميته ﷺ في القرآن الكريم باسم (عبد الله):
جاء اسمه ﷺ (عبد الله) في سورة الجن، عند الحديث عن لقائه ﷺ مع الجن في الحديث الذي ورد في الكتب الصحاح[1]، قال الله تعالى: **{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}**[2]، سمَّاهُ ربُّه ﷻ عبد الله، قال يحيى بن محمد العنبري: "قال الله ﷻ: **{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}**[3]، يعني النبي محمد ﷺ ليلة الجن"[4].

6. تسميته ﷺ في القرآن الكريم باسم (المدثر):
جاء اسم (المدثر) من أسماء رسول الله ﷺ في خطابه ﷻ لنبيه محمد ﷺ بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ● قُمْ فَأَنْذِرْ}**[5]، وقد أجمع العلماء على أن (المدثر) هو رسول الله ﷺ ، وإنما سماه المدثر لقوله ﷻ في بدء نزول الوحي: **«دَثِّرُونِي، دَثِّرُونِي»**[6]، فأنزل الله قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**، وفي تسمية الله له بهذا الاسم (المدثر) ملاطفة لحبيبه ﷺ في الخطاب؛ إذ ناداهُ بحاله؛ ليستشعِرَ اللطفَ من البارئ ﷻ[7].

7. تسميته ﷺ في القرآن الكريم باسم (المزمل):
جاء اسم (المزمل) من أسماء رسول الله ﷺ في خطابه ﷻ لنبيه محمد ﷺ في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ● قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}**[8] بذات السورة التي سمِّيَت أيضاً بهذا الاسم، وهو اسم مشتقٌّ من حاله ﷺ وقت ابتداء نزول الوحي عليه ﷺ، وفائدته الملاطفة، وترك العتاب، على عادة العرب إذا أرادوا ترك المعاتبة، ويلاحظ في الخطاب بهذا الاسم عنايته ﷻ بحبيبه ونبيه محمد ﷺ، وفيه -أيضاً- تنبيه لكل متزمل لقيام الليل، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ● قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}**[9].

---

(1) عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ! قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ! فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ! فَقَالَ: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ»). أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم: (450).
(2) سورة الجن، الآية: (19).
(3) سورة الجن، الآية: (19).
(4) سبق تخريجه في تسميته ﷺ (طه).
(5) سورة المدثر، الآية: (1-2).
(6) الخازن: علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [173/7]، وحديث: **«فأتيت خديجة فقلت: دثروني»** أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المدثر، رقم: (4638)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي، رقم: (257).
(7) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [61/19].
(8) سورة المزمل، الآية: (1-2).
(9) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [248/8].

ثالثاً: كمال صفات النبي ﷺ وأخلاقه

1. **وصف الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ في القرآن الكريم بأكمل الصفات:** في آية جامعة قال الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ● وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}**[1]، وهذه الصفات مطابقة لما جاء في التوراة، وهي: الشاهد، والمبشر، والنذير، والسراج المنير، فعن عطاء بن يسار رحمه الله قال: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ، قَالَ: **«أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ● وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}**[2]، **وحِرزاً لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»**[3].

2. **شهد الله تعالى لرسوله ﷺ بالخلق العظيم:** قال الله تعالى بحق نبيه ﷺ مخاطباً له: **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**[4]، بعد أن تمكن من الأخلاق، وأصبح ملكاً فيها، وقد تربع على عرشها.

تقول السيدة عائشة: **«مَا كانَ أحدٌ أحسَنَ خُلُقاً مِن رَسولِ اللهِ ﷺ: مَا دَعَاهُ أَحدٌ مِن أَصحابِه ولا مِنْ أهلِ بيتِه إلا قَال: لَبَّيكَ، ولذلِكَ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقِّهِ مُخاطِباً لَهُ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}»**[5].

وقد شهِدَ قومُه بعظيم أخلاقه ﷺ، وتذكر الروايات أن قريشاً لما أعادت بناء الكعبة، واختلفوا فيمَن ينال شرَفَ حملِ الحجر الأسود ليضعه في مكانه، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ فِيهِ، فَفَعَلُوا، فَكَانَ أَوّلَ دَاخِلٍ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ، فَلَمّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا، هَذَا مُحَمّدٌ"[6].

ولم تختلف شهادة عشيرته الأقربين ﷺ لَمَّا نَزَلَ عليه قوله تعالى: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}**[7]، وصَعِدَ النبي ﷺ على الصَّفَا واجتمعتْ إليه عشيرته، فقال: **«أَرَأَيْتَكُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»** قالوا: نَعَم، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا[8].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: (45 - 46).
(2) سورة الأحزاب، الآية: (45 - 46).
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: البيوع، باب: كراهية السخب في السوق، رقم: (2125).
(4) سورة القلم، الآية: (4).
(5) يُنظَر: الواحدي؛ أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، مصدر سابق، (ص: 404).
(6) ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، سيرة ابن هشام، مصدر سابق، [197/1].
(7) سورة الشعراء، الآية: (214).
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 215]، رقم: (4770).

ومن داخل بيته وخصوصيات حياته ﷺ جاءت شهادة زوجته خديجة بنت خويلد ﵂ حين نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارِ حِرَاءٍ؛ رَجَعَ إليها يَرْجُفُ فُؤَادُهُ وقال: **«أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي!»**، فَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: **«كَلَّا، أَبْشِرْ! فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ...»**[1].

ولم تختلف شهادة زوجته عائشة الصديقة ﵂ التي عاشت معه حتى لحق بالرفيق الأعلى؛ فعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ ﵂ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: **«كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}»**[2][3].

وأما الذين صحبوا النبي ﷺ فكانوا يصفونه فيقولون: **«بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، أَجْوَدُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ»**[4].

3. جعل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ القدوة المثل الكامل للبشرية: قال الله تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}**[5]، والأُسوة في معاجم اللغة هي القدوة المقتدى بها[6]، والآية خطاب لمجموع من أُرسل إليهم، ورسالته ﷺ للبشرية كافة، وهو لهم أسوة حسنة، وقدوة عملية يقتدى بها، جعل الله سنته المشتملة على أقواله، وأفعاله، وصفاته، وتقريراته المصدر المباشر لأحكام الشريعة بعد القرآن الكريم، بل إن سنته شارحة للكتاب، فيها البيان والتفصيل لأحكامه[7]، وقد أنزلت الآية الآنفة الذكر بخصوص غزوة الأحزاب، يقول العلامة الألوسي: "والآية وإن سِيقَت للاقتداء به ﷺ في أمرِ الحرب من الثبات ونحوه، فهي عامة في كل أفعاله ﷺ؛ إذ لم يُعلَم أنها من خصوصياتِه كنكاح ما فوق أربع نسوة"[8].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: 3]، رقم: (4953)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (160)، بلفظ قريب من لفظ البخاري.

(2) سورة القلم، الآية: (4).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم: (746)، وأحمد في مسنده، مصدر سابق، [148/41]، رقم: (24601) واللفظ له.

(4) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب المناقب، باب: بابٌ، رقم: (3638)، وقال الترمذي: "هذا حديثٌ ليس إسنادُه بمتصل".

(5) سورة الأحزاب، الآية: (21).

(6) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: أسا، [35/14].

(7) يُنظَر: الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، (1419هـ - 1999م)، [96/1].

(8) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مصدر سابق، [167/21].

رابعاً: تعظيم النبي ﷺ والتأدب معه

1. أقسم الله تعالى في القرآن الكريم بحياة نبيه محمد ﷺ: فقال الله تعالى: **{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}**[1]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما خلَقَ اللهُ، وما ذَرَأ، وما بَرأَ نَفساً أكرمَ عليهِ من محمدٍ ﷺ، وما سمعتُ اللهَ تعالى أقسمَ بحياةِ أحدٍ غيرِه ﷺ)، ومعنى الآية كما يفسرها ابن عباس رضي الله عنهما: (وحياتك يا محمد، وعمرك وبقائك في الدنيا)[2]، قال القاضي عياض في الشفاء: هذا القسم بحياة النبي ﷺ نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف[3].

2. مناداة الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ بصفته، ولم يناده باسمه: ذكر العلماء أن مناداة الرسول محمد ﷺ في القرآن الكريم بصفاته من خصائصه ﷺ[4]، كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ}**[5]، **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}**[6]، **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}**[7]، **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**[8]، بخلاف غيره من الأنبياء، فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم مخاطباً لهم بأسمائهم، كقوله تعالى: **{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}**[9]، **{يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}**[10]، **{يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي}**[11]، **{يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}**[12].

---

(1) سورة الحجر، الآية: (72).

(2) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (1250هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دمشق، دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى، (1414هـ)، [139/3].

(3) القاضي عياض، أبو الفضل عياض اليحصبي السبتي المالكي المغربي (ت: 544)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية (1423هـ - 2002م)، [31/1].

(4) يُنظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر، الخصائص الكبرى، مصدر سابق، [283/2].

(5) سورة الأنفال، الآية: (64).

(6) سورة المائدة، الآية: (41).

(7) سورة المزمل، الآية: (1).

(8) سورة المدثر، الآية: (1).

(9) سورة هود، الآية: (46).

(10) سورة هود، الآية: (76).

(11) سورة الأعراف، الآية: (144).

(12) سورة المائدة، الآية: (116).

3. تحريم الله تعالى في القرآن الكريم على أمته ﷺ مناداته باسمه: بوَّب السيوطي في كتابه (الخصائص الكبرى) فقال: "باب تحريم ندائه ﷺ باسمه"، ونقل في هذا الباب عن أبي نعيم قوله: ومن خصائصه ﷺ تحريم ندائه ﷺ باسمه، قال الله تعالى تأديباً لهذه الأمة أمام مقام النبوة: **{لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}**[1]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: (كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ)، وعن علقمة والأسود[2] في الآية قالا: (لا تقولوا: "يا محمد"، ولكن قولوا: "يا رسول الله"، "يا نبي الله")[3]. وكانت الأمم السابقة تخاطب أنبياءها بأسمائهم انظر قوله تعالى حكاية عنهم: **{قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}**[4]، وقوله تعالى: **{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}**[5].

4. نهى الله المؤمنين عن رفع أصواتهم بحضرة النبي ﷺ: قمة الاحترام لحظةَ لقاء الرسول ﷺ والدخول عليه، والسَّلام عليه؛ التحلي بصفة الخشوع، وهي خضوع الهامات، وخفض الأصوات.

جاء وفد تميم إلى رسول الله ﷺ -وهم الأعراب الجفاة-، فنادوا من وراء حجرتهِ بأصواتهم المرتفعة، وعلى الملأ: يا محمد، اخرج إلينا، فإنَّ مدحَنا زينٌ، وإنَّ ذمَّنا شَينٌ، يريدون المباراة بشعرائهم وخطبائهم، فاستاءَ النبي ﷺ، فنزلت الآيات[6]: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ● إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ● إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ● وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**[7]، أدبهم ربهم بأدب القرآن، مبيناً لهم حقوق النبي ﷺ.

---

(1) سورة النور، الآية: (63).

(2) **علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد:** صاحبا ابن مسعود رضي الله عنه، من علماء العراق، وعلقمة عم الأسود أخو أبيه، توفي علقمة بالكوفة سنة 62هـ. وتوفي الأسود سنة 75هـ. يُنظَر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، [53/4 ، 50/4].

(3) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، مصدر سابق، [490/5]، رقم: (2238).

(4) سورة الأعراف، الآية: (138).

(5) سورة المائدة، الآية: (112).

(6) الواحدي؛ أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، مصدر سابق، (ص: 358).

(7) سورة الحجرات، الآية: (2 - 5).

5. نهى الله تعالى المؤمنين عن تقديم آرائهم على رأي النبي ﷺ: قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**[1]، يظهر في الآية أن اللهَ تعالى يَنهى المؤمن عن تقديم رأيهِ أو فعلهِ على قولِ رسول الله ﷺ، وهذا مِن حرمةِ رسولهِ ﷺ على ربه، ومكانته عنده. قال القرطبي في تفسير الآية: "أي: لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله ورسوله، فمن فعل ذلك فيما حقه التوقيف من أمر الدين أو الدنيا، فقد تجرَّأَ على ما نهى الله عنه"[2].

6. نهى الله تعالى عن إيذاء النبي ﷺ، ونبه إلى القضايا التي تؤذيه ﷺ: قال الله تعالى: **{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**[3]، يقولون: يسمعُ كلما نحدثه به ويصدقه، وهذا معنى قوله تعالى: **{وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ}**، فدافع عنه القرآن قائلاً: **{قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ}**[4].

وفي الثقلاء نزل قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا}**[5]، ومنع القرآن من خلال الآية الاختلاط بنساء النبي ﷺ، وهنَّ قدوة النساء المؤمنات، أو أن تنكح أزواج الرسول ﷺ من بعده أبداً.

(1) سورة الحجرات، الآية: (1).
(2) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [300/16].
(3) سورة التوبة، الآية: (61).
(4) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [326/14].
(5) سورة الأحزاب، الآية: (53).

خامساً: ما أوجبه الله على المؤمنين بحق نبيه محمد ﷺ

1. **أوجب الله تعالى على المؤمنين أن يصلوا ويسلموا على نبيه محمد ﷺ:** قال الله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}**[1]، ومعنى الصلاة عليه: الثناء عليه، وإظهار شرفه، وفضله، وحرمته ﷺ، وسميت صلاة المؤمن دعاءً لأن فيها أسلوب الطلب من الله تعالى، وكأن المؤمن يقول: اللهم إني لستُ أهلاً للثناء على نبيِّك وحبيبك محمد ﷺ ، فأدعوك ربي أن تُصَلِّي عليه وتثني عليه ثناءك الذي هو أهل له[2].

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفاً له، وأعلم أن الصلاة عليه ﷺ فرض في العمر مرة لمطلق الأمر، وجعلها الشافعي ركناً في الصلاة بعد التشهد الأخير[3]، وأما وجوب الصلاة عليه ﷺ في كل الأوقات، فمن العلماء من أوجب الصلاة عليه كلما جرى ذكره ﷺ، ومنهم من قال: تجب الصلاة عليه في كل مجلس مرة، وإن تكرَّرَ ذكرُه ﷺ، والذي يَقتضيهِ الاحتياطُ الصلاةُ عليه ﷺ كلما ذُكِر اسمُه الشريف، لِما ورد من الأخبار في ذلك[4]، منها قول جبريل عليه السلام يخاطب النبي محمداً ﷺ: **«وَمَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»**[5].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: (56).

(2) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين (ت751هـ)، **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، الطبعة الثانية، (1407هـ - 1987م)، [19/4].

(3) أبو الحسن الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ)، **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي**، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1419هـ - 1999م)، [539/2].

(4) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [232/14].

(5) أخرجه ابن حبان، محمد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التّميمي البستي (ت 354هـ)، في صحيحه، **صحيح ابن حبان = المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها**، بيروت، دار التأصيل، الطّبعة الثّانية، (1414هـ - 1993م)، [351/1]، والطبراني في المعجم الكبير، مصدر سابق، [243/2]، رقم: (2022)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [139/8]، وقال: "رواه الطبراني بأسانيد، وأحدها حسن، ولهذا الحديث طرق في الأدعية في الصلاة على النبي ﷺ".

2. **أوجب الله طاعة رسوله محمد ﷺ وجعل اتباعه شرطاً لمحبة الله:** قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}**[1]، ففي الآية أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بطاعتِه وطاعةِ رسوله ﷺ التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة[2].

وإن طاعةَ الرسول ﷺ من أوجب الواجبات؛ لأنها طاعة لله تعالى، قال سبحانه: **{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}**[3].

وجعل الله طاعة رسوله ﷺ شرطاً للهداية، فقال: **{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}**[4].

وفي طاعته ﷺ استجلاب للرحمة، قال تعالى: **{وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}**[5].

وجعل الحق سبحانه طاعة رسوله ﷺ دلالة على حب العبد لله، وسبباً في مغفرة الذنوب، قال الله تعالى: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**[6]، وعَنْ الحسن: قَالَ أقوام عَلَى عهد نبيهم: والله -يَا محمد-، إنا لنحب ربنا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهم قرآناً، فَقَالَ: **{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ}** فَجَعَلَ الله اتِّباع نبيه ﷺ علماً لحبه[7]، بل إن طاعتَه ﷺ سبب في الفوز برضا الرحمن ودخول الجنان، كما جاء في القرآن: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**[8]، ويترقى من يطيع الرسول ﷺ في الجنة مع أصحاب المنازل العالية، كما قال تعالى: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}**[9].

وبالنظر إلى الأهمية الإيمانية لطاعة الرسول ﷺ؛ فقد قرن القرآن بينها وبين الإيمان، كما جاء في قوله تعالى: **{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[10]، وحذر المؤمنين من الوقوع في معصية الرسول ﷺ بقوله سبحانه: **{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**[11].

---

(1) سورة محمد، الآية: (33).
(2) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [323/7].
(3) سورة النساء، الآية: (80).
(4) سورة النور، الآية: (54).
(5) سورة النور، الآية: (56).
(6) سورة آل عمران، الآية: (31).
(7) ابن المنذر؛ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، كتاب تفسير القرآن، دار المآثر، الطبعة الأولى، (1423هـ، 2002م)، [169/1].
(8) سورة النساء، الآية: (13).
(9) سورة النساء، الآية: (69).
(10) سورة الأنفال، الآية: (1).
(11) سورة النور، الآية: (63).

3. أوجب الله تعالى الرضا والقبول بما قضى به الرسول ﷺ: قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}**[1].

عَنْ ميمون بْن مهران[2] قَالَ فِي قوله ﷻ: **{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ}**[3]، "قَالَ: إِلَى كتابه: **{وَالرَّسُولِ}**، قَالَ: مَا دام حياً، فإذا قُبِض، فإلى سنته"[4].

وقد أكدت آية كريمة وجوب القبول بقضاء الرسول ﷺ عند التنازع والاختلاف، قال الله تعالى: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}**[5]، ونجد في هذه الآية الأخيرة أن اللهَ -تعالَت قدسيَّتُه- نفى الإيمانَ عن الذين لا يَقبلون بقضاء الرسول ﷺ فيهم، وكان سبب نزول هذه الآية كما روى عروة بن الزبير، قال: خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شراج من الحرة[6]، فقال النبي ﷺ: **«اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ»**، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: **«اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ»**، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}**[7].

---

(1) سورة النساء، الآية: (59).

(2) **ميمون بن مهران:** (40هـ - 117هـ) الإمام الحجة، عالم الجزيرة ومفتيها، نشأ في الكوفة، وسكن الرقة، حدث عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس ﷺ وغيرهم. يُنظَر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، [78/5].

(3) سورة النساء، الآية: (59).

(4) ابن المنذر؛ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، كتاب تفسير القرآن، مصدر سابق، [768/2].

(5) سورة النساء، الآية: (65).

(6) الشرجة: مسيل الماء من الحرة إلى السهل. يُنظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مصدر سابق، مادة: شَرَج، [456/2].

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: المساقاة، باب: سكر الأنهار، رقم: (2359)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: وجوب اتباعه ﷺ، رقم: (2357).

سادساً: فضل الله العظيم وتمام نعمته على نبيه الكريم ﷺ

وصف الله ﷻ فضله على نبيِّه محمد ﷺ بالعظيم؛ فقال: **{وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}**[1]، وفي آية أخرى وَصَفَ فضلَه بالكبير حين خاطبه قائلاً: **{إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا}**[2].

ويورد القرآن الكريم تعبيراً بليغاً يؤكِّدُ على تمام النعمة، كما في قوله تعالى: **{وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}**[3]، ومن تمام نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ:

1. **مغفرة ذنوبه؛ ما تقدَّم منها وما تأخَّر**، قال تعالى: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}**[4]، ففي الآية تصريح بمغفرة الذنوب المستقبليَّة، وهو من خصوصيات الرسول ﷺ، غير أن رسول الله ﷺ كان عبداً شكوراً؛ إذ ازداد من الله قرباً؛ فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: **«أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»**[5].

2. **ومن تمام نعمه على نبيه ﷺ ما ذكره في قوله سبحانه: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}**[6]، وهو نهرٌ في الجنة، قالت عائشة رضي الله عنها في وصفه ما سمعته من الرسول ﷺ: **«نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ»**[7].

3. ومن تمام نعمة الله على نبيه ﷺ: ما وَعَدَه به من المقام المحمود يوم القيامة، بقوله سبحانه: **{عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}**[8]، وقد ثبت في الصحيح أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة للنبي ﷺ يوم القيامة، كما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: **«إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ، اشْفَعْ! يَا فُلاَنُ، اشْفَعْ! حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ»**[9].

وقد ثبتت أحاديث الشفاعة بشكل قطعي، ومنها حديث الشفاعة الطويل في الصحاح: **«... فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ...»**[10].

---

(1) سورة النساء، الآية: (113).
(2) سورة الإسراء، الآية: (87).
(3) سورة الفتح، الآية: (2).
(4) سورة الفتح، الآية: (2).
(5) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: 2]، رقم: (4837).
(6) سورة الكوثر، الآية: (1).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 8]، رقم: (4965).
(8) سورة الإسراء، الآية: (79).
(9) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: 79]، رقم: (4718).
(10) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: 3]، رقم: (4712)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم: (194).

4. **ومن تمام نعمة الله على نبيه ﷺ: ما جاء في سورة الضحى: {وَالضُّحَى ● وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ● مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ● وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ● وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ● أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ● وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ● وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ● فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ● وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ● وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}**[1]، وفي هذه السورة يعدد الله سبحانه نعَمه على عبده ورسوله محمد ﷺ: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}** وذلك أن أباه تُوفِّي وهو حَملٌ في بطن أمه، ثم توفيَت أمُّه آمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين![2].

وأما قوله: **{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}**، فالمراد به: ووجدك على غير الذي أنت عليه اليوم من النبوة[3]، وقيل: إنه ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع.

وأما قوله: **{وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}**، أي: كنت فقيرًا ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر ﷺ.

قال: **{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** أي: كما كنتَ يتيمًا فآواك الله، فلا تقهر اليتيم، وكن له كالأب الرحيم؛ وكما كنتَ ضالاً فهداك الله؛ فلا تَنهر السائل في العلم المسترشد، وكما كنتَ عائلاً فقيرًا فأغناك الله؛ فلا تردَّ المسكين إلا برحمة ولين، وحدِّث بنعمة الله عليك[4].

5. **ومن تمام نعمة الله على نبيه محمد ﷺ أن شرح له صدره**، وامتنَّ عليه بقوله سبحانه: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}**[5]، وقد وقع له ﷺ ذلك حساً ومعنى، وملأ قلبه حكمة وإيماناً، وأخرج حظ الشيطان منه، حصل له ﷺ ذلك مرتين؛ عندما كان غلاماً في بادية بني سعد، وبعد البعثة في حادثة الإسراء والمعراج:

- **ففي الحادثة الأولى:** شَقَّ صدرَه ﷺ واستخرجَ منه حظ الشيطان، كما يروي أنس بن مالك رضي الله عنه: **«أَنَّ رَسُولَ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ»**[6].
- **وفي الحادثة الثانية:** شَقَّ صدره ﷺ وملأه حكمة وإيماناً، كما كَانَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ»**[7].

---

(1) سورة الضحى، الآية: (1 - 11).
(2) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [426/8].
(3) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [488/24].
(4) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [427/8].
(5) سورة الشرح، الآية: (1).
(6) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم: (162).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم: (349)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ، رقم: (163).

6. ومن تمام نعمة الله على رسوله ﷺ: ما أفاضه عليه من العلم والحكمة؛ كما جاء في قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[1].

7. ومن تمام نعمة الله على رسوله ﷺ: أن الله تعالى جعله أماناً لأمته من العذاب، كما ذكر القرآن الكريم: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[2]، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ! فَنَزَلَتْ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}»[3]، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهِمْ الِاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[4].

8. ومن تمام منَّةِ اللهِ على نبيه ﷺ: أن اللهَ طهَّرَ نساءَه وأهل بيتهِ من الرجس، قال الله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ● وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ● وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}[5]، ومعنى قوله تعالى: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ}، أي: أنتنَّ القدوة، فهنَّ خيرة النساء، اصطفاهنَّ لسيد المرسلين، خاتم النبيين، المختار، محمد بن عبد الله ﷺ، الأمين، فكيف سيكون أدبهنَّ؟! يقول: أنتن المثال في الطهارة والنزاهة، أنتن نساء بيت النبوة، أنتن أمهات المؤمنين بنص الكتاب المنزل: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}[6]، ولذلك قال الله فيهم: {وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا}[7]، ونزل في حقهم ﷺ: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}[8].

---

(1) سورة النساء، الآية: (113).
(2) سورة الأنفال، الآية: (33).
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأنفال: 32]، رقم: (4648)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)، رقم: (2796).
(4) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال، رقم: (3082)، وقال: "هذا حديث غريب".
(5) سورة الأحزاب، الآية: (32 - 34).
(6) سورة الأحزاب، الآية: (6).
(7) سورة الأحزاب، الآية: (53).
(8) سورة الأحزاب، الآية: (33).

سابعاً: عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ

1. **حرسه الله بعينه، وعين الله لا تنام:**
كان رسول الله ﷺ واثقاً من حراسة الله له، ورعايته له، وعنايته به في كل أحواله وأطواره، يمتلئ قلبه باليقين، وكانت تنزل عليه الآيات تترى لتثبت فؤاده، ويشعر من خلالها بالتأييد، إنه اللطف الإلهي بنبيه وحبيبه محمد ﷺ كما خاطبه الله بقوله: **{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}**[1].

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: **{فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}**، أي: نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك، ومنه قوله تعالى لنبي الله موسى عليه السلام: **{وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}**[2]، أي: بحفظي وحراستي[3].

يقول ابن عجيبة في لطائف قوله تعالى: **{فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}**: وجمع العين والضمير في قوله: **{بِأَعْيُنِنَا}** للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ والرعاية[4].

ويتحدث البوصيري في البردة عن حماية الله لنبيه ﷺ وحراسته له وعنايته به في طريق الهجرة؛ فيقول:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم[5]

2. **عصم الله نبيه ﷺ من الشيطان الرجيم:**
جاءت عصمةُ الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}**[6]، ثم قال: **{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}**[7]. قال ابن عجيبة في تفسير قوله تعالى: **{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}**: "لم يبقَ لهم شيطان حتى يخلط وسوسته بواردات قلوبهم"[8]، فلذلك جاء قوله تعالى: **{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ● وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ}**[9].

ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ»**، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»**[10].

يقول القاضي عياض: (واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه)[11].

---

(1) سورة الطور، الآية: (48).
(2) سورة طه، الآية: (39).
(3) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [78/17].
(4) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [337/7].
(5) الحضرمي؛ محمد بن عمر بَحْرَق الحضرمي الشافعي، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، بيروت، دار الحاوي، الطبعة الأولى، (1998م)، (ص: 107).
(6) سورة التكوير، الآية: (19).
(7) سورة التكوير، الآية: (25).
(8) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [64/4].
(9) سورة الشعراء، الآية: (210 – 211).
(10) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، رقم: (2814).
(11) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مصدر سابق، [158/17].

وأما أمره تعالى لنبيه ﷺ بالاستعاذة من نزغ الشيطان في قوله تعالى: **{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}**[1]؛ مع أنه ﷺ معصوم منه، فإن الشيطان لا ييأس من الوسوسة بطبعه، والاستعاذة هنا مثل الاستغفار الحاصل منه ﷺ في قوله: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**[2]، وقد أُمِر ﷺ بالاستغفار في قوله تعالى: **{وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}**[3]، مع أن الله سبحانه وتعالى خاطبه قائلاً: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}**[4]، ومن هنا نعلم أن الخطاب للنبي محمد ﷺ كان تشريفاً، ولأمته تكليفاً، وكان ﷺ في سيرته وسنته قدوة.

3. عصم الله نبيه ﷺ من الضلالة والغواية:
جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: **{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}**[5]، وفي هذا إشارة إلى عصمته ﷺ من الضلالة والغواية، وقد نفى اللهُ عنه ﷺ الضلالة والغواية، فثبتَ له ما يُقابِلُ ذلك من الهداية والرشد، وقد خاطب القرآنُ قريشاً بقوله تعالى: **{صَاحِبُكُمْ}**، وفي ذلك إشارة إلى أن الذي تنسبون إليه الضلالة والغواية أنتم أعلم الناس بتفاصيل حياته، وما ظهر لكم من محاسن أوصافه، وقد مكث فيكم أربعين سنة! وهذا كاف لمعرفة حقيقة أمره[6].

وأما قوله تعالى: **{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}**[7]، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: (وجدك بين ضالين، فاستنقذك من ضلالتهم)[8]، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: **{مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}**[9]، أي: ضالاً عما أنت عليه اليوم من معالم النبوة[10].

4. عصم الله فؤاد نبيه محمد ﷺ من الكذب:
جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى قد عصم فؤادَ النبي محمد ﷺ من التوهم والكذب، وإنكار حقيقة ما رأى بصره ليلة المعراج، فما أنكر بقلبه ما رأته عيناه، وما توهم قلبُه خلاف ما رأى من عالم الغيب[11]، وذلك قوله تعالى: **{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}**[12]، قال في بحر العلوم: "ما كذب قلب محمد ﷺ ما رأى بصره من أمر ربه"[13].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: (200).
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم: (2702).
(3) سورة محمد، الآية: (19).
(4) سورة الفتح، الآية: (2).
(5) سورة النجم، الآية: (2).
(6) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [85/17].
(7) سورة الضحى، الآية: (7).
(8) السيوطي، عبد الرّحمن بن أبي بكر، الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، [544/8].
(9) سورة الشورى، الآية: (52).
(10) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، مصدر سابق، [487/8].
(11) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، النكت والعيون – تفسير الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت، دار الكتب العلمية، [394/5].
(12) سورة النجم، الآية: (11).
(13) السمرقندي؛ أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، بحر العلوم، تحقيق: د.محمود مطرجي، بيروت، دار الكتب العلمية، [340/3].

5. عصم الله بصر نبيه محمد ﷺ من الزيغ:
قال الله تعالى: **{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}**[1]، هذه الآية صفةُ مدح لنبينا محمد ﷺ تصفُ ثباتَ بصرِهِ الشريف، وبعده عن الزيغ والطغيان لدى رؤيتِه ما أكرمَه اللهُ تعالى برؤيتِهِ من مَرائي الإسراء والمعراج، وهي التي عبر عنها الله تعالى بقوله: **{لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}**[2]، بخلاف النبي موسى عليه السلام؛ فإنه طلب الرؤيا، ولما تجلى ربه للجبل أخذت موسى الصعقةُ، فخرَّ مغشياً عليه، قال الله تعالى: **{فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}**[3]، أما نبينا محمد ﷺ فقد ثبت في المقام العظيم الذي تحار في وصفه العقول، وتزل فيه الأقدام، وتزيغ فيه الأبصار، فجاء وصفه في القرآن: **{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}**[4].

6. عصم الله نبيه محمداً ﷺ من كيد الأعداء:
كان النبي ﷺ يُحرَس بعد مَقدمِه المدينة مهاجراً، فقد اجتمع عليه الأعداء، وعَظُم الخوف على رسول الله ﷺ؛ حتى كان الصحابة يبيتون ويصبحون بسلاحهم.

ورد في الأحاديث الصحاح عن عائشة رضي الله عنها: (سَهِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ لَيْلَةً فَقَالَ: **«لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ!»**، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ سِلَاحٍ، فَقَالَ: **«مَنْ هَذَا؟»** قَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا جَاءَ بِكَ؟»** قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ نَامَ)[5]، وكان هذا المشهد يتكرر خوفاً على رسول الله ﷺ؛ لا سيما وأن راوي الحادثة كان شاهداً فيها، ألا وهي السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان رسول الله ﷺ بنى بها في شوال عام 2هـ بعد رجوعه من غزوة بدر.

بقي هذا الأمر من الحراسة حتى نزل قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}**[6]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ: **{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}**، فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ القُبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا، فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ»**)[7].

---

(1) سورة النجم، الآية: (17).
(2) سورة النجم، الآية: (18).
(3) سورة الأعراف، الآية: (143).
(4) الخازن: علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [260/6].
(5) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، رقم: (2410).
(6) سورة المائدة، الآية: (67).
(7) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة، رقم: (3046)، وقال: "هذا حديث غريب"، والحاكم في المستدرك، مصدر سابق، [342/2]، رقم: (3221)، وصححه، ووافقه الذهبي.

7. نجّى اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ من مكر الكافرين:
قال الله تعالى: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}**[1]، نزلت هذه الآية بخصوص اجتماع زعماء المشركين في دار الندوة للتآمر من أجل القضاء على رسول الله ﷺ فرد الله مكرهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ، يُرِيدُونَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ اقْتُلُوهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، فَبَاتَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ، فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ، خُلِّطَ عَلَيْهِمْ، فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ، فَمَرُّوا بِالْغَارِ، فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ، فَقَالُوا: لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ! فَمَكَثَ ﷺ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ!)[2]، فردَّ اللهُ مكرَهم إذ لم ينالوا منه، وولوا مدبرين، وأنزل الله تعالى عليه فيما بعد قوله: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}**[3]، قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ● إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ● وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}**[4].

8. توعَّد اللهُ الذين آذوه ﷺ بنار جهنم يوم القيامة: توعَّد القرآنُ الكريم الذين آذوا رسولَ الله ﷺ بالعذاب الأليم، فقال: **{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**[5]، وأشار القرآن إلى نماذج، ومنهم:

أ. **الوليد بن المغيرة؛** الذي قال الله تعالى فيه: **{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ● فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ● ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ● ثُمَّ نَظَرَ ● ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ● ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ● فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ● إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ● سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}**[6].

ب. **عقبة بن معيط؛** وكَانَ من خبره (أنه جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَسَمِعَ مِنْهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أُبَيًّا، فَأَتَى عُقْبَةَ فَقَالَ: أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّك جَالَسْت مُحَمّدًا، وَسَمِعْت مِنْهُ، ثُمّ قَالَ: وَجْهِي مِنْ وَجْهِك حَرَامٌ أَنْ أُكَلّمَك! -وَاسْتَغْلَظَ مِنْ الْيَمِينِ- إنْ أَنْتَ جَلَسْت إلَيْهِ أَوْ سَمِعْت مِنْهُ، أَوْ لَمْ تَأْتِهِ فَتَتْفُلُ فِي وَجْهِهِ! فَفَعَلَ مِنْ ذَلِكَ عَدُوّ اللّهِ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ لَعَنَهُ اللّهُ، فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِيهِمَا: **{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ● يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ● لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا}**[7])[8].

وبعد التعريف بسيدنا محمد ﷺ من خلال آيات القرآن الكريم؛ نأتي إلى الوقوف على معنى شهادة: أن محمداً رسول الله ﷺ.

---

(1) سورة الأنفال، الآية: (30).
(2) أخرجه أحمد في مسنده، مصدر سابق، [301/5]، رقم: (3251).
(3) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [497/13].
(4) سورة الصافات، الآية: (171 - 173).
(5) سورة التوبة، الآية: (61).
(6) سورة المدثر، الآية: (18 - 26).
(7) سورة الفرقان، الآية: (27 - 29).
(8) يُنظَر: الواحدي؛ أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، مصدر سابق، (ص: 318)، والسهيلي؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (1421هـ - 2000م)، [146/2].

المبحث الثاني:
معنى شهادة: أن محمداً رسول الله ﷺ

الشهادتان أحد أركان الإسلام الخمسة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»**[1].

وقد بدأ الحديث بهما لأنهما أصل الدين، ولا يصح شيء غيرهما إلا بهما[2]، وهما مفتاح الدخول في الإسلام، وشرط لقبول العمل، والمراد بشهادة: (أنَّ محمداً رسولُ الله)؛ تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به، وهذه الشهادة تستلزم الإيمان بجميع ما ذكر في الكتاب والسُّنة من المعتقدات، وما جاء فيهما من أحكام[3].

وها هنا نقاط لا بد من الوقوف عندها:

أولاً: ارتباط شهادة أن محمداً رسول الله بشهادة أن لا إله إلا الله

لا شك أن هناك ارتباطاً بمعنى التلازم بين الشهادتين: (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله)، فالله الذي أنزل الوحي على نبيه ﷺ في الغار، وقال له: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ● قُمْ فَأَنْذِرْ}**[4] هو الذي أمره أيضاً في محكم التنزيل، فقال له: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}**[5]، ومما يؤكد هذا الارتباط قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}**[6].

ونلاحظ أن هذه النصوص جاءَت لتؤكِّد -من باب العقيدة- ارتباطَ شهادة (أن محمداً رسول الله) وجوباً بشهادة (أن لا إله إلا الله)، فلو نطقَ غير المسلم بشهادة (أن لا إله إلا الله)، ولم يقرنها بشهادة (أن محمداً رسول الله) لم يتحقَّقْ دخولُه في الإسلام.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ **«بُنِيَ الإسلامُ على خمس»**، رقم: (8)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ **«بُنِيَ الإسلامُ على خمس»**، رقم: (16).

(2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، [358/3].

(3) المصدر السابق نفسه، [50/1].

(4) سورة المدثر، الآية: (1 - 2).

(5) سورة الأعراف، الآية: (158).

(6) سورة النساء، الآية: (136).

ثانياً: شهادة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بصدقــه في الرسالــة والنبــوة

شهد الله تعالى لنفسه بالوحدانية في كتابه العزيز، فقال: **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**[1]، وشهدَ اللهُ تعالى كذلك لحبيبه محمد ﷺ بالرسالة، فقال الله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}**[2]، فقد أرسله الله تعالى، وجعل له برهاناً على صدق نبوته، وشهد الله له في القرآن الكريم بصدق نبوته إعلاءً لشأنه، قال الله تعالى: **{لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}**[3]، وشهادة الله لنبيه ﷺ بنظم بيان الوحي المنزل على رسوله لَهيَ أبلغ شاهد، "فشهادته ببلاغته وحكمته بصدق الآتي به هي شهادة الله؛ لأنه قائله، ولذلك علل بقوله: **{أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ}**، أي: عالماً بإنزاله على الوجه المعجز، مع كثرة المعارض، فلم يقدر أحد - ولا يقدر - على إحداث شيء فيه من تغيير ولا تبديل، ولا زيادة، ولا نقصان، ولا معارضة"[4].

لقد اتسع فضاء تحدي الرسول ﷺ للعرب وهم أمة البلاغة والبيان، بل بلغ تحديه ﷺ لهم نجماً لا يطال لارتفاعه، وهو الذي تُظاهِرُه شهادةُ الله له، يقول الله تعالى له مسجلاً هذا التحدي مرة أخرى في كتابه العزيز: **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}**[5]، بمعنى: أَيُّ الأشياءِ أعظمُ شهادةً؟ إنها شهادة الله بيني وبينكم، وهو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي[6]، وقد جاءت هذه الشهادة في معرض الحديث عن الوحي إلى الأنبياء السابقين عليهم صلوات الله أجمعين، قال الله تعالى: **{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ● وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ● رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}**[7].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: (18).
(2) سورة الفتح، الآية: (28).
(3) سورة النساء، الآية: (166).
(4) البقاعي؛ برهان الدين بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، [373/2].
(5) سورة الأنعام، الآية: (19).
(6) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [245/3].
(7) سورة النساء، الآية: (163 - 165).

ثالثاً: أخذ الله تعالى العهد على الأنبياء بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته

كما أخذ الله العهد على كل البشر أن يشهدوا (أن لا إله إلا الله)، قال الله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ● أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}**[1]، فكذلك أخذ الله تعالى العهد على جميع الأنبياء والمرسلين أن يشهدوا (أن محمداً رسول الله) وأن يوصوا أتباعهم وأقوامهم بوجوب الإيمان به واتباعه، قال الله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ● فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}**[2].

ذكر السيوطي في الخصائص قول السدي في الآية: "لم يُبعث نبيٌّ قط من لدن نوح عليه السلام إلا أخذ الله ميثاقه ليؤمنن بمحمد ﷺ ولينصرنه إن خرج وهو حي، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به وينصروه إن خرج وهم أحياء"[3]، وكان آخرهم عيسى عليه السلام، وقد بشر ببعثة النبي ﷺ، وأثبت القرآن له هذه البشارة بقوله: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}**[4].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: (172 - 173).
(2) سورة آل عمران، الآية: (81 - 82).
(3) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر، الخصائص الكبرى، مصدر سابق، [13/1].
(4) سورة الصف، الآية: (6).

رابعاً: رسالة محمد ﷺ دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، وبشرى أخيه عيسى عليه السلام

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: **«دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»**[1].

أما دعوة أبيه إبراهيم فكانت عند بناء البيت، قال الله تعالى: **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ● رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ● رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**[2].

وأما بشرى أخيه عيسى؛ فقد جاء على لسان سيدنا عيسى عليه السلام في القرآن الكريم من البشرى ما يؤكِّدُ إقرارَ الأنبياء والمرسلين وتصديقهم بشهادة (أن محمداً رسول الله)، قال الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}**[3].

ومن الجدير ذكرُه أن نبي الله عيسى عليه السلام كان آخر الرسل قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ، كما أكَّد نبينا ﷺ على ذلك بقوله ﷺ عن أخيه سيدنا عيسى عليه السلام: **«لَيسَ بَيني وَبَينَهُ نَبِيٌّ»**[4]، وقد وردت صفاتُ سيدنا محمد رسول الله ﷺ في الكتب السَّماويَّة السابقة، كما أكَّدَ القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**[5].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، مصدر سابق، [595/36]، رقم: (22261)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، مصدر سابق، [656/2]، رقم: (4174) وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "صحيح لغيره".

(2) سورة البقرة، الآية: (127 - 129).

(3) سورة الصف، الآية: (6).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} [مريم: 16]، رقم: (3442)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، رقم: (2365).

(5) سورة الأعراف، الآية: (157).

خامساً: كان أتباع الأنبياء -من يقين إيمانهم- يستفتحون باسمه ﷺ

قال الله تعالى عن أهل الكتاب: **{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}**[1]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هُزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء، وقالوا: إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجَه لنا في آخر الزمان أن تنصرنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقَوا دعوا بهذا الدعاء، فهَزموا غطفانَ، فلما بُعث النبي ﷺ كفروا، فأنزل الله تعالى: **{وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}** أي: بك يا محمد)[2].

وقد وصفهم الله تعالى بقوله في القرآن الكريم: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**[3].

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام رضي الله عنه: (أتعرِفُ محمداً ﷺ كما تَعرفُ ابنَك؟ فقال: نعم وأكثر، بَعثَ اللهُ أمينَه في سمائهِ إلى أمينهِ في أرضهِ بنَعتهِ فعرفتُهُ، وابني لا أَدري ما كانَ مِن أمِّه!)[4].

---

(1) سورة البقرة، الآية: (89).

(2) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [27/2]، وانظر: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، مصدر سابق، [76/2].

(3) سورة البقرة، الآية: (146).

(4) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [163/2].

سادساً: ذكر الله تعالى شهادة أولي العلم بـ (أن محمداً رسول الله)

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]، وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[2].

ذكر البخاري في باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة عن أنس بن مالك ﷺ قال: «أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ ﷺ...، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَانِبَ الحَرَّةِ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَاؤُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِمَا، وَقَالُوا: ارْكَبَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ. فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَحَفُّوا دُونَهُمَا بِالسِّلاَحِ، فَقِيلَ فِي المَدِينَةِ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ! جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ! فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ! جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ! فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ، فَإِنَّهُ لَيُحَدِّثُ أَهْلَهُ إِذْ سَمِعَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ وَهُوَ فِي نَخْلٍ لِأَهْلِهِ يَخْتَرِفُ لَهُمْ، فَعَجِلَ أَنْ يَضَعَ الَّذِي يَخْتَرِفُ لَهُمْ فِيهَا، فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ، فَسَمِعَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟» فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي، قَالَ: «فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلًا»، قَالَ: قُومَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، فَلَمَّا جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّكَ جِئْتَ بِحَقٍّ، وَقَدْ عَلِمَتْ يَهُودُ أَنِّي سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ، وَأَعْلَمُهُمْ وَابْنُ أَعْلَمِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ قَالُوا فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ، فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، وَيْلَكُمْ، اتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا»، قَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ -قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ-، قَالَهَا ثَلاَثَ مِرَارٍ، قَالَ: «فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ؟» قَالُوا: ذَاكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا، قَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟»، قَالُوا: حَاشَى لِلَّهِ! مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟» قَالُوا: حَاشَى لِلَّهِ! مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟»، قَالُوا: حَاشَى لِلَّهِ! مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «يَا ابْنَ سَلاَمٍ، اخْرُجْ عَلَيْهِمْ»، فَخَرَجَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، اتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ، فَقَالُوا: كَذَبْتَ، فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»[3].

---

(1) سورة النساء، الآية: (162).

(2) سورة الرعد، الآية: (43).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم: (3911).

عن ابن إسحاق، قالت صفية بنت حيي بن أخطب ﵂: (كنتُ أحَبَّ ولدِ أبي إليهِ، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقَهُما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونَه، فلما قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ ونزلَ قُباءَ غدا عليه أبي -حُيَي بن أخطب-، وعمي -أبو ياسر بن أخطب-، مغلِّسين، فلم يَرجعا حتى كان غروب الشمس، فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهشَشْتُ إليهما كما كنتُ أصنعُ، فوالله ما التفَتَ إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمِّ، وسمعتُ عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته -والله- ما بقيْت)[1].

وبعد معرفة معنى شهادة (أن محمداً رسول الله)؛ يحسن الوقوف على الوظائف الأساسية لرسالة سيدنا محمد ﷺ.

***

(1) السهيلي؛ عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، مصدر سابق، [207/4]، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، مصدر سابق، [533/2].

المبحث الثالث:
الوظائف الأساسية لرسالة سيدنا محمد ﷺ

إن المتتبع للآيات القرآنية التي يمكن للباحث أن يستخرج منها الوظائف الأساسية لرسالة النبوة يقف عند أربع آيات:

- **الأولى:** قوله تعالى: **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**[1].
- **الثانية:** قوله تعالى: **{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}**[2].
- **الثالثة:** قوله تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**[3].
- **الرابعة:** قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**[4].

وبالتدقيق المقارن بين الآيات الأربع يظهر للباحث الترابط بينها؛ إذ تشكل وحدة موضوعية متكاملة، ابتدأت بدعاء سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام حين شعر أنَّ ذريتَه في حاجة إلى رسول يعلمهم ويزكي نفوسهم للحفاظ على طهارة ذريته ونجابتها؛ فدعا ربه قائلاً: **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**[5]، فاستجاب الله دعاء إبراهيم وامتنَّ على الإنسانيَّة بسيدنا محمد ﷺ ليقوم بهذه المهمة، كما قال تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**[6].

ويلاحظ المدقق في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه قدَّم التعليم على التزكية، أما المنة الإلهية والاستجابة الربانية فقد قدمت فيها التزكية على التعليم، كما جاءت بصيغة الخطاب في قوله تعالى: **{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}**[7]، كما يلاحظ أن المهام الرسالية المذكورة في الآيات أثرت إيجاباً في الارتقاء الإنساني لأمة العرب؛ حيث كانوا يعيشون في حالة من الضياع والتيه التي عبَّرَ عنها القرآنُ الكريم بالضلال المبين، كما قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**[8].

---

(1) سورة البقرة، الآية: (129).
(2) سورة البقرة، الآية: (151).
(3) سورة آل عمران، الآية: (164).
(4) سورة الجمعة، الآية: (2).
(5) سورة البقرة، الآية: (129).
(6) سورة آل عمران، الآية: (164).
(7) سورة البقرة، الآية: (151).
(8) سورة الجمعة، الآية: (2).

وإن المدقق في الآيات الكريمة يرى أن المهام الرسالية للحبيب ﷺ الأساسية ثلاثة:

■ المهمة الأولى: تلاوة آيات الله

فقد تلقى رسول الله ﷺ القرآن من ربه ﷻ، كما جاء في قوله تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}**[1]، وقد علمه الله القرآن بلفظه ومعناه، ونطقه وتجويده، وترتيبه وتنظيمه، كما جاء في قوله تعالى: **{الرَّحْمَنُ ● عَلَّمَ الْقُرْآنَ}**[2]، وكان نزول القرآن بواسطة الوحي الأمين جبريل عليه السلام كما جاء في قوله تعالى: **{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ● نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ● عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ● بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}**[3].

وكان النبي ﷺ يردِّدُ القرآنَ وراء جبريل الأمين عليه السلام ليحفظه، ولا يتفلت شيءٌ منه، فقال له الله تعالى: **{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ● إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}**[4]، وقد أمَّن اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ من نسيان ما يوحَى إليه من ربه بقوله: **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ● إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}**[5].

وقد نزل القرآن الكريم مفرقاً طيلة حياة النبي ﷺ من بعثته حتى قبيل وفاته، وهذا معنى قوله تعالى: **{وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}**[6]، ومعنى: **{فَرَقْنَاهُ}**، أي: "فصَّلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقًا منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: **{فَرَّقْنَاهُ}** بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية، مبينًا مفسرًا؛ ولهذا قال: **{لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ}** أي: لتبلِّغه الناس وتتلوه عليهم **{عَلَى مُكْثٍ}**، أي: مَهَل، **{وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}** أي: شيئًا بعد شيء"[7].

وكان جبريل عليه السلام في كل رمضان يدارس النبي ﷺ جميع ما نزل من القرآن خلال سنة كاملة، ففي الحديث الصحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ **«كَانَ مِنْ أَجْوَدِ النَّاسِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ؛ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ يُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ»**[8]، وفي العام الذي توفي فيه رَسُول اللَّهِ ﷺ قرأ عليه جبريل القرآن الكريم مرتين، كما في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ فاطمةَ رضي الله عنها قالت: **«أَخبرني رَسُول اللَّهِ ﷺ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أُرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ»**[9].

---

(1) سورة النمل، الآية: (6).
(2) سورة الرحمن، الآية: (1 - 2).
(3) سورة الشعراء، الآية: (192 - 195).
(4) سورة القيامة، الآية: (16 - 17).
(5) سورة الأعلى، الآية: (6 - 7).
(6) سورة الإسراء، الآية: (106).
(7) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [127/5].
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم: (6)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، رقم: (2308).
(9) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة رضي الله عنها، رقم: (2450).

وقد علم رسول الله ﷺ القرآن لأصحابه، فكان يستحفظهم ما ينزل عليه من القرآن عقب نزوله، وكان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي، ومنهم عثمان بن عفان ﷺ الذي يروي كيف كانوا يتلقون القرآن من رسول الله ﷺ فيقول: **«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ، فَيَقُولُ: ضَعُوا هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةَ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا»**[1].

وذكرت الروايات الصحيحة عدداً من أسماء الصحابة ﷺ الذين حفظوا القرآن في صدورهم، وتلقّوه مشافهة من النبي ﷺ، ومنهم مَن ذَكَرهم أنس بن مالك ﷺ قال: (جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعَةٌ؛ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ: أُبَيٌّ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ)، قال قتادة: قُلْتُ لِأَنَسٍ ﷺ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: (أَحَدُ عُمُومَتِي)[2].

وقد عقب العلماء على قول سيدنا أنس ﷺ بأنه لا يفيد حصر الذين جمعوا القرآن بهؤلاء الأربعة المذكورين في عهد النبي ﷺ دون سواهم، فقد ثبت بالتواتر أن مِن بين مَن جمع القرآن ولم يذكرهم أنس ﷺ: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وتميم بن أوس الداري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو الدرداء، وسعيد بن عبيد، وغيرهم كثير ﷺ[3].

وحفِظ الله بهم كتابَه، ونقلوه إلينا بالتواتر جيلاً بعد جيل؛ حيث انتشر الصحابة ﷺ في الآفاق الإسلامية يعلِّمون الناس القرآن الكريم كما تعلموه من رسول الله ﷺ؛ نطقاً وتلاوة وتجويداً وفهماً وتدبراً! وأقبل عليهم كثير من الناس يتحلَّقون حولهم، وقد أقبل التابعون على مجالس الصحابة، فكثر حفاظ القرآن الكريم، ولم يقتصروا على تلاوته، بل حفظوا أوجه قراءته، واشتهر عدد كبير من الحفاظ بالقراءة والرواية، وتجرد بعضهم للعناية بضبط القراءات وإتقانها، ووضع القواعد لها والأصول؛ حتى صاروا أئمة يقتدى بهم.

وجاء بعد التابعين: تابعو التابعين، فأخذوا عنهم القرآن ورواياته، وهكذا ظلّ المسلمون يأخذون القرآن وقراءاته جيلاً بعد جيل حتى وصل إلينا عن طريق التواتر، والسند الصحيح، وسيظل كذلك بإذن الله تعالى حتى يرث اللهُ الأرض ومن عليها.

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، رقم: (3086)، وقال: "هذا حديث حسن"، وأبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب: من جهر بها، رقم: (786).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب زيد بن ثابت ﷺ، رقم: (3810)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار ﷺ، رقم: (2465).

(3) يُنظَر: السّيوطي، عبد الرَّحمن بن أبي بكر، أبو الفضل (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1974)، [56/1].

■ المهمة الثانية: تزكية النفس

ويدل المعنى اللغوي لكلمة (التزكية) على التطهير، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}**[1]، ويربط صاحب اللسان بين التزكية والتطهير، فيقول: "وقيل لما يُخْرَج من المال للمساكين من حقوقهم: زَكاةٌ، لأَنه تطهيرٌ للمال وتَثْميرٌ وإِصْلاحٌ ونماء... فالزَّكاة طُهرةٌ للأَموال، وزَكاةُ الفِطْرِ طهرةٌ للأَبدان"[2].

والتزكية بمعناها الاصطلاحي: "تطهير النفس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها؛ مما يؤدي إلى استقامتها وبلوغها درجة الإحسان، وقد يراد بها: تخليص النفس الإنسانيَّة من كل ما يتعلق بها من شوائب ونواقص، وترسيخ الفضائل والقيم النبيلة والأخلاق السامية فيها، وتوجيهها إلى كل ما فيه الخير والصلاح"[3].

وتُفسر التزكية بكونها من المهام الرسالية كما في قوله تعالى: "**{وَيُزَكِّيهِمْ}**[4]، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور"[5].

وبهذا المعنى فإن التزكية (تطهير النفس) تؤثر إيجاباً في نقاء الفطرة الإنسانيَّة؛ لأن في أصل خلقة النفس البشرية كمالات وطهارات تتصارع معها ضلالات وجهالات، وتأتي التزكية لتزيد النفس الإنسانيَّة من ذلك الخير المودع فيها[6].

وقد قام ﷺ بتزكية نفوس أصحابه وتهذيبها، فنقلهم ﷺ إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة[7].

وقد استخدم النبي ﷺ لتحقيق تزكية النفوس عدة وسائل، ومن أهمها:

1. التذوق القلبي لحلاوة الإيمان:

فكان ﷺ يعلِّم أصحابه أموراً محددة يمكن قياسها للوصول بهم إلى الطعم الروحي للإيمان، ومن ذلك ما ورد في الصحيح عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**[8]، فإذا تحققت في العبد هذه المعايير الثلاث، فإنه يتذوق حلاوة الإيمان، فيستلذّ بالطاعات، ويحتمل في صلته بربه أصعب المشقات، ويؤثر ذلك في أعراض الدنيا الفانية، وإن القلب السليم من أمراض الغفلة والهوى يذوق طعم الإيمان، ويتنعم به كما يذوق الفم طعم العسل وغيره من ملذوذات الأطعمة ويتنعم بها[9].

---

(1) سورة التوبة، الآية: (103).
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: زكا، [358/14].
(3) يُنظَر: موسوعة التفسير الموضوعي، موضوع التزكية. https://modoee.com/show-book-scroll/315 ، تاريخ الزيارة: (2023/2/19م).
(4) سورة الجمعة، الآية: (2).
(5) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [464/1].
(6) يُنظَر: موسوعة التفسير الموضوعي، موضوع التزكية. https://modoee.com/show-book-scroll/315 ، تاريخ الزيارة: (2023/2/19م).
(7) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [464/1].
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، رقم: (16)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال مَن اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، رقم: (43).
(9) يُنظَر: القسطلاني، أحمد بن محمَّد بن أبي بكر القتيبي المصري أبو العباس (توفي 923هـ)، إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري = شرح القسطلاني، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، الطبعة السابعة، (1323هـ)، [104/1].

ومثله قوله ﷺ: **«ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»**[1]، وكان النبي ﷺ يتفقد مؤشر التذوق القلبي لحلاوة الإيمان لدى أصحابه؛ كما فعل مع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن عَبْد اللَّهِ بن هِشَامٍ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فقَالَ لَهُ عُمَرُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا مِنْ نَفْسِي، فقالَ النبيُّ ﷺ: **«لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ من نَفْسِكَ»**، فقالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: فَإِنَّهُ الْآنَ -واللهِ - لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي! فقَالَ النبيُّ ﷺ: **«الْآنَ يَا عُمَرُ»**[2].

وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا شعروا بأن مؤشر تذوقهم لحلاوة الإيمان قد انخفض؛ أسرعوا إلى طبيب قلوبهم رسول الله ﷺ، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ! قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ؛ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **«وَمَا ذَاكَ؟»** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ؛ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا!

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ - يَا حَنْظَلَةُ - سَاعَةً وَسَاعَةً»** ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[3].

2. تحقيق روح العبادات:

كان النبي ﷺ يعلِّم أصحابه الاقتداء به في ممارسة العبادات، فعن مَالِك بْن الْحُوَيْرِثِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، وَكَانَ رَفِيقًا رَحِيمًا، فَقَالَ: **«ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»**[4].

فعلَّمهم رسولُ الله ﷺ الصلاة بأركانها وشروطها وركوعها وخشوعها، وقاموا بأدائها مقتدين برسول الله ﷺ، فتحقَّقتْ فيهم روحُ الصلاة فأفلحوا، مصداقاً لقوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ● الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}**[5].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن رضي باللهِ ربًّا، رقم: (34).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كَيْفَ كانت يَمِينُ النبي ﷺ، رقم: (6632).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: التوبة، باب: فضل دوامِ الذِكْرِ والفكْرِ في أمُورِ الآخِرَةِ والمراقَبَةِ، وجوازِ تركِ ذلك في بعضِ الأوقاتِ والاشتغالِ بالدنيا، رقم: (2750).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم: (6008)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: من أحق بالإمامة، رقم: (674).

(5) سورة المؤمنون، الآية: (1 - 2).

وكان ﷺ يربطُ لهم بين الصلاة وثمارها الأخلاقية والسلوكية، كما قال تعالى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}**[1]، وفي الحديث القدسي فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ: **«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي، وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي، وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ وَابن السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ، وَرَحِمَ الْمُصَابَ، ذَلِكَ نُورُهُ كَنُورِ الشَّمْسِ، أَكْلَؤُهُ بِعِزَّتِي، وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلائِكَتِي، أَجْعَلُ لَهُ الظُّلْمَةَ نُورًا، وَفِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا، وَمَثَلُهُ فِي خَلْقِي كَمَثَلِ الْفِرْدَوْسِ فِي الْجَنَّةِ»**[2].

وبهذا المعنى تصبحُ الصلاةُ بحقيقَتِها ورُوحِها وسيلةً مُعينَةً على التزكية النفسية؛ إذ تُبعد المصلي عن الرذائل، وتطهِّرُه من القول السيء، وعمل السوء.

وعبادة الزكاة تنتمي في جذرها اللغوي إلى التزكية، وهي: جعلُ الشيء زكياً، أي: كثير الخيرات[3]، كما أشار القرآن الكريم إلى أثر الزكاة في تطهير النفس من رذائلها بقوله سبحانه: **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}**[4]، فقوله: **{تُطَهِّرُهُمْ}** إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله: **{وَتُزَكِّيهِمْ}** إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية، فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم[5]، فللزكاة دور عظيم في تزكية النفس؛ لأنها تدرب الإنسان على قهر نفسه وقمع شهواتها، فضلاً عن دورها في تزكية نفوس المحتاجين وتطهيرها من الحقد والحسد، والمقاربة بين نفوس المؤمنين، فيحل التحابُّ والتوادُّ محل البغضاء والكراهية[6].

وعبادة الصوم فيها تزكية للنفس، لما في الصوم من حبس النفس عن شهواتها المباحة، وقد بين القرآن الكريم الغاية من الصوم بقوله سبحانه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[7]، والتقوى مصدرها اللغوي (وقي)، والوقاية: هي حفظ الشيء مما يُؤذِيه ويضرُّه[8]، وتتحقَّقُ الوقاية بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتدل الآية الكريمة على أن الصوم يوصلُ إلى التقوى؛ لِمَا فِيهِ مِنْ قَهْرِ النَّفْسِ وَكَسْرِ الشَّهَوَاتِ[9]، وفي ذلك تزكيةٌ للنفس وتضييق لمسالك الشيطان[10].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: (45).

(2) أخرجه البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: 292هـ)، مسند البزار = البحر الزخار، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، (1988م)، [129/11]، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [147/2]: "رواهُ البزار، وفيه عبد الله بن واقد الحراني، ضعَّفَه النسائي والبخاري وإبراهيم الجوزجاني وابن معين في رواية، ووثَّقه أحمد، وقال: كان يتحرى الصدق، وأنكر على مَن تكلم به، وأثنى عليه خيراً، وبقية رجاله ثقات".

(3) زكا الزرع يزكو زكاء – ممدود -، أي: نما، وأزكاه الله، وكل شيء يزداد وينمي فهو يزكو زكاء. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: زكا، [358/14].

(4) سورة التوبة، الآية: (103).

(5) يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [376/6].

(6) يُنظَر: موسوعة التفسير الموضوعي، موضوع التزكية. https://modoee.com/show-book-scroll/315، تاريخ الزيارة: (2023/2/19م).

(7) سورة البقرة، الآية: (183).

(8) يقال: وقيت الشيء أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى، ووقاه: صانه ووقاه ما يكره، ووقاه: حماه منه. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: وقي، [358/14].

(9) يُنظَر: البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مصدر سابق، [196/1].

(10) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [497/1].

وقد كان النبي ﷺ يزكي أصحابه بعبادة الصوم، فيغرس فيهم معنى مراقبة الله تعالى فيقول: **«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ؛ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»**[1]، فالصائم الذي يراقب الله في جميع أحواله يترقى في درجات صومه من الكفِّ المؤقت عن شهوتَي البطن والفرج، إلى الصوم المستدام لسمعه وبصره ولسانه وجوارحه عن سائر الآثام؛ حتى يصل إلى درجة يصوم فيها قلبُه عما سوى الله[2].

وكان النبي ﷺ يحث على التزكية الأخلاقية، ويدرب أصحابَه عليها في أثناء صومهم، فيقول: **«وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»**[3].

وعبادة الحج لا تحتاج إلى كثير تأمُّل لتتبيَّن فيها معنى تزكية النفس، ويكفي أن يتأمَّلَ المسلم قولَه تعالى: **{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}**[4]، وَالرَّفَثُ: اسْمٌ جامعٌ لكل لغو وخنى وَفُحْشٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَالْفِسْقُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ خُرُوجٍ عَنْ طاعة الله ﷻ، والجدال: هُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي الْخُصُومَةِ وَالْمُمَارَاةِ بِمَا يُورِثُ الضغائن[5].

ويورد المفسرون الحكمةَ من اقتران الألفاظ الثلاثة في الآية الكريمة: (الرفث والفسوق والجدال في الحج)؛ معللين ذلك بأن "للإنسان أربع قوىً: قوة شهوانيةٌ بهيميةٌ، وقوةٌ غضبيةٌ سبعيةٌ، وقوةٌ وهميةٌ شيطانيةٌ، وقوة عقليةٌ ملكيةٌ، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث؛ البهيمية والسبعية والشيطانية؛ فقوله: **{فَلَا رَفَثَ}** إشارة إلى قهر الشهوانية، وقوله: **{وَلَا فُسُوقَ}** إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي توجب التمرد والغضب، وقوله: **{وَلَا جِدَالَ}** إشارة إلى القوة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال"[6]، وتلك هي التزكية؛ حيث أكَّدَ النبيُّ ﷺ على أن المستهدف من الحج هو تطهير الإنسان من الذنوب والمعاصي، ليرجع نقياً مهذباً فقال: **«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»**[7].

ويذكر الإمام الغزالي في إحيائه رحلة الحج التي تحقق تزكية النفس، وأفرد لها في كتاب

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام، رقم: (1151).

(2) يُنظَر: الغزالي، أبو حامد، محمَّد بن محمد (ت505هـ)، إحياء علوم الدين، دار الخير، دمشق، (1994م)، [234/1].

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الصوم، باب: هل يقول: "إني صائم" إذا شتم؟، رقم: (1904)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام، رقم: (1151).

(4) سورة البقرة، الآية: (197).

(5) يُنظَر: الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، [163/1].

(6) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، مصدر سابق، [405/3].

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أبواب المحصر وجزاء الصيد، باب: قول الله تعالى: {فَلَا رَفَثَ} [البقرة: 197]، رقم: (1819)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الحج، باب: فضل الحج والعمرة، رقم: (1350).

الحج باباً أسماه: (الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة)[1]، وذكر فيه من الآداب الدقيقة: أن تكون النفقة حلالاً، وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم؛ حتى يكون الهم مجرداً لله تعالى، والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره، ثم تحدث عن فهم عبادة الحج؛ مؤكِّداً أنها لا تحقق الغاية منها إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها، والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات، واستشعار الشوق إلى الله تعالى، والتحقُّق بأن البيتَ بيت الله ﷻ، وأن قاصدَه والحاج إليه إنما هو قاصدٌ إلى الله ﷻ وزائر له، فعليه أن يقطع العلائق بردِّ المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، وأن يتزوَّدَ بالنفقةِ الحلال، ومع الزاد يتزوَّدُ بالتقوى، كما قال تعالى: **{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}**[2]، وعندما يتجرَّدُ الحاجُّ من ثيابه، فإنه يتجرَّدُ من ثياب عصى الله فيها، فإذا اغتسل غُسل الإحرام غَسلَ قلبه من التعلق بالدنيا، فإذا لبس ثَـوْبَـيْ الإحرام فإنه يتذكر الكفن ولفه فيه؛ فإنه فيه سيرتديه، ثم يلبي إجابة لنداء الله تعالى، وعند وقوع بصره على البيت الحرام؛ فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه! وعندما يطوف حول الكعبة المشرفة؛ فإنه يتشبه بِالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الْحَافِّينَ حَوْلَ الْعَرْشِ الطَّائِفِينَ حَوْلَهُ[3]، فيطوف جسمه بالبيت، بينما يطوف قلبه بذكر رب البيت! وعندما يرمي الحصى إلى العقبة؛ فإنه في الحقيقة يرمي به وجه الشيطان.

3. كثرة ذكر الله جل في علاه:

إن من أهم وسائل تزكيةِ النفس أن يكثرَ العبدُ من ذكر الله تعالى، فهو المقصدُ الأسمى من العبادات المفروضة، فإذا تأمَّلْنا في فريضةِ الصلاة؛ وجدنا أن مقصدها ذكر الله تعالى، كما قال الله لنبيه موسى عليه السلام **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}**[4]، وعندما ذكر القرآن الكريم فريضةَ الصوم في رمضان ختم الآية بقوله: **{وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**[5]، وعبادة الحج، كلها ذكر لله تعالى، وحسبنا أن نتأمل في هذه الآيات الكريمات: **{فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ● ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ● فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}**[6]، ويستمر الذكر حتى في أيام رمي الجمرات، كما قال تعالى: **{وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ}**[7]، فالآيات القرآنية تدل على أن الحج كله ذكرٌ لله تعالى، كما جاء الحديث الشريف عَنْ

(1) يُنظَر: الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، [261/1].
(2) سورة البقرة، الآية: (197).
(3) يُنظَر: الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، [261/1].
(4) سورة طه، الآية: (14).
(5) سورة البقرة، الآية: (185).
(6) سورة البقرة، الآية: (198 - 200).
(7) سورة البقرة، الآية: (203).

عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ»**[1].

وعلى الرغم من أن هذه العبادات من أركان الإسلام، كما قال رسول الله ﷺ: **«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»**[2]؛ إلا أن الله تعالى لم يأمرنا بالإكثار منها! فالله تعالى لم يقل لنا صلوا كثيراً! فالصلوات المفروضة خمس في اليوم والليلة، كما قال رسول الله ﷺ: **«خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ، وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ؛ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»**[3].

وكذلك الصيام؛ فإن الله سبحانه لم يقل لنا صوموا كثيراً! بل فرض الله الصيام أياماً معدودات، شهراً واحداً في السنة هو شهر رمضان، قال تعالى: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}**[4].

كما أن الله لم يأمرنا في فريضة الزكاة أن ندفع مالاً كثيراً، بل جعلَ زكاة المالِ مقداراً محدداً معلوماً كما قال تعالى: **{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ● لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}**[5].

وعندما فرض الله علينا عبادة الحج، لم يقل لنا حجوا كثيراً، بل فرضَه اللهُ على المستطيع مرةً في العمر، قال تعالى: **{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}**[6].

لكن الله سبحانه حين أمرنا بذكره قال لنا: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ● وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}**[7]، وقد تكرَّرَ الأمرُ بكثرة ذكر الله تعالى في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كقوله تعالى في الدفاع عن الأوطان: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[8]، وكقوله تعالى عن صلاة الجمعة: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[9]، ففي الآيتين السابقتين جعل القرآن كثرة ذكر الله طريقاً للفلاح والنجاح.

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: المناسك، باب: في الرمَل، رقم: (1888)، واللفظ له، والترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب الحج، باب: ما جاء كيف ترمى الجمار، رقم: (902)، وقال: "هذا حديثٌ حسنٌ صحيح".

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «بُنِيَ الإسلامُ على خمس»، رقم: (8)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «بُنِيَ الإسلامُ على خمس»، رقم: (16).

(3) أخرجه أبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: الصلاة، باب: في المحافظة على وقت الصلوات، رقم: (425)، والنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)، في السنن الصغرى للنسائي = المجتبى من السنن، دار التأصيل، (1406هـ – 1986م)، في كتاب: الصلاة، باب: المحافظة على الصلوات الخمس، رقم: (461)، وابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في فرض الصلوات الخمس والمحافظة عليها، رقم: (1401)، وأحمد في مسنده، مصدر سابق، [377/37]، رقم: (22704)، و "إسناده صحيح".

(4) سورة البقرة، الآية: (185).

(5) سورة المعارج، الآية: (24 - 25).

(6) سورة آل عمران، الآية: (97).

(7) سورة الأحزاب، الآية: (41 - 42).

(8) سورة الأنفال، الآية: (45).

(9) سورة الجمعة، الآية: (10).

وحين حثنا القرآنُ الكريم على التأسي برسول الله ﷺ، قرن ذلك بكثرة ذكر الله فقال: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}**[1]، وحين عدد الصفات الإيمانية المستوجبة للأجر العظيم؛ جعل ختامها كثرة ذكر الله، فقال: **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}**[2].

وبالنظر إلى أهمية ذكر الله تعالى في تزكية النفس؛ فقد كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على السباق في ذكر الله تعالى، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ: **«سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ»** قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»**[3]، فجعل النبي ﷺ حقيقة الفوز في السباق في الجري لمن جعل كل نفس يتنفَّسُه؛ وكل خطوة يخطوها؛ لا يغفل عن ذكر الله تعالى فيها.

وكان النبي ﷺ يعلمهم فضل الذكر وشرفه، وكفى به شرفاً أن الله تعالى يذكر الذاكرين له كما قال في كتابه: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}**[4]، فإذا ذكر العبدُ ربَّه سبحانه كان في معيته، كما جاء في الحديث القدسي: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ»**[5].

وكان النبي ﷺ يعلمهم آداب الذكر، والتزام السكينة والخشوع، كما قال تعالى: **{وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}**[6].

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ»**، قَالَ: **وَأَنَا خَلْفَهُ، وَأَنَا أَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**، فَقَالَ: **«يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟»** فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **«قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»**[7].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: (21).
(2) سورة الأحزاب، الآية: (35).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، رقم: (2676).
(4) سورة البقرة، الآية: (152).
(5) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، رقم: (2675).
(6) سورة الأعراف، الآية: (205).
(7) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم: (4873).

وإن ذكر الله تعالى له أثرٌ كبير في طمأنينة القلب، قال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}**[1].

وإذا دخل نورُ الله إلى القلب يصبحُ الذاكر مؤثراً في الكائنات، فتذكر الله تعالى معه، كما قال الله تعالى عن نبيه داوود عليه السلام: **{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ● إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ● وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}**[2]، فلما كان أواباً صارَتِ الكائنات معه أوابة، فكان إذا ذكرَ اللهَ تعالى وترنَّمَ بقراءة كتابهِ الزبور؛ يقف الطير في الهواء يُرجع بترجيعه، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه، كلما سبح بكرة وعشياً[3]، قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}**[4]، وقد جاء في تفسير هذه الآية: كان داوود عليه السلام "إذا سبَّحَ به تُسبِّح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقفُ له الطيورُ السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات"[5]، ولا عجبَ ولا غرابة في ذلك، فقد ذكر القرآن الكريم أن كلَّ الكائناتِ تُسَبحُ بحمد الله، قال تعالى: **{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}**[6].

وإن أثر ذكر الله تعالى في تزكية النفس يتجلى في استقامة سلوك الإنسان، بالمراقبة المستدامة لله سبحانه، ويصلُ الذاكرُ إلى مقام الإحسان الذي جاء في الحديث الصحيح: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[7]، كما استَشْعَر هذا المقام نبيُّ الله يوسف عليه السلام حين دعتْه امرأة العزيز إلى الحرام: **{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}**[8].

وبالجملة فإن تزكيةَ النفس تحقِّقُ لصاحبها الفلاح والنجاح في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ● وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}**[9]، وفي الآخرة تضمن التزكية منزلة عالية في الجنة، كما جاء على لسان من آمنوا بموسى عليه السلام: **{وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ● جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}**[10].

---

(1) سورة الرعد، الآية: (28).
(2) سورة ص، الآية: (17 - 19).
(3) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [57/7].
(4) سورة سبأ، الآية: (10).
(5) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [497/6].
(6) سورة الإسراء، الآية: (44).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [لقمان: 34]، رقم: (4777).
(8) سورة يوسف، الآية: (23).
(9) سورة الأعلى، الآية: (14 - 15).
(10) سورة طه، الآية: (75 - 76).

■ المهمة الثالثة: تعليم الكتاب والحكمة

وهي المذكورة في قوله تعالى: **{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}**[1]، وقد تعدَّدَت أقوال المفسرين في معنى الكتاب والحكمة؛ فمنهم مَن قال: "يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه، واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط من معصيته"[2].

ومنهم مَن فسر الكتاب بالقرآن، والحكمة بالسنة[3].

ونقل القرطبي في تفسيره عن الإمام مالك -رحمه الله- بأن "الحكمة: هي المعرفة بالدِّين، والفقه في التأويل، والفهم الذي هو سجيَّة ونورٌ من الله تعالى"[4].

ويفسر ابن عاشور تعليم الكتاب بأنه "تبيين مقاصد القرآن، وأمرُهم بحفظ ألفاظه؛ لتكون معانيه حاضرة عندهم"، بينما يفسر المراد بالحكمة بأنها: "ما اشتملت عليه الشريعة من تهذيب الأخلاق وتقنين الأحكام؛ لأنَّ ذلك كلَّه مانع للأنفس من سوء الحال، واختلال النظام، وذلك من معنى الحكمة"[5]، وفي موضع آخر يرى ابنُ عاشور بأن الحكمةَ هي "التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد"[6].

ويرجح الباحث في المراد بتعليم الكتاب ما ذكره القرطبي عن ابن عباس ﷺ أن "الكتاب: الخط بالقلم؛ لأن الخط فَشَا في العرب بالشرع لمّا أمِروا بتقييده بالخط"[7]، ذلك أن النبي ﷺ كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، كما قال له الله تعالى: **{وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}**[8]، وبعث ﷺ في أمة أمية، كما قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**[9]، وسياق الآية يرجح أن يكون المراد أنه يعلِّم الأميين القراءة والكتابة، لا سيما أنَّ أولَ كلمة نزلَتْ من القرآن هي (اقرأ)، والآيات الخمس الأولى تتحدث عن تعليم القراءة والكتابة: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ● خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ● اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ● الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ● عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**[10].

وأما الحكمة فيرجح الباحث تعريفات أخرى ذكرَها أهلُ اللغة والحكماء؛ حيث أرجَعوا المادةَ اللغوية إلى الحكم، وهو المنع لإصلاح، فالحكمة تعني العدل؛ لأن العدل منع للظلم! والحكمة تعني إتقان الأمور؛ لأن إتقان الأمور منع فسادها، والحكمة تعني العلم؛ لأنه منع للجهل، والحكمة تعني الحلم؛ لأنه منع

---

(1) سورة الجمعة، الآية: (2).
(2) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [445/1].
(3) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [104/12].
(4) المصدر السابق نفسه، [350/1].
(5) يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [272/3].
(6) المصدر السابق نفسه، [44/2].
(7) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [104/12].
(8) سورة العنكبوت، الآية: (48).
(9) سورة الجمعة، الآية: (2).
(10) سورة العلق، الآية: (1 - 5).

للطيش، ومن هذا الباب فسر ابنُ عاشور الحكمة بأنها التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد[1].

وأما التعريف الاصطلاحي للحكمة فيختار الباحث التعريفين الآتيين:

الأول: الحكمة هي "فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي"[2].

الثاني: الحكمة هي معرفة الحقائق على ما هي عليه في الواقع، ثم العمل بمقتضاها، مع الإصابة في القول والعمل.

ونسب صاحب المدارج قريباً من هذا التعريف إلى الإمام مالك، وعقَّب على ذلك بأن الحكمة بهذا المعنى لا تكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان، ويقسم الحكمة إلى نوعين: علمية وعملية؛ فالعلمية: هي الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً؛ وأما الحكمة العملية، فهي: وضع الشيء في موضعه[3].

وقد قام ﷺ بالمهام الرسالية الأساسية، فكانت دار الأرقم أول مدرسة للتعليم دخل فيها الصحابة الأميون، فقرؤوا فيها القرآن الكريم، يقرؤون فيه إشارات عن علوم لم يعهدوها، قرؤوا فيه عن السماوات وارتفاعها، والأرض واتساعها، والبحار وأمواجها، والمخلوقات وأسرارها، كقوله تعالى: **{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}**[4].

قرؤوا فيه عن خلق الإنسان وتكوينه: **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ● خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ● يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}**[5].

قرؤوا فيه عن تاريخ الأمم السالفة: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ● إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ● الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ● وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ● وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ● الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ● فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ● فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ● إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}**[6].

بالقراءة ارتقت ثقافتهم، فعرفوا ربَّهم، وتركوا عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، وبالقراءة دفنوا الجهل بالعلم، وقهروا الظلم بالعدل، وقضوا على الخرافة بالعقل، وبالقراءة ارتقى مجتمعهم، فانتقلوا من الفقر إلى الغنى، ومن التنازع إلى التآلف، ومن الشقاء إلى السعادة؛ حتى صاروا علماء حكماء فقهاء أدباء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء.

---

(1) يُنظَر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، [44/2].

(2) يُنظَر: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت751هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، (1393هـ - 1973م)، [479/2].

(3) يُنظَر: المصدر السابق نفسه، [478/2].

(4) سورة النور، الآية: (40).

(5) سورة الطارق، الآية: (5 - 7).

(6) سورة الفجر، الآية: (6 - 14).

ولقد رسخ النبي ﷺ الأمر الرباني بالقراءة والتعلم، بقوله ﷺ: **«طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»**[1]، وقوله ﷺ: **«وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ»**[2].

(اقرأ) كانت البداية لارتقاء العرب، فأصبحوا روَّادَ الحضارة الإنسانيَّة، وتربَّعُوا على عرشها ثمانية قرون، كانت دمشق وحلب والكوفة وبغداد والقيروان وقرطبة والقاهرة ومراكش وفاس هي المراكز العلمية في العالم، وكانت جامعاتها مزدهرة، وصناعاتها متقنة ومتقدمة.

وبالحكمة انتشر الإسلام عن علم وقناعة ومحبة، فقد أمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أن يدعو إلى الله بالحكمة، فقال سبحانه: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**[3].

ومن معالم حكمة النبي ﷺ:

1. **مخاطبة الناس على قدر عقولهم،** ومراعاة مقتضى أحوالهم على اختلاف أقدارهم وأعمارهم، ففي الصحيح: **«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»**[4].
2. **الترفق والليـن في مخاطبـة النـاس** ومحاورتهم: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾**[5].
3. **مراعاة الظروف الزمانية والمكانية؛** فما يصلح في المرحلة المدنية قد لا يكون مناسباً في المرحلة المكية، وما يعرض أمام النجاشي ملك الحبشة قد يختلف عمَّا يعرض على أهل الطائف أو أهل مكة.

وكان ﷺ يراعي الحالة النفسية لمن يعلِّمهم أمورَ دينهم وهم صحابته والمؤمنون به، كما جاء في الصحيح: **«كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»**[6].

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، مصدر سابق، افتتاح الكتاب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: (224)، وهو حديث حسن، قال محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه عليه: (في الزوائد - [220/2] -: إسناده ضعيف لضعف حفص بن سليمان. وقال السيوطي: سئل الشيخ محي الدين النووي رحمه الله تعالى عن هذا الحديث فقال: إنه ضعيف – أي: سنداً - وإن كان صحيحاً – أي: معنى -. وقال تلميذه جمال الدين المزي: هذا الحديث رُوي من طرق تبلغ رتبة الحسن. وهو كما قال).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: (2699).

(3) سورة النحل، الآية: (125).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: العلم، باب: من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم: (127).

(5) سورة آل عمران، الآية: (159).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الدعوات، باب: الموعظة ساعة بعد ساعة، رقم: (6411)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم: (2821).

4. **التلطف بالقول الحسن**، كما قال الله تعالى: **{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}**[1]، وكما قال الله لموسى وهارون عليهما السلام: **{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ● فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}**[2].

وبعد معرفة المهام الأساسية الكبرى لرسالة سيدنا محمد ﷺ لا بد من التعرف إلى مواقف قريش من رسالة سيدنا محمد ﷺ.

❋❋❋

(1) سورة البقرة، الآية: (83).
(2) سورة طه، الآية: (43 - 44).

المبحث الرابع:
مواقف قريش من رسالة سيدنا محمد ﷺ وحكمته ﷺ في التعامل معها

أولاً: الحوار الفكري والإيماني

لقد نظر المكذبون من قريش إلى النبوة على أنها زعامة، فرفضوا الاعتراف بنبوة محمد ﷺ مع معرفتهم بصدقه، وقالوا: لو أن النبوة تصح في البشر لكان الأولى بها هم الزعماء، وقد حكى القرآن عنهم ما زعموا، فقال الله تعالى: **{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}**[1]، وقصدوا بالقريتين: مكة والطائف، ويعنون بالرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود، فأجابهم القرآن قائلاً: **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}**[2].

وكان دافعهم إلى ذلك الحسد! قال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل عمرو بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادقٌ هو أم كاذبٌ؟ فإنه ليس هنا من يسمَع كلامَك غيري، فقال أبو جهل: واللهِ إنَّ محمداً لصادقٌ، وما كذبَ محمدٌ قط، ولكن إذا ذهبَ بنو قُصي باللواءِ والسقايةِ والحجابةِ والندوةِ والنبوةِ، فماذا يكون لسائر قريش؟![3]

ومرَّ الرسول ﷺ ذات يوم بأبي جهل وأصحابه، فقالوا: يا محمد، إنا والله ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به[4]،

فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: **{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}**[5].

ولما علموا أنهم لن يستطيعوا أن يشككوا بصدقه؛ بدؤوا حملة إعلامية قوامها التشكيك بأن تكون النبوة في البشر، وقد رصد القرآن مواقفهم، وفندها ورد عليها بالحجج المنطقية، قال الله تعالى: **{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ● أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا}**[6]، فأمره ربه أن يرد عليهم بقوله: **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}**[7].

لقد نظر المكذبون إلى النبي محمد ﷺ على أنه مجرد بشر، وغابت عنهم حقيقته النورانية، وتميزه بالوحي! قال الله تعالى فاضحاً سرهم ونجواهم: **{وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}**[8]، فلما أقام القرآن عليهم الحجة في شبهتهم الأولى حاولوا التشكيك بمصدر الوحي، فنسبوا ما جاء به من الوحي الذي أعجز بلغاء العرب إلى رجل أعجمي، قالوا: إنه كان يلقاه، ومنه تلقى القرآن! فأقام القرآن

---

(1) سورة الزخرف، الآية: (31).
(2) سورة الزخرف، الآية: (32).
(3) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [33/11].
(4) الواحدي؛ أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، مصدر سابق، (ص: 207 - 208).
(5) سورة الأنعام، الآية: (33).
(6) سورة الفرقان، الآية: (7 - 8).
(7) سورة الكهف، الآية: (110).
(8) سورة الأنبياء، الآية: (3).

عليهم الحجة بقوله: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}**[1].

فلما سقط في أيديهم صاروا إلى تفسير انجذاب الناس إلى حقيقته النورانية بأنه نوع من السحر، وشنوا بذلك حملة إعلامية دعائية طالت قبائل العرب كلها، حتى كان الرجل منهم إذا أراد دخولَ مكة يضعُ الكُرسف - القطن - في صملاخي أذنَيه حتى لا يصيبه من سحر محمد ﷺ -بزعمهم -، وتذكر كتب السيرة عن واحد ممن طالتهم تحذيرات المعاندين من سحر محمد ﷺ بحسب زعمهم، وهو الطّفَيْل بْنِ عَمْرٍو الدّوْسِيّ، وَكَانَ رَجُلًا شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا؛ حيث يروي أنه قَدِمَ مَكّةَ وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ بِهَا، فَمَشَى إلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وحذروه من أن محمداً قد فَرّقَ جماعتهم، وَشَتّتْ أمرهم، وأن قوله كَالسّحْرِ يُفَرّقُ بَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ! وقالوا له: وَإِنّا نَخْشَى عَلَيْك وَعَلَى قَوْمِك مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَلَا تُكَلّمَنّهُ وَلَا تَسْمَعَنّ مِنْهُ شَيْئًا! وقد تأثر الطفيل بدعايتهم حتى حشا في أذنيه كرسفاً (قطناً) حتى لا يسمع من محمد شيئاً! فلما مضى إلى المسجد، فَإِذَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ! قَالَ الطفيل: فَقُمْت مِنْهُ قَرِيبًا، فَأَبَى اللّهُ إلّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ، قَالَ: فَسَمِعْت كَلَامًا حَسَنًا! وانتهى به الأمر إلى أن أسلم رضي الله عنه، وشهد شَهَادَةَ الْحَقّ[2].

وقد أيد الله نبيه محمداً ﷺ ونفى التهم التي تشكك برسالته، وخاطبه بقوله: **{إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}**[3].

وكان حديث القرآن عن المستهزئين باتجاهين:

- **الاتجاه الأول:** الإخبار عن بيان مصير المستهزئين بالرسل من الأمم الغابرة، قال الله تعالى: **{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}**[4]، وضرب مثالاً لاستهزاء بعض الأمم برسلها في قصة نوح ، قال الله تعالى: **{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}**[5]، وفي نفس الآيات، وما بين إشارة بدء الطوفان بقوله: **{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ}**[6]، وانتهاء الطوفان بقوله: **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**[7]، يقصُّ علينا القرآن حكايةَ هلاك المستهزئين بالرسل.
- **الاتجاه الثاني:** الدفاع عن النبي محمد ﷺ ويعطي القرآن أمثلة عن استهزاء بعض المنافقين بالمؤمنين، ويتوعدهم فيقول: **{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**[8].

---

(1) سورة النحل، الآية: (103).
(2) يُنظَر: السهيلي؛ عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، مصدر سابق، [168/2].
(3) سورة الحجر، الآية: (95).
(4) سورة الأنعام، الآية: (10).
(5) سورة هود، الآية: (38).
(6) سورة هود، الآية: (40).
(7) سورة هود، الآية: (44).
(8) سورة التوبة، الآية: (79).

ومن أمثلة ذلك: اتهامات المشركين للرسول ﷺ بأنه ساحر، وبالكذب والاختلاق والجنون! فقد جاء في القرآن الكريم قولهم بأنه "ساحر"، قال الله تعالى: **{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}**[1]، وجاء في القرآن الكريم أيضاً قولهم عنه "مجنون"، قال الله تعالى: **{ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ}**[2]، وجاء أيضاً بالمقابل الدفاع عنه ﷺ، قال الله تعالى: **{فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ● أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ● قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ}**[3]، لما قال المشركون في مكة عن النبي ﷺ "شاعر" و"مجنون"؛ قال الله تعالى: **{وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}**، رد عليهم القرآن في نفس الآية قائلاً: **{بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}**[4]، وقال أيضاً: **{وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ}**[5].

ثانياً: الحكمة في تجاوز تحديات الإيذاء والاعتداء الجسدي

يذكر القرآن الكريم عدداً من الأحداث التي جرت مع النبي ﷺ في مواجهة المكذبين الذين مارسوا الاعتداء على النبي ﷺ والمؤمنين به، ومن تلك الأحداث:

الهجرة النبوية المباركة: يشير القرآن الكريم إلى أن عدداً من المؤمنين تعرضوا للتعذيب والإيذاء في محاولة لإكراههم على تغيير معتقداتهم، وبعضهم تعرض للتصفية الجسدية، فجاء الأمر الرباني بالهجرة وعدم المواجهة، والحفاظ على السلمية في مواجهة تلك الضغوط.

ومن النصوص القرآنية التي تحدثت عن هذا الأمر قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا}**[6]، والآية واضحة الدلالة في أمر المؤمنين بالهجرة.

وقوله تعالى: **{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}**[7]، والآية واضحة الدلالة في الهجرة إلى أرض الله الواسعة.

(1) سورة ص، الآية: (4).
(2) سورة الدخان، الآية: (14).
(3) سورة الطور، الآية: (29 - 31).
(4) سورة الصافات، الآية: (36 - 37).
(5) سورة يس، الآية: (69).
(6) سورة النساء، الآية: (97).
(7) سورة النساء، الآية: (100).

وقوله تعالى: **{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}**[1]، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في عمَّار بن ياسر رضي الله عنه، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مُكرَهاً، وجاء معتذرًا إلى النبي ﷺ، فأنزل اللهُ هذه الآية، وفي رواية أن النبي ﷺ قال لعمَّار: **«كَيفَ تَجِدُ قَلبَك؟»** قال: مُطْمَئِناً بِالإِيمَانِ، قال النبيُّ ﷺ: **«إنْ عَادُوا فَعُدْ»**[2].

وقد بلغ الأمر ذروته في محاولة قتل النبي ﷺ، وقد أشارَ القرآنُ الكريم إلى هذه الحادثة بقوله سبحانه: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}**[3]، ويذكر المفسرون وكتَّاب السيرة النبوية أن هذه الآية نزلَتْ على إثرِ تآمرِ المشركين على التخلُّص من رسول الله ﷺ؛ حيث اجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا في أمرِه، فاقترحَ بعضُهم أن يَحبسوه في الحديد! بينما رأى فريقٌ آخر أن يتمَّ نفيُه من مكة! ثم أجمَعوا على رأي أبي جهل بن هشام الذي قال: "أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلِيدًا نَسِيبًا وَسِيطًا فِينَا، ثُمّ نُعْطِي كُلّ فَتًى مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمّ يَعْمِدُوا إِلَيْهِ، فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ، فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ، فَإِنّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ جَمِيعًا... فَتَفَرّقَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ"[4].

وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلة هجرة النبي ﷺ وما جرى له في غار ثور، وكيف نجاه الله سبحانه من محاولة الاغتيال الفاشلة، قال تعالى: **{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}**[5].

---

(1) سورة النحل، الآية: (106).
(2) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [605/4].
(3) سورة الأنفال، الآية: (30).
(4) يُنظَر: ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، سيرة ابن هشام، مصدر سابق، [480/1].
(5) سورة التوبة، الآية: (40).

ثالثاً: صد العدوان في الحروب القتالية المفروضة

بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة لم يتخذ إجراءات انتقامية ممَّن حاولوا اغتياله، ولم يذكرهم بشيء! بل دعا في أول خطبة خطبها إلى التلاحم وإفشاء السَّلام! كما جاء في الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنه قَالَ: **«لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ! فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلام، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»**[1].

وإبَّانَ وصوله ﷺ بنى المسجد، وأبرم وثيقة المدينة، وعزَّز فيما بين سكانها التلاحم والتعاون لبنائها وحمايتها والمحافظة على نسيجها الاجتماعي؛ على اختلاف معتقداتهم وأعراقهم وقبائلهم، وأطفأ الحروب القبلية بين الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وقد امتدح القرآن الكريم هذا التلاحم والتعاون، فقال سبحانه: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**[2].

ولم يَرُقْ للمستكبرين والمعاندين من قريش هذا الإنجازُ الحضاري الراقي، فشنوا الحروب القتالية ضد النبي ﷺ والمؤمنين به والمتحالفين معه، وقد أشار القرآن الكريم إلى **أبرز هذه الحروب ونتائجها، ومن تلك الإشارات:**

1. يوم بدر:

يشير القرآن الكريم إلى عدم رغبة النبي ﷺ وصحابته بالقتال، وأنهم يميلون إلى استرداد أموالهم المنهوبة من قريش بغير قتال، قال تعالى: **{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ● لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}**[3].

وصرح القرآن الكريم بنتيجة هذه المعركة وانتصار النبي ﷺ وصحابته فيها، رغم أنها فرضت عليهم فرضاً! قال تعالى: **{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ● إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ● بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ● وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}**[4].

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: بابٌ، رقم: (2485)، وقال: "هذا حديث صحيح"، وابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: الأطعمة، باب: إطعام الطعام، رقم: (3251).

(2) سورة الحشر، الآية: (9).

(3) سورة الأنفال، الآية: (7 - 8).

(4) سورة آل عمران، الآية: (123 - 126).

2. يـوم أحـد:

شنَّ الجاحدون من قريش حرباً انتقامية على المدينة المنورة، وخرج أهلُ المدينة للدفاع عنها، والتقى الفريقان في ساحة أحُد، وقُتِل من المسلمين سبعون، ومنهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وجرح العشرات من الصحابة، وكادَ النبي ﷺ يُقتَل في هذه المعركة، وفي ذلك يقول الله تعالى: **{إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}**[1]، وقد أورد المفسرون عن السُّدِّي قوله: لما شَدَّ المشركون على المسلمين بأُحد فهزموهم دخلَ بعضهم المدينة، وانطلقَ بعضُهم فوقَ الجبل إلى الصخرة، فقاموا عليها، وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: **«إليَّ عِبَادَ اللهِ، إليَّ عباد الله!»**[2]، ونزل القرآن الكريم مضمداً للجراحات النفسية، ومعلياً مكانة الشهداء عند ربهم، قال تعالى: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ● فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ● يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}**[3].

3. يـوم الأحـزاب:

حاول المعتدون استئصال النبـي ﷺ والمؤمنين به، وغزو المدينةَ، فجمعوا الأحزاب من قبائل العرب للإغارة بقوة ضاربة لا يستطيع النبي ﷺ ومن معه صدها! وقد حرص النبي ﷺ على حقن الدماء ومنع القتال، فحفر الخندق بين الجبلين؛ لئلا تحصل مواجهة تراق فيها دماء الطرفين! وعُرفت هذه الحرب بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق، وقد سميت في القرآن الكريم سورة باسم الأحزاب توثق لهذه المعركة، وفيها قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ● إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ● هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ● وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}**[4].

وفي مقابل موقف المنافقين سجل القرآن الكريم موقف المؤمنين، فقال سبحانه: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}**[5]، ونجحَت خطةُ النبي ﷺ في منع القتال وحقن الدماء، وكانت نتيجة هذه الحرب العدوانية، كما قال تعالى: **{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}**[6].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: (153).
(2) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [137/2].
(3) سورة آل عمران، الآية: (169 - 171).
(4) سورة الأحزاب، الآية: (9 - 12).
(5) سورة الأحزاب، الآية: (22).
(6) سورة الأحزاب، الآية: (25).

4. يوم الحديبية:

بعد جهود كبيرة ومحاولات كثيرة تمكَّنَ النبي ﷺ مِن إبرام اتفاقية سلام مع مَن يحاربه من قريش وأحلافهم، وهذا الحدث معروف في السيرة النبوية باسم: "صلح الحديبية"، وذكره القرآن الكريم باسم: "الفتح المبين"، في سورة اسمها سورة الفتح مطلعها: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ● لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ● وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}**[1]، والواضح من الآية الكريمة أن القرآن الكريم وصفَ صلح الحديبية بالفتح المبين، كما وصفَه بالنصر العزيز، وأكَّدَ القرآنُ الكريم على أن المسلمين سوف يَشهدون حقيقة الفتح بهذا السَّلام والصلح في القريب العاجل، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}**[2]، قال المفسرون وكتَّاب السيرة النبوية: الفتح القريب هو صلح الحديبية، كما نُقل عن الزهري قوله: "فما فُتِح في الاسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنةُ، ووضَعت الحربُ أوزارها، وأمنَ الناسُ كلَّمَ بعضُهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلَّمْ أحدٌ في الاسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تَينك السنتين مثل مَن كان دخل في الاسلام قبل ذلك أو أكثر"[3].

وكلام الزهري فيه دليل واضحٌ على قيمة السَّلام التي أراد النبي ﷺ تحقيقها منذ بعثته.

(1) سورة الفتح، الآية: (1 - 3).
(2) سورة الفتح، الآية: (27).
(3) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية (من البداية والنهاية)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (1395هـ - 1976م)، [324/3].

5. يـوم فتـح مكـة:

نقضَتْ قريشُ معاهدةَ السَّلام - صلح الحديبية - مع النبي ﷺ، وذلك بالإغارة على قبيلة خزاعة، الذين هم حلفاءُ النبي ﷺ، فمهد ذلك السبيل إلى فتح مكة، وقد دخلها رسول الله ﷺ فاتحاً في عشرة آلاف من صحابته، ومنح ﷺ أهل مكة الأمان، فلا يتعرَّضُ أحدٌ لهم بسوء، واستُثنِيَ مَن ارتكبوا جرائم ضد الإنسانيَّة، وعددهم أقل من عشرة، قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفيانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ»، قال: فَتفرَّق الناسُ إلى دُورهم، وإلى المسجدِ[1]، وتحقَّقت الرؤيا الحق، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كما قال تعالى: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ● وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ● فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}**[2]، وأجمع المفسرون على أن المراد بالفتح هنا هو فتح مكة، قال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: "لما فتَحَ اللهُ على رسولِه ﷺ مكةَ، قالت العربُ بعضهم لبعض: ليس لكم بهؤلاء القوم يدان! فجعلوا يدخلون في دين الله أفواجًا، أي: قبائل قبائل"[3].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المراد بالنّصر هو صُلح الحُدَيْبِية، وأنّ الفتْح هو فتْح مكة[4].

وقد رأى عدد من أصحاب النبي ﷺ أن سورة النصر فيها نعي رسول الله ﷺ وقرب انتهاء أجله، ففي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ هَذِهِ الآيَةِ، فَقَالَ: (أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ)، فَقَالَ عمر رضي الله عنه: (مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ!)[5].

وفي حجة الوداع نزل قوله تعالى: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}**[6]، وفيها أرسى رسول الله ﷺ دعائم السَّلام، وقال: **«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوالَكُمْ عَليكُمْ حَرامٌ كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هَذا، فِي شَهْرِكُمْ هَذا، فِي بَلَدِكُمْ هَذا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ...، وَربا الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعٌ...، فَاتَّقوا اللهَ فِي النِّسَاءِ...، وإِنِّي قَدْ تَركْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتابَ اللهِ، وأَنتُمْ مَسؤولُونَ عنِّي، فَما أَنتُم قَائِلُونَ؟ قَالوا: نَشْهدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقالَ: اللهُمَّ اشْهَدْ»**[7].

وبعد عودته ﷺ من حجة الوداع بثلاثة أشهر انتقل إلى الرفيق الأعلى؛ لتستمر من بعده مسيرة الحضارة الإنسانيَّة، ويصل نورها إلى ما وصلَ إليه الليلُ والنهار.

* * *

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء في خبر مكة، رقم: (3022)، "صحيح لغيره".

(2) سورة النصر، الآية: (1 - 3).

(3) يُنظر: ابن أبي زَمَنِين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى المري، الإلبيري، المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (ت 399هـ)، تفسير القرآن العزيز، تحقيق حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، مصر - القاهرة، مكتبة الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، (1423هـ - 2002م)، [170/5].

(4) يُنظَر: ابن عطية الأندلسيّ، تفسير ابن عطية = المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مصدر سابق، [705/8]، وموسوعة التفسير المأثور، إعداد: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، مصدر سابق، [650/23].

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: (3627).

(6) سورة المائدة، الآية: (3).

(7) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، رقم: (1218).

وبهـذا نحـط رحالنـا عنـد
القيـم الإنسـانية المشتركـة
بين الرسـالات السـماوية
الـثلاث التي أسـهمت في
ارتقـاء الحضـارة الإنسـانية.

الفصـل الثانــي:
القيـم الإنسانيَّـة المشتركـة بيـن الرسـالات السَّماويَّـة الثـلاث

وفيه أربعة مباحث:

- المبحـث الأول: قيمة النفس الإنسانيَّة وكرامتها.
- المبحـث الثانـي: قيم السَّلام والتسامح والإحسان بين بني الإنسان.
- المبحـث الثالث: قيمة التراحم بين بني الإنسان.
- المبحـث الرابـع: القيم الأسرية والاجتماعية.

المبحـث الأول:
قيمة النفس الإنسانيَّة وكرامتها

أولاً: الكرامـة الإنسانيَّـة

الكرامةُ الإنسانيَّة قيمةٌ سامية في الرسالات السَّماويَّة الثلاث، فقد اتفقَت على تقديس كرامة الإنسان، وتفضيله على سائر المخلوقات، وتسخير الكائنات له.

فالنصوص القرآنية وتفسيراتها المعتمدة تؤكِّدُ على أنَّ اللهَ تعالى كرَّمَ الإنسانَ وفضَّلَه على كثير من المخلوقات، كما جاء في القرآن الكريم: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}**[1].

وتشير الآيات القرآنية إلى عدد من مظاهر هذا التكريم، ومنها:

1. **الاستخلاف:** أنّ الله ﷻ جعل خلق الإنسان مرتبطاً باستخلافه في الأرض، وأخبر بذلك ملائكته تشريفاً وتكريماً للإنسان، **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}**[2].

2. **سجود الملائكة:** وقد ظهر التكريم الرباني للإنسان حين أمرَ اللهُ الملائكة بالسجود لأبي البشر آدم عليه السلام، **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}**[3]، وهذا السجود هو سجود تحية وإكرام، واعتراف بالمكانة التكريمية الربانية للإنسان، وقد استاء إبليس من هذا التكريم، وأعلن عداوته للإنسان، كما حكى القرآن الكريم عن موقف الشيطان: **{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}**[4].

3. **أحسن تقويم:** ومن مظاهر تكريم الله للإنسان أنه - سبحانه - خلقَه على أحسن الهيئات وأكملها؛ إذ لا يوجدُ جنسٌ في المخلوقات أحسنَ منه صورةً؛ كما قال تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}**[5]، يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه، وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدِّينيَّة[6].

4. **نفخ الروح:** إن من أعلى مظاهر التكريم للإنسان أنَّ اللهَ نفخَ فيه من روحهِ على وجه الخصوص؛ كما ذكر القرآن الكريم: **{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ● فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}**[7].

5. **تعليم الإنسان:** إن العلم الذي منحه الله للإنسان كان سبباً واضحاً في التكريم والتفضيل؛ كما ذكر القرآن الكريم: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}**[8]، فاستحق بهذا العلم التفضيل على الملائكة، وذلك بعد أن تفوق آدم على الملائكة وأنبأهم بأسماء الأشياء التي علمه الله إياها، في حين اعترفَت الملائكةُ بعدم معرفتِها بتلك الأسماء، وبعدَ هذا الموقف جاء الأمر بالسجود لآدم: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}**[9].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: (70).
(2) سورة البقرة، الآية: (30).
(3) سورة البقرة، الآية: (34).
(4) سورة الإسراء، الآية: (62).
(5) سورة التين، الآية: (4).
(6) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [97/5].
(7) سورة ص، الآية: (71 - 72).
(8) سورة البقرة، الآية: (31).
(9) سورة البقرة، الآية: (34).

6. **التفضيل بالعقل:** يرى الإمام القرطبي إلى أن الصحيح الذي يعوّل عليه هو أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، وبه يستصلح شؤونه، ويدفع الأضرار عنه، ويكتسب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة[1].

ونصوص الكتاب المقدس لا تختلف في سردياتها على تقديس كرامة الإنسان، وأنه سيد الكائنات، وأنه مركب من روح خالدة، ونفس خالدة، وجسد، وأن الله خلق الإنسان الأول (آدم) وخلق من آدم زوجة له، وجعله كائناً عاقلاً حراً مميزاً عن جميع دواب الأرض والحيوانات! وتكاثرت البشرية من ذكر وأنثى، وأن الخالق يريد أن يصبح جميع الناس كراماً وأبناء رمزيين للرب الإله! يحبونه كما يحب الأبناء آباءهم! ويحب بعضُهم بعضَهم الآخر كما يحب الإخوة إخوتهم[2].

وفي سفر التكوين تبرزُ معاني التكريم الإلهي للإنسان حيث جاء: "وَقَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ. فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ، عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ"[3]، وهذه الفقرة فيها دليل واضح على تسخير الكائنات للإنسان!

وتتفق مضامين النصوص في الكتاب المقدس على تكريم الإنسان بنفخ روحِ الله فيه، كما جاء في سفر التكوين: "وجبلَ الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخَ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية"[4].

ويذكر شراح الكتاب المقدس حول معنى خلق الإنسان على صورة الله بحسب النصوص في الأسفار والأناجيل، فيقولون: إن الإنسان مخلوق على صورة الله بمعنى أن الله وضع في الإنسان ثلاثة خصائص:

- **الأولى:**
  أعطاه عقلاً وروحاً؛ ليعرف الله.
- **الثانية:**
  أعطاه قلباً وعواطف؛ كي يحب الله.
- **الثالثة:**
  أعطاه إرادة وحريَّة الاختيار؛ كي يطيع الله[5].

وتلك أرقى درجات التكريم الإلهي للإنسان!

---

(1) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [310/7]، والخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، مصدر سابق، [270/4].

(2) يُنظَر: غسان سليم سالم، محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، (2004م)، (ص: 101) وما بعدها.

(3) سفر التكوين، الإصحاح: (1)، فقرة: (26 - 27).

(4) سفر التكوين، الإصحاح: (2)، فقرة: (7).

(5) يُنظَر: صفحة "تأملات في الكتاب المقدس"، تاريخ الزيارة: (2023/3/4م). https://ar-ar.facebook.com/295287647191133/posts/564788273574401

ثانيـاً: تقديس قيمـة حيـاة النفـس الإنسانيَّـة وحرمتهـا

حفـظ الحيـاة للإنسـان

حياةُ الإنسان مقدَّسة في الرسالات السَّماويَّة الثلاث، وهي مِن المقاصد الكبرى التي جاءَت التشريعات الربانية بحفظها، وتحريم الاعتداء عليها، وتعظيم حرمتها وقدسيتها:

فالنصوص القرآنية والأحاديث الشريفة والممارسات في وقائع السيرة النبوية تؤكِّدُ على ضمان حياة الإنسان، وعدم القيام بأي عمل يشكل اعتداء على النفس الإنسانيَّة، أو انتهاكاً لحرمتها؛ حتى ولو كانت روح الإنسان قد فارقت جسده، ومن ذلك:

1. نصَّ القرآن الكريم على **ضمان حق الحياة للإنسان**، ونهى عن قتل النفس بغير حق، قال تعالى: **{وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}**[1]، وكان الإنسان يستبيح أن يقتل ولدَه لأجل الجوع، فجاء التحريم لهذه الجريمة البشعة بقوله تعالى: **{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}**[2]، ولأجل قدسية النفس الإنسانيَّة حرم الله اعتداء الإنسان على نفسه، فلا يجوز للإنسان أن يُزهق روحه، قال تعالى: **{وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}**[3].

وقد ضمن الله هذا الحق في جميع الشرائع كما ذكر القرآن الكريم عن الكتب السَّماويَّة السابقة، قال تعالى: **{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}**[4].

2. ونص القرآن الكريم على **تحريم قتل النفس الإنسانيَّة ظلماً** في الوصايا العشر التي اتفقت على مضمونها الكتب السَّماويَّة الثلاث، كما جاء في قوله تعالى: **{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**[5].

ونقل القرطبي عن بعض علماء أهل الكتاب أن هذه الآيات هي مفتتح التوراة، وأورد قول ابن عباس ﷺ أن هذه الآيات من المحكمات التي أجمعَت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في مِلّة! وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى[6].

فأما العهد القديم، فنجد أنه يحرم القتل وينهى عنه ضمن الوصايا العشر، ففي العهد القديم، نقرأ على سبيل

(1) سورة الإسراء، الآية: (33).
(2) سورة الإسراء، الآية: (31).
(3) سورة النساء، الآية: (29).
(4) سورة المائدة، الآية: (32).
(5) سورة الأنعام، الآية: (151).
(6) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [50/5].

المثال: "لاَ تَقْتُلْ"[1]، ويحكي لنا العهد القديم كيف أن قايين قتل أخاه هابيل، وكيف أن الله عاقب قايين على هذه الجريمة باعتبارها أول جريمة قتل في ولد آدم، ففي العهد القديم نقرأ: "وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ، وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ، فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟ فَقَالَ: لاَ أَعْلَمُ، أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟ فَقَالَ: مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ، فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ، مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا، تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ"[2].

ولم يكتفِ العهدُ القديم بتحريم القتل، وإنما فرضَ عقوبةً مكافئة له وهي القتل حداً، فمَن قَتَل يُقتَل، ففي العهد القديم نقرأ: "مَنْ ضَرَبَ إِنْسَانًا فَمَاتَ يُقْتَلُ قَتْلًا"[3].

وفي العهد الجديد ورد في إنجيل متى عن احترام حق حياة الإنسان: "قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ..."[4].

3. وجاء **تشريع القصاص حماية لحق الحياة:** ذكر القرآن الكريم مبدأ القصاص: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ● وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[5].

وقد ذكر القرآن الكريم أن هذا المبدأ مشروعٌ في الكتب السَّماويَّة السابقة، قال تعالى: **{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**[6].

4. ونصَّت التشريعات القرآنية على **إنزال أشد العقوبات بحق الذين يرتكبون الجرائم،** وينتهكون حياة الآخرين، قال تعالى: **{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**[7].

---

(1) سفر التثنية، الإصحاح: (5)، فقرة: (17).
(2) سفر التكوين، الإصحاح: (4)، فقرة: (8 - 16).
(3) سفر الخروج، الإصحاح: (21)، فقرة: (12).
(4) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (21 - 22).
(5) سورة البقرة، الآية: (178، 179).
(6) سورة المائدة، الآية: (45).
(7) سورة المائدة، الآية: (33).

ونصوص الكتاب المقدس تصرح بالعقوبات الرادعة بحق مَن يسفك دم الإنسان وينتهك حرمة النفس الإنسانيَّة، فقد جاء في سفر التكوين: "سَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ بِالإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ؛ لأَنَّ اللهَ عَلَى صُورَتِهِ عَمِلَ الإِنْسَانَ..."[1].

وفي سفر العدد: "كُلُّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا فَعَلَى فَمِ شُهُودٍ يُقْتَلُ الْقَاتِلُ، وَشَاهِدٌ وَاحِدٌ لاَ يَشْهَدْ عَلَى نَفْسٍ لِلْمَوْتِ، وَلاَ تَأْخُذُوا فِدْيَةً عَنْ نَفْسِ الْقَاتِلِ الْمُذْنِبِ لِلْمَوْتِ، بَلْ إِنَّهُ يُقْتَلُ..." [2].

ويلاحظ أن الكتاب المقدس شدَّدَ في العقوبةِ أكثر، ولم يقبل الديةَ ولا الفدية من القاتل الذي يزهق النفس الإنسانيَّة ظلماً وعدواناً!

***

(1) سفر التكوين، الإصحاح: (9)، فقرة: (6).
(2) سفر العدد، الإصحاح: (35)، فقرة: (30 - 31).

المبحـث الثانـي:

قيم السَّلام والتسامح والإحسان بين بني الإنسان

السَّلام من القيم المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث؛ حيث اتفقت النصوص الدِّينيَّة على إعلاء قيمة السَّلام، والحث على صنعه، وإفشائه بين الناس:

ففي النصوص القرآنية والنبوية ما يؤكِّدُ على أن السَّلام من مقاصدِ الإسلام، والمدقق يرى أن الإسلامَ شقيق السَّلام، كلاهما مشتق من مصدر واحد في اللغة العربية، وقد وردت كلمة "السَّلام" ومشتقاتها في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة، ومن تأكيداتها:

1. الله تعالى هُوَ السَّلام: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلام}**[1]، واللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ مصدر السَّلام: **{سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}**[2]، والله يهدي إلى السَّلام: **{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ● يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام}**[3]، والله يدعو إلى السَّلام: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً}**[4]، والجنة في القرآن هي دار السَّلام، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلام}**[5]، ووعد المؤمنين في الآخرة بدار السَّلام، فقال سبحانه عنهم: **{لَهُمْ دَارُ السَّلام عِنْدَ رَبِّهِمْ}**[6]، والتحية التي يتبادلها أهل الجنة هي السَّلام، كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ● دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[7].

2. وَالسَّلام منة ربانية منحها الله تعالى للأنبياء والمرسلين: كما جاء في سورة الصافات في مواضع متعددة: **{سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ}**[8]، **{سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}**[9]، **{سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}**[10]، **{سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ}**[11]، وختمت السورة بالسَّلام على جميع المرسلين: **{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ● وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**[12].

3. السَّلام رسالة عباد الرحمن حتى مع الجاهلين، قال تعالى: **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}**[13].

4. السَّلام على غير المؤمنين أمر رباني، قال تعالى: **{وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ● فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}**[14].

---

(1) سورة الحشر، الآية: (23).
(2) سورة يس، الآية: (58).
(3) سورة المائدة، الآية: (15 - 16).
(4) سورة البقرة، الآية: (208).
(5) سورة يونس، الآية: (25).
(6) سورة الأنعام، الآية: (127).
(7) سورة يونس، الآية: (9 - 10).
(8) سورة الصافات، الآية: (79).
(9) سورة الصافات، الآية: (109).
(10) سورة الصافات، الآية: (120).
(11) سورة الصافات، الآية: (130).
(12) سورة الصافات، الآية: (181 - 182).
(13) سورة الفرقان، الآية: (63).
(14) سورة الزخرف، الآية: (88 - 89).

5. وحكى القرآن الكريم عن إبراهيم الخليل أبي الأنبياء عليه السلام أنه منح السَّلام لأبيه رغم إعراضه وتهديده: **{قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ● قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}**[1].

6. السَّلام قيمة عظيمة كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَطْلُبُهَا مِنْ رَبِّهِ عَقِبَ كُلِّ صَلاَةٍ، فَعَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلاَّ مِقْدَارَ مَا يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلام، وَمِنْكَ السَّلام، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ»**[2].

7. إِنَّ أَوَّلَ ما قاله رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ كَلِمَاتٌ مُوجَزَةٌ تَصْدَحُ بِالْحُبِّ، وَتَأْمُرُ بِالسَّلام، قَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلام، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ»**[3].

8. وكَانَ ﷺ يُوصِي بِتَحْقِيقِ مبدأ السَّلام، لِكَافَّةِ بَنِي الإِنْسَانِ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **«تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»**[4]، وفي صحيح البخاري: بَاب إِفْشَاءُ السَّلام مِنْ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ عَمَّارٌ رضي الله عنه: (ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلام لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ الْإِقْتَارِ)[5].

9. وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى إلقاء السَّلام؛ ولو على أنفسنا، قال تعالى: **{فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً}**[6]، ودعانا خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ إلى إفشاء السَّلام وبذله للعالمين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلام بَيْنَكُمْ»**[7].

---

(1) سورة مريم، الآية: (46 - 47).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم: (591).

(3) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، رقم: (2485)، وقال: "هذا حديث صحيح"، وابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: الأطعمة، باب: إطعام الطعام، رقم: (3251).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: إفشاء السلام من الإسلام، رقم: (28)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام وأيٌ أموره أفضل، رقم: (39).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: إفشاء السلام من الإسلام، (دون رقم، في ترجمة الباب).

(6) سورة النور، الآية: (61).

(7) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، رقم: (54).

10. ولتحقيق السَّلام دعا الإسلامُ إلى التحلي بقيم العفو والتسامح، فهو قيمة إنسانية ودينية تعني نسيان الإنسان للماضي المؤلم بكامل إرادته، والعفو عن المخطئ والمسيء، والنظر بإيجابية إلى الآخر، والتعامل بالرحمة والتعاطف والحنان، **والتسامح الديني هو التعايش مع الناس جميعاً، وإرادة الخير لهم، وعدم التمييز فيما بينهم بسبب اللون أو الجنس أو الجنسية أو الدين أو المذهب أو الطائفة،**
ويرتبط بالعديد من القيم، ومن أبرزها:

أ. حرية الإنسان في معتقده: عملاً بقوله تعالى: **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}**[1]، وقوله تعالى: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**[2]، وقوله تعالى: **{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}**[3].

ومن نماذج تطبيق هذه القيمة: أنه كان للنبي ﷺ غلام يهودي يخدمه[4]، وإن الخدمة تقتضي أن يدخل بيته، ويستقبل ضيفانه، ويطَّلع على أحواله الخاصة التي قد لا يتأتى لغير الخادم أن يطَّلع عليها! فحفظ النبي وده، ولم يجبره على الدخول في الإسلام! وكان يزوره في مرضه، ويرعى شؤونه.

وتعايش النبي ﷺ مع غير المسلمين في المدينة التي كان يرأسها، وأعطاهم عهودهم، وضمن لهم المواطنة، ولم يجبرهم على الإسلام رغم عيشهم تحت ظلال حكم رسول الله ﷺ، وقد نصَّتْ وثيقةُ المدينة النبوية على ذلك صراحة: **«وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ»**[5].

ولقد أباحَ اللهُ تعالى للمسلمين طعامَ أهل الكتاب، والتزوج من نسائهم، قال تعالى: **{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}**[6]، ومعلوم أن الزواج من أعظم الروابط؛ إذ تَنشأ عنه المصاهرة والذرية رغم اختلاف الدين بين الأبوين، كما أن إباحة الطعام تقتضي أن يجتمع المسلمُ مع غير المسلم على طعامه، فينشأ عن ذلك تعارف وتقارب.

ب. التعارف والتعاون الإنساني: تحقيقاً لقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}**[7]، فلا تمييز بين البشر، وإن ميزان التفاضل بين البشر هو العمل الصالح؛ كما قرر النبي ﷺ في حجة الوداع: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»**[8].

---

(1) سورة البقرة، الآية: (256).
(2) سورة الكافرون، الآية: (6).
(3) سورة الكهف، الآية: (29).
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي، رقم: (1356).
(5) ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، سيرة ابن هشام، مصدر سابق، [503/1].
(6) سورة المائدة، الآية: (5).
(7) سورة الحجرات، الآية: (13).
(8) أخرجه أحمد في مسنده، مصدر سابق، [474/38]، رقم: (23489)، وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح".

ج. العدل: عملاً بقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}**[1]، ويقتضي العدل إعطاء كل ذي حق حقَّه؛ دون النظر لدينه أو معتقده، قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**[2].

ومن نماذج تطبيق هذه القيمة: ما روي أن النبي ﷺ أتي بصدقات، فجاءه يهودي، فقال: أعطني، فقال النبي ﷺ: **«ليس لك من صدقة المسلمين شيء»**، فذهب اليهودي غير بعيد فنزلت: **{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}**[3]، فدعاه رسول الله ﷺ فأعطاه[4].

وورد أن رجالاً من أصحاب نبي الله ﷺ قالوا: أنتصدق على مَن ليس مِن أهل ديننا؟ فأنزل الله في ذلك القرآن: **{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ}**[5].

د. الإحسان والبر وحسن الصلة: عملاً بقوله تعالى: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}**[6].

وأورد البخاري تحت هذه الآية عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: أَتَتْنِي أُمِّي رَاغِبَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: آصِلُهَا؟ قَالَ: **«نَعَمْ»**[7] - وفي رواية: **«نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»**[8] -، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: **{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}**[9]. وقد بوَّبَ البخاري رحمه الله لهذا الحديث: (باب صلة الوالد المشرك)، وفيه: (صلة الأخ المشرك)، وفيه: (باب الهدية للمشركين).

وقد صحَّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ، قَالَ: أَهَدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»**[10].

---

(1) سورة النحل، الآية: (90).
(2) سورة المائدة، الآية: (8).
(3) سورة البقرة، الآية: (272).
(4) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [356/2].
(5) يُنظَر: محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [588/5].
(6) سورة الممتحنة، الآية: (8).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: صلة الوالد المشرك، رقم: (5633).
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب: الهدية للمشركين، رقم: (2620)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، رقم: (1003).
(9) سورة الممتحنة، الآية: (8).
(10) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في حق الجوار، رقم: (1943) وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وأبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب النوم، باب: في حق الجوار، رقم: (51521).

هـ. الْعَفْوُ وَالتَّسَامُحُ: مِنَ الْمَبَادِئِ الأَصِيلَةِ، وَالأَخْلاَقِ النَّبِيلَةِ، وَالْقِيَمِ الرَّاقِيَةِ، فالعفو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العلية، وردَت منسوبةً إلى الله تعالى في نحو عشرين آية، وقد ورد اسمُ اللهِ "العفو" مقروناً باسم الله "الغفور"، كما في قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا}**[1]، وورد مقروناً باسم الله "القدير"، كما في قوله تعالى: **{إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}**[2]، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ بالعفو، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}**[3]، ووَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ بِجَنَّةِ النَّعِيمِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ● الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**[4].

والعفو والتسامح مستحب في العلاقات مع الآخرين: يَقُولُ الله تعالى: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}**[5]، وقد علَّمَنا رسولُ الله ﷺ كيف نعملُ بهذه الآية الكريمة، فقد جاءَ في وصفهِ ﷺ أنه: **«لاَ يدفع بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»**[6]، فَكَانَ يُعَامِلُ الناس بِالْمُسَامَحَةِ وَاللِّين، فَيَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، فَشَرَحَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الصُّدُورَ، وَأَحَبَّتْهُ الْقُلُوبُ، فَقَدْ أَسَاءَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ، فَسَبُّوهُ وَآذَوْهُ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ ﷺ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ وَطَنِهِ الَّذِي تَرَبَّى فِيهِ وَأَحَبَّهُ، فَلَمَا دَخَلَ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ مُنْتَصِرًا وَقَدْ لَاذَ النَّاسُ بِالْبَيْتِ الحرام؛ قَالَ: **«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟»** قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: **«اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطّلَقَاءُ»**[7]، هكذا صَفَحَ عَنْهُمْ وَسَامَحَهُمْ، وَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الأَخِ الْكَرِيمِ!

ومثل هذا الموقف في العفو والتسامح جرى مع أهل الطائف الذين آذوه وضربوه بالحجارة فأدموه، وهو الحريص على نجاتهم من النار. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»**[8].

---

(1) سورة النساء، الآية: (43).
(2) سورة النساء، الآية: (149).
(3) سورة البقرة، الآية: (109).
(4) سورة آل عمران، الآية: (133 - 134).
(5) سورة فصلت، الآية: (34).
(6) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: 45]، رقم: (4838).
(7) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، مصدر سابق، [200/9]، رقم: (18276) بلفظ: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ». وينظر: ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، سيرة ابن هشام، مصدر سابق، [412/2].
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم: (3477)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، رقم: (1792).

و. تآخي الإنسان مع أخيه الإنسان: فقد ذكر القرآن الكريم أن الأنبياء جميعاً إخوة لأقوامهم، تربطهم معهم الأخوة الإنسانيَّة، لا النَّسَبية ولا الإيمانية، **{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}**[1]، **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}**[2]، **{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}**[3]، **{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ}**[4].

وامتدح القرآن الكريم الذين يتمتعون بنقاء القلب تجاه إخوانهم، فقال سبحانه على لسان المؤمنين: **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}**[5].

وأعطى النبي الكريم ﷺ وسام تكريم لصاحب القلب النقي، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **«كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ»**، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **«هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ»**[6]، ورغب القرآن الكريم في عفو الإنسان عن أخيه الإنسان، فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}**[7].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: (65).
(2) سورة الأعراف، الآية: (73).
(3) سورة الأعراف، الآية: (85).
(4) سورة الشعراء، الآية: (161).
(5) سورة الحشر، الآية: (10).
(6) أخرجه ابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى، رقم: (4216)، وقال البوصيري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الكناني الشافعي (ت 840هـ)، في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، بيروت، دار العربية، الطبعة الثانية، (1403هـ)، [240/4]: "هذا إسناد صحيح"، وقال محمد فؤاد عبد الباقي: "في الزوائد: هذا إسناده صحيح، رجاله ثقات".
(7) سورة البقرة، الآية: (178).

وأما **نصوص الكتاب المقدس** فقد اتفقت على إعلاء قيمة السَّلام:

- فقد أطلق الإنجيل على الله بأنه "إله السَّلام"[1]، وأكد أن إله السَّلام سيهزم الشيطان[2].
- ويدعو إنجيل لوقا إلى صنع السَّلام في الأرض، فيقول: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السَّلام، وبالنّاس المسرّة"[3].
- وتؤكِّد نصوصُ الإنجيل على أن المسيح بُعث برسالة السَّلام، فيقول: "الكلمة الّتي أرسلها إلى بني إسرائيل يبشّر بالسَّلام بيسوع المسيح"[4].
- ويمتدح الإنجيل في نصوصه المبشرين بالسَّلام، فيقول: "ما أجمل أقدام المبشّرين بالسَّلام، المبشّرين بالخيرات"[5].
- وتعدَّدَت النصوص الإنجيلية التي توصي بالسَّلام، كما في إنجيل مرقس الوصية بالسَّلام من قِبَل يسوع لتلاميذه، فقال: "وسالموا بعضكم بعضاً"[6].
- ويحثُّ الرسولُ بولس المؤمنين على السَّلام، فيقول في رسالته إلى أهل كورنثوس الثانية: "عيشوا بالسَّلام، وإله المحبّة والسَّلام سيكون معكم"[7]، ويؤكد على أن السَّلام لجميع الناس بقوله: "إن كان ممكنًا فحسب طاقتكم سالموا جميع النّاس"[8].
- والسَّلام هو التحية بين الناس، كما يذكر إنجيل متى: "وحين تدخلون البيت سلّموا عليه، فإن كان البيت مستحقًّا فليأت سلامكم عليه، ولكن إن لم يكن مستحقًّا فليرجع سلامكم إليكم"[9].
- وكانت تحية يسوع لتلامذته: "سلام لكم"[10]، وقبل أن يفارقهم باركهم قائلاً: "سلامًا أترك لكم، سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا"[11]، وكثيراً ما كان يقول: "اذهب بسلام"، فها هو في مرقس يقول: "فقال لها: يا ابنة، إيمانك قد شفاك، اذهبي بسلامٍ، وكوني صحيحةً من دائك"[12]، وفي إنجيل لوقا: "فقال للمرأة: إيمانك قد خلّصك، اذهبي بسلامٍ"[13].
- وقد ورد في إنجيل متى تقديس السَّلام: "طوبى لصانعي السَّلام"[14].

وتؤكِّدُ الأحاديثُ الشريفةُ على قيمة السَّلام عند السيد المسيح عليه السلام، ومنها ما ورد في

---

(1) يُنظَر: رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [15: 33].
(2) يُنظَر: رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [16: 20].
(3) إنجيل لوقا، الإصحاح: (2)، فقرة: (14).
(4) سفر أعمال الرسل، الإصحاح: (10)، فقرة: (36).
(5) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [10: 15].
(6) إنجيل مرقس، الإصحاح: (9)، فقرة: (50).
(7) رسالة بولس الرّسول الثّانية إلى أهل كورنثوس، [13: 11].
(8) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [12: 18].
(9) إنجيل متى، الإصحاح: (10)، فقرة: (12 - 14).
(10) إنجيل لوقا، الإصحاح: (24)، فقرة: (36).
(11) إنجيل يوحنا، الإصحاح: (14)، فقرة: (27).
(12) إنجيل مرقس، الإصحاح: (5)، فقرة: (34).
(13) إنجيل لوقا، الإصحاح: (7)، فقرة: (50).
(14) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (19).

موطأ الإمام مالك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ: (أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام لَقِيَ خِنْزِيرًا بِالطَّرِيقِ، فَقَالَ لَهُ: انْفُذْ بِسَلَامٍ، فَقِيلَ لَهُ: تَقُولُ هَذَا لِخِنْزِيرٍ؟! فَقَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُعَوِّدَ لِسَانِي الْمَنْطِقَ بِالسُّوءِ)[1].

ولا يتوقف الكتاب المقدس عند الحث على السَّلام، بل يدعو إلى العفو والتسامح والمحبة لتحقيق السَّلام، ففي إنجيل متى نجد: "وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ"[2]، وهذا النص غاية في الرقي والإحسان الذي دعا إليه القرآن: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ}**[3]، وفي سياقه قوله في الإنجيل: "لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ، فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً"[4]، وفي هذا النص نرى أن سيدنا المسيح عيسى عليه السلام يدعو إلى دفعِ الشر ومقاومته بالإحسان إلى المسيء.

وقد وردت نصوصٌ من أقوال السيد المسيح في معنى التسامح مروية عن علماء الإسلام، ومنها ما ذكره الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- في كتاب الزهد بسنده عن الشعبي: (قال عيسى ابن مريم عليه السلام: ليس الإحسان أن تحسن إلى مَن أحسنَ إليك؛ تلك مكافأة بالمعروف، ولكن الإحسان أن تُحسِنَ إلى مَن أساءَ إليك)[5].

وأورد رواية عن مثال عملي للتسامح: عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ أَشْيَاخِهِ: (أَنَّ عِيسَى عليه السلام مَرَّ بِعَقَبَةِ أَفِيقٍ، وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنْ حَوَارِيِّيهِ، فَاعْتَرَضَهُمْ رَجُلٌ، فَمَنَعَهُمُ الطَّرِيقَ، وَقَالَ: لَا أَتْرُكُكُمَا تَجُوزَانِ حَتَّى أَلْطِمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا لَطْمَةً، فَأَدَارَاهُ، فَأَبَى إِلَّا ذَلِكَ، فَقَالَ عِيسَى: أَمَّا خَدِّي فَالْطِمْهُ! قَالَ: فَلَطَمَهُ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، وَقَالَ لِلْحَوَارِيِّ: لَا أَدَعُكَ تَجُوزُ حَتَّى أَلْطِمَكَ! فَتَمَنَّعَ، فَلَمَّا رَأَى عِيسَى ذَلِكَ أَعْطَاهُ خَدَّهُ الْآخَرَ؛ فَلَطَمَهُ، فَخَلَّى سَبِيلَهُمَا، فَقَالَ عِيسَى عليه السلام: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا لَكَ رِضًى فَبَلِّغْنِي رِضَاكَ، وَإِنْ كَانَ سَخَطًا فَإِنَّكَ أَوْلَى بِالْغَيْرَةِ[6].

ويورد ابن عساكر في ترجمة نبي الله عيسى رواية جميلة حول مقابلة المسيء بالإحسان؛ يقول ابن المبارك: (إن عيسى ابن مريم عليه السلام مر بقومٍ فشتموه، فقال خيراً، ومر بآخرين فشتموه وزادوا، فزادهم خيراً، فقال رجلٌ من الحواريين: كلما زادوا شراً زدتهم خيراً! كأنك تغريهم بنفسك، قال عيسى: كل إنسان يعطي ما عنده)[7].

ونجد في الكتاب المقدَّس الحث على مسامحة المخطئين والتجاوز عن زلاتهم، كما جاء في إنجيل متى: "وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ؛ لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلاَتِكُمْ"[8].

---

(1) أخرجه الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك المدني (المتوفى: 179هـ)، في موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، (1406هـ - 1985م)، في كتاب: الكلام، باب: ما يكره من الكلام، رقم: (4).

(2) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (44).

(3) سورة المؤمنون، الآية: (96).

(4) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (39).

(5) أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ)، الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1420هـ - 1999م)، [495/1].

(6) أحمد بن حنبل، الزهد، مصدر سابق، [7/2].

(7) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (المتوفى: 571هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، المجمع العلمي دمشق، (1415هـ - 1995م)، [437/47].

(8) إنجيل متى، الإصحاح: (6)، فقرة: (15).

وتتحدث النصوص الإنجيلية عن أداء حقوق الأخوَّة الإنسانيَّة: "فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لأَخِيكَ شَيْئًا عَلَيْكَ؛ فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ، وَاذْهَبْ أَوَّلاً اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ، وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ"[1].

وجاء الوعد في الإنجيل بالمقام العالي الوديع لأصحاب الأخلاق الفاضلة وذلك في قوله: "طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ؛ لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ"[2].

وتؤكد الرواياتُ الإسلامية المنقولة عن السيد المسيح عليه السلام على هذه المعاني، فقد ورد فيها أن المسيح عليه السلام أوصى الحواريين بقوله: "يا معشر الحواريين، إن أحببتُم أن تكونوا من أصفياء الله، ونور بني آدم من خلقه؛ فأصلحوا بين الناس، وأحبوا مَن بغضكم"[3]، وزادَتْ روايةٌ أخرى لتلك الوصية: "فاعفوا عمَّن ظلمكم، وعودوا مَن لا يَعودكم، وأحسنوا إلى مَن لا يُحسِن إليكم، وأقرضوا مَن لا يجزيكم"[4].

وكان المسيح عليه السلام في قمة التسامح حين اعتذر إلى الله تعالى عن الذين بدلوا من بعده، وقال له: **{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ● إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**[5].

كما تجلى تسامحه عليه السلام في دعائه للذين حاولوا قتله، أو الذين صلبوه وقتلوه بحسب نصوص الكتاب المقدس: "فَقَالَ يَسُوعُ: يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ"[6].

ومثل هذا الموقف في العفو والتسامح جرى مع النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين آذاه قومه، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»**[7].

❋❋❋

(1) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (23 - 24).
(2) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (5).
(3) أبو حاتم الرازي، محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الرازي (ت 277هـ)، الزهد، تحقيق: منذر سليم محمود الدومي، الرياض - السعودية، دار أطلس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (1421هـ - 2000م)، [7/1].
(4) أحمد بن حنبل، الزهد، مصدر سابق، [6/2].
(5) سورة المائدة، الآية: (117 - 118).
(6) إنجيل لوقا، الإصحاح: (23)، فقرة: (34).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم: (3477)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، رقم: (1792).

المبحـث الثالـث:

قيمة التراحم بين بني الإنسان

قيمة التراحم بين الناس من القيم التي اتفقَتْ عليها الرسالاتُ السَّماويَّة الثلاث:

ففي الرسالة الإسلامية الخاتمة: أرسل الله خاتم رسله محمداً ﷺ رحمة للعالمين، قال الله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}**[1]، وإن القارئ لسيرة نبينا محمد ﷺ ليجد أنه ﷺ كان رحمة عامة تشمل المؤمن وغير المؤمن، والإنس والجن، والحجر والشجر، والجمادات والعجماوات، وسيتم التركيز في هذا المبحث على قيمة الرحمة وآثارها في التراحم بين بني الإنسان في الدنيا:

أولاً: الرحمة بالطفولة

يشير القرآن الكريم إلى الظروف القاسية في زمن بعثة النبي ﷺ؛ حيث ساد الظلم والاعتداء بين الناس، فكان قويهم يعتدي على ضعيفهم، وغنيهم يأكل أموال فقيرهم، ولشدة الفقر كانت بعض القبائل لا ترى حرجاً في الاعتداء على حق الطفولة في الحياة والعيش، فيقتل أحدهم ولده من الفقر أو خشية الفقر، وقد صور القرآن الكريم بشاعة هذه الجريمة النكراء بحق الطفولة قائلاً: **{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}**[2]، وجاء النهي والتحريم في النصوص القطعية القرآنية، في قوله تعالى: **{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}**[3]، والإملاق الفقر، أي: لا تَئِدوا بناتِكم لأجل الفقر، فإني رازقكم وإيّاهم[4]، وهذه الآية تشير إلى فقر واقع، وتكرر النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر المتوقع، وذلك في قوله تعالى: **{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}**[5]، وقد عدَّ النبي ﷺ هذه الجريمة من الكبائر، فقد سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: **«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ!» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ!»**[6].

ولم تكن تلك هي الجريمة الوحيدة بحق الطفولة، فقد كان من الناس من يدفن ابنته في التراب وهي على قيد الحياة خشية العار من أن تصبح سبية مستَرَقَّة في أثناء الغارات والحروب، وقد وصفَ القرآنُ الكريم هذه الجريمة الإنسانيَّة بحق الطفولة في قوله تعالى: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ● يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}**[7]، وجاء التشنيع على تلك الجريمة في قوله تعالى: **{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ● بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}**[8].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: (107).
(2) سورة الأنعام، الآية: (140).
(3) سورة الأنعام، الآية: (151).
(4) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [51/5].
(5) سورة الإسراء، الآية: (31).
(6) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) [الفرقان: 68]، رقم: (4761).
(7) سورة النحل، الآية: (58 - 59).
(8) سورة التكوير، الآية: (8 - 9).

وجاءت النصوص النبوية التي تدعو إلى الرحمة بالطفولة، ومن ذلك قوله ﷺ: **«مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ؛ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ»**[1].

وكان رسول الله ﷺ يعلّم أصحابه كيف يرحمون الطفولة، ويمنحونها الكرامة والحنان، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: **«رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَؤُمُّ النَّاسَ، وَأُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ - وَهِيَ ابْنَةُ زَيْنَبَ بِنْتِ النَّبِيِّ ﷺ - عَلَى عَاتِقِهِ، فَإِذَا رَكَعَ وَضَعَهَا، وَإِذَا رَفَعَ مِنْ السُّجُودِ أَعَادَهَا»**[2]، وهذا الحديث دليل واضح وقاطع على أن حق الطفولة لا يسقط حتى في أثناء الصلاة، وهي أعظم ركن من أركان الإسلام، وهذا الحديث صنفه المحدثون تحت باب جواز حمل الأطفال في الصلاة.

وكان من رحمته ﷺ أن أمر بإشباع الطفل حناناً في كل مراحل طفولته؛ ليخرج إنساناً سوياً معتدل الطباع، وكان النبي ﷺ قدوة عملية في تعاليمه كلها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا! فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: **«مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»**[3].

وفي حديث آخر روته أم المؤمنين عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟! فَمَا نُقَبِّلُهُمْ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟!»**[4].

وهناك أحاديث أخرى كثيرة صنَّفَها العلماءُ ضمنَ أبواب تَنص على الرحمة بالطفولة، ومن ذلك: باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، باب رحمته ﷺ بالصبيان، باب قبلة الرجل ولده، باب ما جاء في رحمة الولد[5]...

قال أَنَس بْن مَالِك رضي الله عنه: **«مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»**[6]، وكان أحفاد النبي ﷺ وأبناؤه في الحب سواء، يضمهم إلى صدره، ويجلسهم على فخذيه وفي أحضانه، يتخذونه راحلة ولا يتململ، وهو يقول: **«نِعْمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الْعِدْلانِ أَنْتُمَا»**[7].

ويحكي أسامة بن زيد رضي الله عنهما وقد عاش في بيت النبوة - فيقول: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ، وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا، ثُمَّ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا، فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا»**[8].

وفي الصحاح: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ صَبِيًّا فِي حَجْرِهِ يُحَنِّكُهُ، فَبَالَ عَلَيْهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ»**[9].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: (5995)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الإحسان إلى البنات، رقم: (2629).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم: (543).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: (5997)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم: (2317).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: (5998)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم: (2317).

(5) يُنظَر - على سبيل المثال -: صحيح البخاري، كتاب: الأدب، وصحيح مسلم، كتاب: الفضائل، وسنن أبي داود، كتاب: أبواب النوم، وسنن الترمذي، كتاب: أبوابُ البرِّ والصِّلةِ... إلخ.

(6) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم: (2316).

(7) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، مصدر سابق، [52/3]، رقم: (2661)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [182/9]: "رواه الطبراني، وفيه مسروح أبو شهاب، وهو ضعيف".

(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: وضع الصبي على الفخذ، رقم: (6003).

(9) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: وضع الصبي في الحجر، رقم: (6002).

ومن رحمة النبي ﷺ بالأطفال وأمهات الأطفال عدم الإطالة في الصلاة، قال رسول الله ﷺ: **«إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»**[1]، وإذا كان النبي محمد ﷺ يوماً خفف الصلاة خشية أن يشق على أم الطفل وهو يبكي؛ فإنه في مرة أخرى يطيل السجود حتى يظن الصحابة أنه حدثَ شيءٌ! يفعل ذلك كله لأن أحدَ أحفاده قد ارتحله، فعن شداد بن الهاد رضي الله عنه[2] قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتَيْ الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَضَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَصَلَّى، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا، قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ! قَالَ: **«كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»**[3].

ثانياً: الرحمـة بالمـرأة

بُعِث النبي محمد ﷺ في مجتمع كان ينظر إلى المرأة على أنها عارٌ يُمحى بدسه في التراب، أو يُبقى على خزي ومذلة، ويصورُ القرآن المشهد الشنيع، فيقول: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ● يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}**[4]، وفي الفترة التي بعث فيها ﷺ كانت المرأة تورث كالمتاع، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت الآية[5]: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا}**[6]، ومما يورَث من ظلم المرأة آنذاك؛ أن الولد كان لا يتحرج أن ينكح زوجة أبيه، حتى نزل قوله تعالى: **{وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا}**[7].

وقد جاءَ رسول الله ﷺ رحمة بالمرأة، فقام بإنصافها، وحررها من الظلم الواقع عليها، وكرمها أماً وأختاً وبنتاً وزوجة، وحرم التمييز ضد المرأة، وعاقب من يمارس العنف بحقها، وشجع مشاركتها في الحياة العامة بحسب قدراتها وخبراتها، وارتقى بمكانتها الأسرية

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأذان، باب: مَن أخفَّ الصلاة عند بكاء الصبي، رقم: (707).

(2) صحابي: كان سِلفاً لرسول الله ﷺ، زوجته سلمى بنت عميس أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ لأمها، واسمه الحقيقي: شَدَّادُ بْنُ أُسَامَةَ بْنِ الْهَادِ، وَسُمِّي جده الْهَادِ لِإِيقَادِهِ النَّارَ لِلْأَضْيَافِ وَالسَّابِلَةِ، وَالْهَادِي اسْمُهُ عَمْرُو، شهد معه غزوة الخندق، سكن شداد المدينة ثم تحول إلى الكوفة. يُنظَر: ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العَسْقَلانيّ الشّافعي (ت852)، الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، الطّبعة الأولى، (1412هـ)، [324/3].

(3) أخرجه النسائي في سننه، مصدر سابق، كتاب: التطبيق، باب: هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، رقم: (1141)، وأحمد في مسنده، مصدر سابق، [419/25]، رقم: (16033)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح".

(4) سورة النحل، الآية: (58 - 59).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: {لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} [النساء: 19]، رقم: (4579).

(6) سورة النساء، الآية: (19).

(7) سورة النساء، الآية: (22).

والاجتماعية، واعترف بفضلها، وجعل برها فضيلة يتسابق إليها الناس بعد أن كانت عاراً تُدفَن في التراب، وهي على قيد الحياة!

ويروي كُتَّاب السيرة النبوية أنه بعد وفاة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية رضي الله عنها - وقد شهدت وفاة أمه في الأبواء -، فكانت ترعاه، وتقوم بشؤونه، وكانت له أماً بعد أمه، وذلك في أثناء كفالة جده عبد المطلب، فكان ﷺ يعترف لها بحق الوفاء، ويعاملها كأنها أمه، وكان ﷺ يقول: **«أُمُّ أَيمَن أُمِّي بَعْدَ أُمِّي»**[1].

وهذا التكريم ذاته كانت تحظى به زوجة عمه أبي طالب؛ فبعد وفاة عبد المطلب جد النبي ﷺ ضمه عمه أبو طالب إلى عياله، فكان في كفالتِه، فكانت فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب تقوم برعايته، وتزيد من اهتمامها به ورعايتها له لما ترى فيه من أدب جم، وخلق رفيع، فكان النبي ﷺ يعترفُ لها بفضلِها، كما لو أنها كانت أمه التي ولدته، ويتحدث أنس بن مالك رضي الله عنه - وهو أحد المقربين من النبي ﷺ - عن مشهد مؤثر فيقول: لما ماتَت فاطمةُ بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب دخَلَ عليها رسولُ الله ﷺ، فجلس عند رأسها، فقال: **«رَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّي، كُنْتِ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي، تَجُوعِينَ وَتُشْبِعِينِي، وَتَعْرَيْنَ وَتَكْسِينِي، وَتَمْنَعِينَ نَفْسَكِ طَيِّبًا وَتُطْعِمِينِي، تُرِيدِينَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ»**[2]، وامتدحها بقوله: **«إِنَّهَا كَانَتْ أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ صَنِيعًا بَعْدَ أَبِي طَالِبٍ»**[3].

ولم يقتصر التوجيه النبوي على الرحمة بالمرأة القريبة من الإنسان؛ كأمه وأخته وخالته ومن أحسن إليه بشكل من مباشر من غيرهن؛ بل أعطى النبي ﷺ الإنسانيَّة درساً خالداً في تقدير كرامة المرأة التي تقدم خدمة للمجتمع، فقد جاء في الحديث الصحيح: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَت، قَالَ ﷺ: **«أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟ دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا!»**، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **«إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»**[4]، وكان ما قامَ به ﷺ من حرصِه ﷺ أن يملأ قبر امرأة كانت تقُمُّ المسجد نوراً بصلاته عليها، رحمة بها، وإعظاماً لشأن ما كانت تقوم به، فلقد فاضت رحمة النبي محمد ﷺ على حياة تلك المرأة اهتماماً بشأنها، وجعل لها مكاناً رائداً في كل مرافق المجتمع.

وتأكيداً على هذا المقصد الأساس في حفظ كرامة المرأة وتقدير عطائها؛ فإن النبي ﷺ في حجة الوداع يوصي بالنساء خيراً، فيقول: **«اتَّقوا اللهَ فِي النِّسَاءِ؛ فإنَّكُمْ أَخذتُمُوهُنَّ بِأَمانَةِ اللهِ»**[5]، ويقول في لحظات الوداع: **«اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»**[6]، وهذه الوصية بالنساء تشمل جنس النساء، مهما كان دينهن أو خلقهن.

---

(1) ابن حجر العَسْقَلانيّ، الإصابة في تمييز الصّحابة، مصدر سابق، [169/8].

(2) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، مصدر سابق، [351/24]، رقم: (871)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [257/9]: "رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح، وثّقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح".

(3) أخرجه الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة، دار الحرمين، [87/7]، رقم: (6935)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [257/9]: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات".

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الجنائز، باب: الصلاة على القبر، رقم: (956).

(5) أخرجه أبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: المناسك، باب: صفة حجة النبي ﷺ، رقم: (1905)، وابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: المناسك، باب: حجة رسول الله ﷺ، رقم: (3074)، وأحمد في مسنده، مصدر سابق، [300/34]، رقم: (20695)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح".

(6) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء، رقم: (1468).

ثالثاً: الرحمة بالضعفاء والمساكين

جاءت كثير من النصوص الدِّينيَّة لحماية حقوق الضعفاء والفقراء والمساكين؛ حيث وعد القرآن الكريم مَن يرعى شؤونهم بمنزلة عالية في جنات النعيم، قال تعالى: **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ● إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ● إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ● فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ● وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا}**[1].

وحَكَم القرآن الكريم أن عدم مراعاة حقوق الضعفاء يوصِل الإنسانَ إلى رتبة التكذيب بالدين، قال تعالى: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ● فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ● وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}**[2]، وامتدح المؤمنين بعطفِهم وإنفاقهم على الفقراء والمحرومين، قال تعالى: **{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}**[3].

وقد جاء التأكيدُ على الرحمة باليتيم لكونه طفلاً لا حول له ولا قوة، واكتَسَت معاني الرحمة باليتيم من حياة رسول الله ﷺ بمعنىً خاص، فقد ولد ﷺ يَتيم الأب، ومات أبوه عبد الله وما زال ﷺ في بطن أمه، وماتَت أمه آمنة بنت وهب وهو في السادسة من عمره، فعاش النبي محمد ﷺ في صغره يتيم الأبوين، وقد امتنَّ اللهُ تعالى عليه بقوله: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}**[4]، وكان ليتمِه ﷺ معنى عظيم؛ فيه جبر لخواطر اليتامى، ورحمة لهم، ورعاية لمصالحهم، ولهذا قال الله تعالى له: **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}**[5].

وقد جاءت التشريعات الربانية تحثُّ على إكرام اليتيم ورعاية مصالحه، كقوله تعالى: **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}**[6]، وتؤكِّد النصوصُ القرآنية على تحريم أكل مال اليتيم ظلماً أو الإضرار به، كقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}**[7].

وجاءت وصايا سيدنا محمد ﷺ تؤكد على الرحمة باليتيم، والعناية به، وتصف بالخيرية كل بيت آوى يتيماً، أو قام على رعايته، وأكَّدَت وصاياهُ ﷺ أيضاً على أن كفالة الأيتام من الأسباب التي تَجعَلُ صاحبها بجوار النبي محمد ﷺ في جنة الرضوان، قال النبي ﷺ: **«أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا. وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»**[8]، وفي رواية أخرى: **«مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ - لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا لِلَّهِ -؛ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ؛ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ. وَفَرَّقَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»**[9].

---

(1) سورة الإنسان، الآية: (8 - 12).
(2) سورة الماعون، الآية: (1 - 3).
(3) سورة الذاريات، الآية: (19).
(4) سورة الضحى، الآية: (6).
(5) سورة الضحى، الآية: (9).
(6) سورة الإنسان، الآية: (8).
(7) سورة النساء، الآية: (10).
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: فضل من يعول يتيماً، رقم: (6005).
(9) أخرجه أحمد في مسنده، مصدر سابق، [474/36]، رقم: (22153)، "صحيح لغيره، دون الشطر الأول منه بقصة المسح على رأس اليتيم".

ويحث النبي ﷺ على إدماج اليتيم في المجتمع وكفالته داخل الحياة الأسرية، فيقول: **«مَنْ قَبَضَ يَتِيمًا مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَعْمَلَ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ لَهُ»**[1]، وفي رواية أخرى: **«خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ»**[2].

وجاءت النصوص بالتأكيد على قيمة التراحم الإنساني مرتبطة باستحقاق الرحمة الإلهية والسَّماويَّة، قَالَ ﷺ: **«ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»**[3]، وقال ﷺ: **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»**[4]، فكلما رحمَ الإنسانُ أخاهُ الإنسان، وأعانَه في قضاء حاجاته؛ ازداد قرباً من الرحمن ﷻ.

وقالَ رسول الله ﷺ: **«أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا»**[5].

وحث القرآن الكريم المجتمع على التراحم والتواصي به، فقال: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}**[6]، فإنَّ المجتمع المتراحم يصبح كجسد واحد، كما قال ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**[7].

ويؤكد الكتاب المقدس - كذلك - على قيمة التراحم الإنساني: فقد ورد في إنجيل لوقا: "طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ؛ لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ، طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْجِيَاعُ الآنَ؛ لأَنَّكُمْ تُشْبَعُونَ، طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الآنَ؛ لأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ؛ طُوبَاكُمْ إِذَا أَبْغَضَكُمُ النَّاسُ، وَإِذَا أَفْرَزُوكُمْ وَعَيَّرُوكُمْ وَأَخْرَجُوا اسْمَكُمْ كَشِرِّيرٍ مِنْ أَجْلِ ابْنِ الإِنْسَانِ، افْرَحُوا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَتَهَلَّلُوا، فَهُوَذَا أَجْرُكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاءِ؛ لأَنَّ آبَاءَهُمْ هَكَذَا كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالأَنْبِيَاءِ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ؛ لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ، وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الشَّبَاعَى؛ لأَنَّكُمْ سَتَجُوعُونَ، وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّاحِكُونَ الآنَ؛ لأَنَّكُمْ سَتَحْزَنُونَ وَتَبْكُونَ"[8]، والنص يتوعَّدُ الذين يظلمون الضعفاء، ولا يرحمونهم بالجزاء المؤلم في الآخرة.

ويؤكد إنجيل متّى على هذا المعنى، فيقول: "وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ؛ لأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ، ولِعِلَّةٍ تُطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ، لِذلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ"[9].

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة اليتيم وكفالته، رقم: (1917)، وقال: "وهو ضعيف عند أهل الحديث".

(2) أخرجه ابنُ ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: حق اليتيم، رقم: (3679)، وفيه ضعف.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة المسلمين، رقم: (1924)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وأبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: الأدب، باب: في الرحمة، رقم: (4941).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: (2699).

(5) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، مصدر سابق، [453/12]، رقم: (13646)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، مصدر سابق، [191/8]: "رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه مسكين بن سراج، وهو ضعيف".

(6) سورة البلد، الآية: (17).

(7) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم: (2586).

(8) إنجيل لوقا، الإصحاح: (8)، فقرة: (21 - 25).

(9) إنجيل متى، الإصحاح: (23)، فقرة: (14).

وحثَّ الكتابُ المقدس على الرحمة بالبؤساء والمحرومين، كما جاء في سِفر المزامير: "اِقْضُوا لِلذَّلِيلِ وَلِلْيَتِيمِ، أَنْصِفُوا ٱلْمِسْكِينَ وَٱلْبَائِسَ"[1]، والنص كما هو واضحُ الدلالة يأمرُ بإنصافِ هذه الفئة الضعيفة من الناس.

وتوجدُ نصوصٌ أخرى تؤكِّدُ على المعنى ذاته كما جاء في سفر الأمثال: "اِفْتَحْ فَمَكَ، ٱقْضِ بِٱلْعَدْلِ، وَحَامِ عَنِ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْمِسْكِينِ"[2].

وفي سفر زكريا: "هَكَذَا قَالَ رَبُّ ٱلْجُنُودِ قَائِلًا: ٱقْضُوا قَضَاءَ ٱلْحَقِّ، وَٱعْمَلُوا إِحْسَانًا وَرَحْمَةً، كُلُّ إِنْسَانٍ مَعَ أَخِيهِ، وَلَا تَظْلِمُوا ٱلْأَرْمَلَةَ وَلَا ٱلْيَتِيمَ وَلَا ٱلْغَرِيبَ وَلَا ٱلْفَقِيرَ، وَلَا يُفَكِّرْ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَرًّا عَلَى أَخِيهِ فِي قَلْبِكُمْ"[3].

ويصرح السيد المسيح عليه السلام أنَّ جوهر رسالته تستهدفُ جبرَ خواطر المساكين والضعفاء، كما جاء في إنجيل لوقا: "رُوحُ ٱلرَّبِّ عَلَيَّ؛ لِأَنَّهُ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ ٱلْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لِأَشْفِيَ ٱلْمُنْكَسِرِي ٱلْقُلُوبِ، لِأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِٱلْإِطْلَاقِ، وَلِلْعُمْيِ بِٱلْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ ٱلْمُنْسَحِقِينَ فِي ٱلْحُرِّيَّةِ"[4].

وفي سفر أيوب حثٌّ على إدخال السرور على قلوب الأرامل والمساكين: "لِأَنِّي أَنْقَذْتُ ٱلْمِسْكِينَ ٱلْمُسْتَغِيثَ وَٱلْيَتِيمَ، وَلَا مُعِينَ لَهُ، بَرَكَةُ ٱلْهَالِكِ حَلَّتْ عَلَيَّ، وَجَعَلْتُ قَلْبَ ٱلْأَرْمَلَةِ يُسَرُّ"[5].

ويعلِّم السيد المسيح عليه السلام الحواريين قيم الرحمة بالضعفاء والمساكين، ويطلب منهم التحلي بخلق الإيثار والتصدق بأملاكهم لصالح الفقراء، كما جاء في إنجيل متى: "قَالَ لَهُ يَسُوعُ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلًا، فَٱذْهَبْ وَبِعْ أَمْلَاكَكَ، وَأَعْطِ ٱلْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَتَعَالَ ٱتْبَعْنِي"[6].

وفي إنجيل لوقا يحثُّ عليه السلام على التشارك والتكافل بين الأغنياء والفقراء، فيقول: "وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ثَوْبَانِ، فَلْيُعْطِ مَنْ لَيْسَ لَهُ، وَمَنْ لَهُ طَعَامٌ فَلْيَفْعَلْ هَكَذَا"[7]، وهذا المعنى أكَّدَه النبي المصطفى ﷺ بقوله: **«مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»**[8].

وينهى الكتاب المقدس عن كسر خاطر الفقير، كما جاء في سفر الأمثال: "فِدْيَةُ نَفْسِ رَجُلٍ غِنَاهُ، أَمَّا ٱلْفَقِيرُ فَلَا يَسْمَعُ ٱنْتِهَارًا"[9]، وهذا المعنى أكَّدَه القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[10].

ويذكر الكتاب المقدس أن الذي يطعم الجائعين، ويقضي حاجات المحتاجين؛ فكأنه أطعم الله وسقاه وكساه - والله منزَّهٌ عن ذلك سبحانه -، فقد جاء في إنجيل متى: "ثُمَّ يَقُولُ ٱلْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي

(1) سفر ٱلْمَزَامِيرِ، الإصحاح (3)، فقرة: (82).
(2) سفر الأَمْثَال، الإصحاح (9)، فقرة: (31).
(3) سفر زكريا، الإصحاح (7)، فقرة: (9 – 10).
(4) إنجيل لوقا، الإصحاح: (4)، فقرة: (18).
(5) سفر أيوب، الإصحاح: (29)، فقرة: (12 - 13).
(6) إنجيل متى، الإصحاح: (19)، فقرة: (21).
(7) إنجيل لوقا، الإصحاح: (3)، فقرة: (11).
(8) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: اللقطة، باب: استحباب المؤاساة بفضول المال، رقم: (1728).
(9) سفر الأَمْثَال، الإصحاح (8)، فقرة: (13).
(10) سورة الضحى، الآية: (10).

أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ؛ لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي، عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي، كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي، عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي، مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي، مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ، فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ، قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطْشَانًا فَسَقَيْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَآوَيْنَاكَ، أَوْ عُرْيَانًا فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ"[1].

ومثل هذا المعنى ورد في الأحاديث القدسية الصحيحة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي! قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟! يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي! قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»**[2].

بل إن الكتاب المقدس جعل إطعام الجائعين وإعطاء المساكين والمحتاجين من الضرورات التي تُبيحُ المحظورات، فعلى الرغم من أن نصوصَ الكتاب المقدَّس تحظر العمل يوم السبت؛ إلا أن عمل الخير لصالح الضعفاء والمساكين مسموحٌ به في أي وقت، كما جاء في إنجيل مرقس: "وَاجْتَازَ فِي السَّبْتِ بَيْنَ الزُّرُوعِ، فَابْتَدَأَ تَلاَمِيذُهُ يَقْطِفُونَ السَّنَابِلَ وَهُمْ سَائِرُونَ، فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: انْظُرْ، لِمَاذَا يَفْعَلُونَ فِي السَّبْتِ مَا لاَ يَحِلُّ؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ احْتَاجَ وَجَاعَ هُوَ وَالَّذِينَ مَعَهُ؟ كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ اللهِ فِي أَيَّامِ أَبِيَأَثَارَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَأَكَلَ خُبْزَ التَّقْدِمَةِ الَّذِي لاَ يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلاَّ لِلْكَهَنَةِ، وَأَعْطَى الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَيْضًا، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ: السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ، لاَ الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ"[3].

وتؤكد الروايات الإسلامية التي تنقل أقوال السيد المسيح عليه السلام على قيمة التراحم الإنساني، ومنها ما أورده الإمام أحمد بن حنبل عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: "جاء رجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام فقال: يا معلم الخير، علمني شيئاً تَعلمُه وأجهلُه، وينفعني ولا يضرُّك، قال: ما هو؟ قال: كيف يكون العبد تقياً لله عز وجل حقاً؟ قال: بيسير من الأمر؛ تحب الله حقاً من قلبك، وتعمل له بكدودك وقوتك ما استطعتَ، وترحم بني جنسك برحمتك نفسك، قال: يا معلم الخير، ومن بنو جنسي؟ قال: ولد آدم كلهم، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأتهِ إلى غيرك؛ فأنت تقي لله حقاً"[4].

وبهذه النصوص وأمثالها يتَّضِحُ الاتفاقُ، بل والتطابق في قيم التراحم بين بني الإنسان.

* * *

(1) إنجيل متى، الإصحاح: (25)، فقرة: (34 - 40).
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم: (2569).
(3) إنجيل مرقس، الإصحاح: (2)، فقرة: (23 - 27).
(4) أحمد بن حنبل، الزهد، مصدر سابق، [346/1].

المبحث الرابع:
القيم الأسرية والاجتماعية

تتفق الرسالاتُ السَّماويَّة الثلاث على صيانة الأعراض وحماية النسل كمقصد رئيس من مقاصدها التشريعية، وتضبط الأسرة والمجتمع بعددٍ من القيم التي تحقق هذا المقصد الإنساني العظيم، وتستند في ذلك إلى أصل تكوين الخليقة، وما ورد في تعاليم الأنبياء عليهم السلام الموحى بها من الله تعالى.

ففي النصوص القرآنية تنصيص على أن الله تعالى خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر، وخلق من آدم زوجة له، ثم تناسل البشر منهما بالزواج؛ كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}**[1]، وهذا يعني أن الزوجين مخلوقان من نفس واحدة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}**[2].

قيمـة الاحتـرام والمـودَّة بين الزوجيـن

إن من الدلالات العظيمة لخلق زوجةٍ لآدم من نفسه هي السكن والطمأنينة، وتلك آية من آيات الله، كما جاء قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}**[3]، وفي ذلك إشارة إلى قيمة أصيلة من القيم الأسرية تتمثل في قدسية العلاقة بين الزوجين وحسن سيرها؛ إذ ينبغي على كل من الزوجين أن يتعامل مع الآخر على أنه قطعةٌ منه لا غنى له عنها، وهذا الشعور هو الذي يحقِّقُ السكنَ النفسي والمودة والرحمة بين الزوجين، ويمنحهما الراحة القلبية، وإن مآل العلاقةِ بين أي زوجَين لا يتعاملانِ تحت ظلال المودة والرحمة، إما إلى التفكُّك والانهيار؛ وإما إلى القلق والاضطراب، وإذا كان الزوجان من نفس واحدة فإن إهانة أيٍّ منهما إهانة لصاحبه، فمن أكرم زوجه فقد أكرم نفسه، ومَن أهانَ زوجَه فقد أهان نفسَه.

(1) سورة النساء، الآية: (1).
(2) سورة الأعراف، الآية: (189).
(3) سورة الروم، الآية: (21).

قيمة العلاقات الجنسية السليمة

ذكر القرآن الكريم قصة قوم لوط الذين كانوا يعيشون في منطقة غور الأردن على البحر الميت، وقد عُرِفَتْ باسم "سدوم"[1]، وقد ورد أنَّ اللهَ تعالى لما أهلكها جعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، "وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدَّس"[2]، وقد وصفَ اللهُ قومَ لوط بالإجرام الإسراف والفسق؛ إذ قال تعالى: **{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ}**[3]، ومعنى "الفِسْق: العصيان والترك لأَمر الله ﷻ والخروج عن طريق الحق"[4]، كما ورد من أوصافهم أيضاً الاعتداء والظلم، قال تعالى: **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ● وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}**[5]، وقال سبحانه: **{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ● قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}**[6]، ومعنى كلمة "الظُّلْم: وَضْع الشيء في غير موضِعه"[7]، وقد جاء هذا الوصفُ مناسباً لحالهم؛ إذ كانوا يأتون الذكران شهوة من دون النساء.

وكان قوم لوط ﷺ يعملون الخبائث إلى درجة أنْ شاعت الرذيلة في القرية بأسرها عدا بيت واحد، كما حكى القرآن الكريم عنهم: **{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}**[8]، فأرسل اللهُ إليهم نبيَّه لوطاً ﷺ ليصلحَ حالَهم، ويهديهم إلى السلوك المستقيم، فدعاهم إلى تقوى الله وطاعته، ثم أنكر عليهم أفعالهم الإجرامية المنافية للفطرة الإنسانيَّة، فقال لهم: **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ}**[9]، فقد كانوا ينكحونهم في أدبارهم، وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء[10]، فبَيَّن لهم ﷺ أن هذه الفِعْلة فاحشة لا تنسجم مع الفطرة الإنسانيَّة؛ إذ إنها تشكل سابقة خطيرة تهدد المجتمع بالانهيار، وتنذر النسل بالفناء، فقال: **{أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ}**[11]، وورد في تفسيرها أن "(من) لاستغراق الجنس، أي: لم يكن اللِّواط في أُمّة قبل قوم لوط"[12]، وقد أوضح لوط ﷺ لقومه أن الإنسان يميل بفطرتهِ نحو الزواج المنظم المقنن للحفاظ على النسل، واستمرار الحياة، وأن الخروج عن هذه الفطرة شذوذ واعتداء، ولهذا جاء على لسان لوط ﷺ: **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ● وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}**[13]، والمعنى في الآية: أن الله

(1) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [153/5].
(2) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [157/6].
(3) سورة الأنبياء، الآية: (74).
(4) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: فسق، [308/10].
(5) سورة الشعراء، الآية: (165 - 166).
(6) سورة العنكبوت، الآية: (31 - 32).
(7) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: ظلم، [373/12].
(8) سورة العنكبوت، الآية: (29).
(9) سورة الشعراء، الآية: (165).
(10) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [109/9].
(11) سورة الأعراف، الآية: (80).
(12) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [154/5].
(13) سورة الشعراء، الآية: (165 - 166).

تعالى قد خلقَ فروج النساء للنكاح، وإنه من الاعتداء تجاوزها إلى إتيان الأدبار[1].

وقد أرجع نبي الله لوط عليه السلام هذا الشذوذ عن الفطرة إلى ثلاثة أمور:

- **أولها:** الإسراف في الملذات، فقال لقومه: **{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}**[2].
- **الثاني:** الجهل بوظيفة الشهوة لدى الإنسان التي تتمثل في الحفاظ على التناسل في الجنس البشري، وقد جاء على لسان لوط عليه السلام: **{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}**[3]، "أي: لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا"[4].
- **الثالث:** الاعتداء والتجاوز، قال: **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ● وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}**[5]، "يقول: بل أنتم قوم تتجاوزون ما أباح لكم ربكم وأحله لكم من الفروج إلى ما حرَّم عليكم منها"[6].

وكان ردُّ قومِ لوط على نبيهم سيئاً للغاية؛ إذ تمثَّلَ في التكذيب بنبوة لوط عليه السلام، وطلبوا منه أن يكفَّ عن إنكاره عليهم شذوذهم عن الفطرة! وتهديدهم إياه بالطرد والإخراج من القرية، قال تعالى على لسانهم: **{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}**[7]، أي: من بلدنا وقريتنا[8]، ووضعوه تحت الإقامة الجبرية؛ وأصروا على الباطل؛ حتى صارت الطهارةُ في قانونهم جريمةً يُعاقب عليها بالطرد من البلاد، فحكموا على آل لوط بالإبعاد من القرية بتهمة العفة والطهارة، قال تعالى: **{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}**[9]، "ومعنى الآية أن قوم لوط قالوا إن لوطاً وأهله يتحرجون من مشاركتكم في فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فقوموا بنفيهم وطردهم من بين أظهركم، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم[10]، وطلبوا منه الاستعجال بالعذاب من الله، برهاناً على صدق لوط: **{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**[11].

فلما رأى لوط عليه السلام أنَّ قومه لا يرتدعون عما هم فيه من الجرائم الأخلاقية؛ وأنهم مستمرون على ضلالتهم في ممارسة الفواحش والمنكرات؛ أعلن براءته من أعمالهم، كما جاء على لسانه في قوله تعالى: **{قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ}**[12]،

---

(1) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [109/9].
(2) سورة الأعراف، الآية: (81).
(3) سورة النمل، الآية: (55).
(4) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [200/6].
(5) سورة الشعراء، الآية: (165 - 166).
(6) محمد بن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، [388/19].
(7) سورة الشعراء، الآية: (167).
(8) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [109/9].
(9) سورة الأعراف، الآية: (82).
(10) يُنظَر: الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [200/6].
(11) سورة العنكبوت، الآية: (29).
(12) سورة الشعراء، الآية: (168).

"أي: الُمبغضين[1]؛ لا أحبُّه ولا أرضى به، فأنا بريء منكم"[2]، ثم دعا الله ﷻ أن ينصره على قومه المفسدين: **{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}**[3]، وطلب من الله أن ينجيه من عملهم وفسادهم، فقال: **{رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}**[4]، أي: من عذاب عملهم، وقد جاء دعاؤه بعد يأسه من إيمانهم بألا يصيبه من عذابهم[5].

ولما جاء أمرُ الله بإهلاكهم طلبَت ملائكة الله من لوط عليه السلام أن يسري بأهله من أول الليل دونما تردُّد ولا التفات، فقالوا له: **{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ}**[6]، وقضى ربك أن يقطع دابرهم، فلا ترى لهم من باقية، **{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ}**[7]، وأن عذاب الله سيطالهم في موعد قريب: **{إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}**[8]، فأهلكهم الله جميعاً، وقطع دابرهم، قال تعالى: **{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ● مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}**[9].

وقد نجى الله تعالى لوطاً وأهله، وجعل في هلاك قومه آية للمعتبرين، وعبرة للعاقلين، وعظة للمؤمنين، قال تعالى: **{وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}**[10]، وقد طلب الله من الناس أن يستخدموا عقولهم، ويتعظوا بمن قبلهم.

وقد سيقت هذه القصة القرآنية لبيان قيمة الشهوة الجنسية ووظيفتها الإنسانيَّة: ذلك أنه ما كان دين الله يوماً من الأيام ليأتي على الضد من فطرة الإنسان، ولكنه لا يجوز أبداً أن تشيع الفوضى باسم الحرية، ولا أن تُستغَل شعارات حقوق الإنسان لممارسة أعمال تدمر نسل الإنسان.

وإن الله ﷻ قد جعل للشهوة في الإنسان وظيفة تؤديها، وهي: بقاء النسل واستمرارية الذرية؛ غير أن ممارسة هذه الشهوة دون ضوابط تودي بالمجتمع إلى الانهيار، وبالنسل إلى الضياع، وبالبشرية إلى الفناء؛ إذ خلقَ الله الأنثى للذكر ليكون من لقائهما النسل، وإن اكتفاء الرجال بالرجال، وإتيان الذكران من دون الإناث يؤدي إلى تفريغ الشهوة دون إنتاج، وبالتالي ينتهي النسل وتفنى البشرية.

وإن التعاليم الربانية تضبط الشهوة ولا تكبتها، وتنظم العلاقات الجنسية السليمة، ولا تدعها تتخبط خبط عشواء، وتقضي التعاليم الربانية بتحريم الرهبنة انسجاماً مع فطرة الإنسان، وتحريم الزنى صيانة لاختلاط الأنساب، وتحريم الشذوذ حفاظاً على استمرارية النسل،

---

(1) البِقَلى: البُغْض. يُقَالُ: قَلَاه يَقْلِيه قِلًى وقَلًى؛ إذا أبْغَضَه. يُنظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والآثر، مصدر سابق، مادة: قلا، [105/4]، وابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، مادة: قلا، [198/15].

(2) الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، [158/6].

(3) سورة العنكبوت، الآية: (30).

(4) سورة الشعراء، الآية: (169).

(5) يُنظَر: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، [109/9].

(6) سورة هود، الآية: (81).

(7) سورة الحجر، الآية: (66).

(8) سورة هود، الآية: (81).

(9) سورة هود، الآية: (82 - 83).

(10) سورة العنكبوت، الآية: (35).

والحث على الزواج الشرعي بين الذكور والإناث، وكل من يخرج على التعاليم الربانية فهو من المعتدين، قال تعالى: **{وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}**[1]، وقال تعالى: **{وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}**[2].

وأمر القرآن الكريم الرجال والنساء بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج، قال تعالى: **{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ}**[3]، **{وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}**[4]، وشرع العقوبات الزاجرة ضماناً رادعاً لحماية الأعراض، ويلاحَظ أن الله سبحانه وتعالى قد عاقب قوم لوط بعقوبة تتناسب مع جريمتهم، فلما كانت أعمالهم لم يُسبقوا إليها، وهي تودي بالمجتمع إلى التدمير الكامل وانقطاع النسل؛ جاءت العقوبة بإبادة القوم جميعاً وتدمير القرية بأسرها؛ إذ جعل عاليها سافلها، وأمطر على أهلها حجارة من سجيل منضود.

وقد حذَّر النبي ﷺ أمتَه من الوقوع في عمل قوم لوط، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُقَيْلٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ»**[5].

وفي نصوص الكتاب المقدس تأكيدٌ على القيم النبيلة للحياة الزوجية وتقديس لها، فقد نصَّت النصوص في العهد القديم على أن تكوين البشر كان من ذكر وأنثى: "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ، عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ"[6]، وهذا متطابق مع آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}**[7]، واتفقت كذلك نصوص الكتاب المقدس في خلق آدم وزوجته من نفس واحدة، كما جاء في سفر التكوين: "وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ، فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً"[8].

وعن خلق حواء قال: "فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا، وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ"[9]، كما أوضح مشاعر آدم بعد خلقة حواء: "فَقَالَ آدَمُ: هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي، وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي، هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً؛ لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ"[10].

ويتحدث شراح الكتاب المقدس عن قدسية العلاقة الزوجية انطلاقاً من العلاقة بين آدم وحواء، فيذكرون أن ضلع آدم شكّل المادة الأساسية التي تكونت منها رفيقته؛ حيث تم خلق حواء من عظمة واحدة من جنب آدم، وليس من رأسه حتى لا تسيطر عليه، أو من

(1) سورة الأنعام، الآية: (151).
(2) سورة الإسراء، الآية: (32).
(3) سورة النور، الآية: (30).
(4) سورة النور، الآية: (31).
(5) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، رقم: (1457) وقال: "هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ".
(6) سفر التكوين، الإصحاح: (1)، فقرة: (27).
(7) سورة الحجرات، الآية: (13).
(8) سفر التكوين، الإصحاح: (2)، فقرة: (7).
(9) سفر التكوين، الإصحاح: (2)، فقرة: (21 - 22).
(10) سفر التكوين، الإصحاح: (2)، فقرة: (23).

قدميه حتى لا يسيطر عليها، خلقت من جنبه على قدم المساواة، ليحبها ويهتم بها، خلق الله حواء من أجل الوحدة الحميمة والشركة مع آدم، لقد صممها لتكون "مُعِينًا نَظِيرَهُ" كما نص على ذلك في سفر التكوين الذي أكَّدَ على أن الزواج يشكل وحدةَ النفس بين الزوجين، حين يقول: "يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا"[1].

ويؤكِّدُ على أن هذه الكلمات المقدسة يجب أن تكون جزءًا من مراسم الزواج، وأن عقد الزواج كان اسمه "عهد الله"، وهذا الاسم يعني سلطةَ الله على تلك المؤسسة المقدسة، ويصلُ الشراح إلى نتيجة مفادُها أن طريقة خلق حواء من ضلع آدم أرسَتِ الأسسَ الأساسية للزواج، وعبّرت عن اتحاد الزوج والزوجة في أجسادهما واهتماماتهما وشعورهما، وأصبح الزواج رمزاً للحب والحياة[2].

وهذا المعنى جاء في أحاديث خاتم الأنبياء محمد ﷺ حين وصى بالنساء خيراً فقال ﷺ: **«اتَّقوا اللهَ في النساءِ؛ فإنَّكم أخذتُموهنَّ بأمانةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ»**[3].

ولا تختلف نصوصُ الكتاب المقدس عن مقاصد التشريعات الربانية في الحفاظ على الأعراض والنسل؛ حيث تحرِّم الزنى والشذوذ الجنسي، فقد ورد في إنجيل متى حول التحذير من الاقتراب من مقدمات الزنى وتكليف الإنسان المخطئ بمعاقبة نفسه: "سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزنِ، وأنا أقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك تعثرك، فاقلعها وألقِها عنك؛ لأنه خيرٌ لك أن يَهلك أحدُ أعضائك، ولا يلقى جسدك كله في النار"[4].

ويصف الكتابُ المقدسُ الذين يحدثون أنفسهم بارتكاب الزنى بأنهم أصحاب نفوس وقحة، فقد جاء في سفر يشوع: "أَيُّهَا الرَّبُّ الأَبُ، يَا إِلهَ حَيَاتِي، لاَ تَتْرُكْنِي وَمَشُورَةَ شَفَتَيَّ، لاَ تَدَعْنِي أَطْمَحُ بِعَيْنَيَّ، وَالْهَوَى اصْرِفْهُ عَنِّي، لاَ تَمْلِكْنِي شَهْوَةُ الْبَطْنِ وَلاَ الزِّنَا، وَلاَ تُسَلِّمْنِي إِلَى نَفْسٍ وَقِحَةٍ"[5].

ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يحذّرُ مِن مخالطة المرتكبين للزنى، ويشبههم بالسوس الذي ينخر في جسم المجتمع، فيقول: "الَّذِي يُخَالِطُ الزَّوَانِي يَزْدَادُ وَقَاحَةً، السُّوسُ وَالدُّودُ يَرِثَانِهِ، وَالنَّفْسُ الْوَقِحَةُ تُسْتَأْصَلُ"[6].

ويغرس الكتابُ المقدس مخافة الله ويدعو من يرتكب الزنى إلى استشعار مراقبة الله! فيقول: "الإِنْسَانُ الَّذِي يَتَعَدَّى عَلَى فِرَاشِهِ، قَائِلًا فِي نَفْسِهِ: مَنْ يَرَانِي؟ حَوْلِيَ الظُّلْمَةُ وَالْحِيطَانُ تَسْتُرُنِي، وَلاَ أَحَدَ يَرَانِي؛ فَمَاذَا أَخْشَى؟ إِنَّ الْعَلِيَّ لاَ يَذْكُرُ خَطَايَايَ، وَهُوَ إِنَّمَا يَخَافُ مِنْ عُيُونِ الْبَشَرِ، وَلاَ يَعْلَمُ أَنَّ عَيْنَيِ الرَّبِّ أَضْوَأُ مِنَ الشَّمْسِ عَشَرَةَ

---

(1) سفر التكوين، الإصحاح: (2)، فقرة: (24).

(2) يُنظَر: موقع "اسأل الكتاب المقدس"، كيف خلق الله آدم وحواء، تاريخ الزيارة: (2023/3/12م). https://bibleask.org/ar؟

(3) أخرجه أبو داود في سننه، مصدر سابق، كتاب: المناسك، باب: صفة حجة النبي ﷺ، رقم: (1905)، وابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: المناسك، باب: حجة رسول الله ﷺ، رقم: (3074)، وأحمد في مسنده، مصدر سابق، [300/34]، رقم: (20695)، "إسناده صحيح".

(4) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (28 - 29).

(5) سفر يشوع بن سيراخ، الإصحاح: (23)، فقرة: (4 - 6).

(6) سفر يشوع بن سيراخ، الإصحاح: (19)، فقرة: (3).

آلاَفِ ضِعْفٍ؛ فَتُبْصِرَانِ جَمِيعَ طُرُقِ الْبَشَرِ، وَتَطَّلِعَانِ عَلَى الْخَفَايَا، هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ؛ فَكَذلِكَ بَعْدَ أَنِ انْقَضَى، فَهذَا يُعَاقَبُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ، وَحَيْثُ لاَ يَظُنُّ يُقْبَضُ عَلَيْهِ، وَيُهَانُ مِنَ الْجَمِيعِ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَخَافَةَ الرَّبِّ"[1].

وبالإضافة إلى تحريمِ الزنى في الكتاب المقدَّس؛ نجدُ الدعوةَ إلى سدِّ الأبواب ومعالجة الأسباب التي تفتح بابه، فقد نصَّتِ الأناجيلُ على النهي عن الطلاق لغير علة الزنى، معتبرة أنه بوابة لشيوعِ الزنى في المجتمع، جاء في إنجيل متى: "وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلاَقٍ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي"[2].

وتؤكد الروايات الإسلامية التي تنقل أقوال السيد المسيح على تحريم الزنى، ومنها ما رواه ابن أبي شيبة عَنْ سَالِمٍ، قَالَ: (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام إِنَّ مُوسَى نَهَاكُمْ عَنِ الزِّنَا، وَأَنَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، وَأَنْهَاكُمْ أَنْ تُحَدِّثُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْمَعْصِيَةِ، فَإِنَّمَا مِثْلُ ذَلِكَ كَالْقَادِحِ فِي الْجِذْعِ؛ إِنْ لاَ يَكُونُ يَكْسِرُهُ فَإِنَّهُ يَنْخُرُهُ وَيُضْعِفُهُ، أَوْ كَالدُّخَانِ فِي الْبَيْتِ؛ إِنْ لاَ يَكُونُ يُحْرِقُهُ، فَإِنَّهُ يُغَيِّرُ لَوْنَهُ وَيُنْتِنُهُ)[3].

والشذوذ الجنسي محرم أيضاً في الكتاب المقدس، فقد جاء في سفر اللاويين: "وَلاَ تُضَاجِعْ ذَكَرًا مُضَاجَعَةَ امْرَأَةٍ، إِنَّهُ رِجْسٌ"[4].

ولم يكتفِ باعتبار هذا الشذوذ رجساً، بل رتب عقوبة قاسية على فاعليه، فقال: "وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ، فَقَدْ فَعَلاَ كِلاَهُمَا رِجْسًا، إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ، دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا"[5].

ويؤكد بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية على أن الممارسة الجنسية المثلية بين الذكور والذكور أو بين الإناث والإناث؛ إنما هو شذوذ عن الفطرة الإنسانيَّة، فيقول: "لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ؛ لأَنَّ إِنَاثَهُمُ اسْتَبْدَلْنَ الاسْتِعْمَالَ الطَّبِيعِيَّ بِالَّذِي عَلَى خِلاَفِ الطَّبِيعَةِ، وَكَذلِكَ الذُّكُورُ أَيْضًا تَارِكِينَ اسْتِعْمَالَ الأُنْثَى الطَّبِيعِيَّ، اشْتَعَلُوا بِشَهْوَتِهِمْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَاعِلِينَ الْفَحْشَاءَ ذُكُورًا بِذُكُورٍ، وَنَائِلِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ جَزَاءَ ضَلاَلِهِمِ الْمُحِقَّ، وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ، أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لاَ يَلِيقُ"[6].

كما يؤكد في رسالته إلى أهل كورنثوس على أن الشذوذ الجنسي يحرم فاعله من ملكوت الله، فيقول: "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الظَّالِمِينَ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ؟ لاَ تَضِلُّوا: لاَ زُنَاةٌ وَلاَ عَبَدَةُ أَوْثَانٍ وَلاَ فَاسِقُونَ وَلاَ مَأْبُونُونَ وَلاَ مُضَاجِعُو ذُكُورٍ، وَلاَ سَارِقُونَ وَلاَ طَمَّاعُونَ وَلاَ سِكِّيرُونَ وَلاَ شَتَّامُونَ وَلاَ خَاطِفُونَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ"[7]، ويلاحظ أنه في رسالته إلى تيموثاوس جمع الممارسين للشذوذ الجنسي

(1) سفر يشوع بن سيراخ، الإصحاح: (23)، فقرة: (25 - 31).
(2) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (31 - 32).
(3) ابن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، مصدر سابق، [66/7]، رقم: (34240).
(4) سفر اللاويين، الإصحاح: (18)، فقرة: (22).
(5) سفر اللاويين، الإصحاح: (20)، فقرة: (13).
(6) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، [22/1 – 28].
(7) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، [9/6 – 10].

في الإثم والعقاب مع الظالمين والفاسقين وعبدة الأوثان وقاتلي آبائهم وأمهاتهم، فيقول: "أَنَّ النَّامُوسَ لَمْ يُوضَعْ لِلْبَارِّ، بَلْ لِلأَثَمَةِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ، لِلْفُجَّارِ وَالْخُطَاةِ، لِلدَّنِسِينَ وَالْمُسْتَبِيحِينَ، لِقَاتِلِي الآبَاءِ وَقَاتِلِي الأُمَّهَاتِ، لِقَاتِلِي النَّاسِ، لِلزُّنَاةِ، لِمُضَاجِعِي الذُّكُورِ، لِسَارِقِي النَّاسِ، لِلْكَذَّابِينَ، لِلْحَانِثِينَ"[1].

لقد أجمعت الشرائع السَّماويَّة الثلاث على تحريم هذه الفاحشة، وتجريم أصحابها، وإيقاع العقوبة المناسبة المقررة بحقهم، فقد كانت مجرد التهمة بهذا الفعل الشنيع كافية لعزل صاحبها عن المجتمع خشية انتقال العدوى إلى غيره، فعن عائشة ﵂ قالت: **(أول مَن اتهم بالأمر القبيح – يعني: عمل قوم لوط - اتهم به رجل على عهد عمر ﵁، فأمر بعض شباب قريش أن لا يجالسوه)**[2].

وقد كانت المجتمعات تعد ظاهرة الشذوذ وباءً اجتماعياً خطيراً نتيجة مرض نفسي؛ إذ إن الشاذ له تركيب نفسي معقد خاص، وفي عام 1973م قامت الولايات المتحدة الأمريكية بعقد مؤتمر لأطباء الأمراض النفسية، واتخذ المؤتمر قراراً شكَّل سابقة خطيرة؛ إذ تم شطب الشذوذ الجنسي من قائمة الأمراض النفسية، وعُدَّ الشاذ جنسياً إنساناً سوياً! وقد بدأ منذ ذلك الحين ظهور هذه الشرذمة من البشر إلى سطح المجتمع الأمريكي.

وفي عام 1992م سمحت الحكومة الأمريكية للشاذين بالالتحاق بالسلك العسكري، مع حرية ممارسة شذوذهم دونما عقوبة ولا إدانة، كما سُمِحَ لهم أيضاً بإنشاء جمعيات خاصة بهم، وتنظيم المسيرات، والمطالبة بالحقوق! وقد قام هؤلاء بتنظيم مسيرات صاخبة بلغ عدد المشاركين فيها من الشاذين حوالي (100.000) شاذ، وطالبوا الحكومة الأمريكية ببذل المزيد من الجهود لإيجاد علاج لمرض (الإيدز) ضماناً لاستمرارهم في الشذوذ!

ومع مطلع القرن الحادي والعشرين تحول الشذوذ الجنسي إلى زواج مثلي! وبدأ تقنينه، وتُعد هولندا أول بلد اعترفَ به قانونيًا منذ عام 2001م وتبعَتْها بعد ذلك عدةُ بلدان في أوروبا، وعدة بلدان في القارتين الأمريكيتين وبعض الدول، ليصل عددها إلى 28 دولة[3]!

ويقود الغرب حملة عالمية لاعتبار المثلية من حقوق الإنسان أو الحقوق المدنية، واعتباراً من يوليو عام 2015م، منحت ثمانية عشر بلداً، معظمها يقع في الأمريكيتين وأوروبا الغربية اعترافاً بزواج المثليين، ومنحتهم معظم الحقوق المدنية، مثل: السماح بالتبرع بالدم، والسماح بالتبني للمثليين، والاعتراف بالأبوة والأمومة للمثليين، وقوانين المساواة في الهجرة، والقوانين المناهضة للتمييز في العمل والسكن، والمساواة في الحصول على التكنولوجيا المساعدة على الإنجاب، والحصول على جراحة تصحيح الجنس

---

(1) رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، [1/8 – 11].

(2) أخرجه البيهقي، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين (ت 458هـ)، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، (1423هـ - 2003م)، [379/11].

(3) يُنظَر: موقع ويكيبيديا، زواج المثليين، تاريخ الزيارة: (2023/3/12م). https://ar.wikipedia.org/wiki

والـعلاج بالهرمونات البديلة، القوانين المتعلقة بالهوية الجنسية والخدمة العسكرية وغيرها[1].

وبعد شيـوع المثليـة الجنسيـة تقـوم المرجعيات الدِّينيَّة لدى أتباع الرسالات السَّماويَّة بمواجهتها والتصدي لها عبر مختلف الوسائل:

فالكنائس المسيحية تقوم بتوجيه المؤمنين من أتباعها إلى تحريم هذه الفواحش، وتدعوهم إلى التوبة وتطهير أنفسهم من الخطيئة، فقد توجه أحد السائلين إلى موقع الأنبا تكلا بسؤال قال فيه: (سؤال: أشعر بمشاعر غير طبيعية جنسيًا! ماذا يقول الكتاب المقدس عن الجنسية المثلية؟ وما هو الإثبات أن ذلك أمر غير سليم؟) فأجابه: بأن الإنجيل المقدس بعهديه القديم والجديد يُدِين ويُحَذِّر وينهى عن العلاقة بين اثنين من نفس الجنس! وأورَدَ له النصوص التي ذكرها البحث في الفقرات السابقة من هذا المبحث، ثم قال له: "هذه هي كلمة الله؛ كلمة الحق؛ تدين الشذوذ؛ تعاقب وتحذر الشواذ! تصرح بما لا شك فيه أن الشذوذ رجس!... وأما الزواج فهو بين رجل وامرأة، وما هو غير ذلك فهو شرٌّ حقيقي، وانحراف واضح عن فكر الله! مؤكداً أن الكنيسة تؤمن بأن كلمة الله ثابتة لا تتغير بمرور الزمن، أو تعاقُب الحضارات والثقافات، وأنها تؤمن بحقوق الإنسان وحريته، غير أن حرية المخلوق ليسَتْ مطلقة إلى حد التعدي وكسر شرائع الخالق، وأن الكنيسة تؤمن أن اللهَ يكره الخطيئة، ويحب الخاطئ، وختم جوابه بالقول: "الله يكره الشذوذ، ولكن يحب أن يأتي إليه الشواذ لنوال الشفاء والغفران"[2].

والمؤسسات الإسلامية وعلى رأسها الأزهر الشريف ترفض جميع المحاولات والضغوطات لشرعنة الشذوذ الجنسي؛ فقد أكد مركز الأزهر العالمي للفتوى الإلكترونية في بيان رسمي رفضَه القاطع لكل محاولات ترويج الشذوذ الجنسي وما يسمى بـ "زواج المثليين"؛ ولا سيَّما في العالم الإسلامي، كما يُعلن رفضَه القاطع تسمية هذا الشذوذ زواجًا، معتبراً إياه فاحشة مُنكرة، مخالِفة للفطرة الإنسانيَّة، وهادِمة للقيم الأخلاقية، وسلوكاً عدوانياً، يعتدي به فاعلُه على حقِّ الإنسانيَّة في حفظ جِنسِها البشري، وميولها الطبيعية بين نوعيها، وعلى حقِّ النشء في التربية السَّوية بين آباء وأمهات! مؤكداً أن الرسالات الإلهية تشكّل حائط صدٍّ لوقايَتِهم من هذه الأوبئة التي تهبُّ عليهم بين الحين والحين ممن لا يُقيمون أيَّ وزنٍ لهَدْي السماء، ودعواتِ المُرسلين والأنبياء عليهم السلام، وحِكمةِ العقلِ، ونداءاتِ الضَّمير.

(1) يُنظَر: موقع ويكيبيديا، حقوق المثليين حسب الدولة أو الإقليم، تاريخ الزيارة: (2023/3/12م). https://ar.wikipedia.org/wiki

(2) يُنظَر: موقع "الأنبا تكلا"، تاريخ الزيارة: (2023/3/12م).
https://st-takla.org/FAQ-Questions-VS-Answers/02-Questions-Related-to-Youth-and-Family__Al-Shabab-Wal-Osra/007-Notes-for-homosexuals-gays-n-lesbianas.html

ويَشدُّ الأزهر على أيدي الآباء والأمهات، والقائمين على المُؤسسات الإعلامية والثَّقافية والتَّربوية والتَّعليمية، لتعزيز القيم الدِّينيَّة والمُجتمعية القَويمة الرَّاقية، وتحصين الأجيال من الوقوع في براثن هذه الهَجَمَات، معرباً عن استنكاره الشَّديد لتلك الحملات غير الإنسانيَّة، وما تهدف إليه من هدم منظومة القيم الخُلقية والاجتماعية لمؤسسة الأسرة، والعبث بأمن المُجتمعات واستقرارها[1].

وبانتهاء هذا المبحث الذي تمت فيه المقارنة بين النصوص الدِّينيَّة في الرسالات السَّماويَّة الثلاث فيما يخص القيم الإنسانيَّة المشتركة؛ تنتهي فصول هذه الأطروحة ومباحثها، لنصل إلى النتائج والتوصيات في الخاتمة.

***

(1) يُنظَر: موقع "مصراوي"، تاريخ الزيارة: (2023/3/12م). https://www.almasryalyoum.com/news/details/2476235

إن ما تضمَّنتْه الرسالةُ الإسلامية السَّماويَّة الخاتمة المثبتة في القرآن الكريم وما صحَّ من كلام خاتم النبيين محمد ﷺ، وما حوَتْه من مقاصد تستهدف تحقيق مصالح العباد، وإسعادهم في الدنيا، وخلودهم في جنات النعيم في الآخرة؛ هذه المقاصد متفَق عليها بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث.

الخاتمـــة

وفيها:

- نتائج البحث.
- توصيات البحث.

الحمد لله في البدايات والنهايات، أولاً وآخراً، في الأولى والآخرة.

وبعد: فقد اكتملت أبواب هذه الأطروحة وفصولها ومباحثها، وعالجت المسائل المتعلقة بالقيم الإنسانيَّة المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثَّلاث: (اليهودية، المسيحية، الإسلام) من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم السلام وتعاليمهم في القرآن الكريم والكتاب المقدس، **وتوصلت إلى النتائج والتوصيات الآتية:**

أولاً: نتائــج البحـــث

1. إن الصراعات التي تتخذ من الدِّيانات ستاراً لها ليست صراعاً بين الأديان ورسالات السماء، وإن اتهام التعاليم الدِّينيَّة بإشعال الحروب ليس صحيحاً! فإن الله تعالى هو مصدر تعاليم جميع الأنبياء، فقد أنزل عليهم شرائعه بواسطة الوحي، ولا يتصور في العقل أن يأمر نبياً بقتل أتباع نبي آخر! وهذا معنى قوله تعالى في سورة البقرة: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**[1]، وإن ادعى أحدٌ وجودَ مثل هذه التعاليم فباعتقادي إما أن تكون غير صحيحة النسبة إلى الأنبياء عليهم السلام، وإما أنها لم تُفهَم في سياقها التاريخي؛ إذ فُسِّرَت على غير الوجه الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه ورسله.

2. إن المقصود بالقيم في هذا البحث: مجموعة من المبادئ التي تهتمُّ باحترام الإنسان، وحريّاتِه، وحقوقِه، وعِرضِه، ودمِه، وعقلِه، ونسلِه.

3. إن كلمة (الإنسانيَّة) يمكن تعريفها بأنّها ما يتميَّز به الإنسان من الأعمال الصالحة التي يقوم بها، فعندما يُقال عن شخص ما: إنّه يقوم بعمل إنساني؛ فمعنى ذلك أنّه يقوم بعمل يعود بالخير على البشر.

4. يُقصد بتعاليم الأنبياء عليهم السلام التي استند إليها البحث ما ذكره القرآن الكريم في قصصهم مع أقوامهم، وما أنزل عليهم من كتب سماوية، وما أوحى به إليهم من تشريعات ربانية، وقد ذكر القرآن الكريم عدداً من الكتب السَّماويَّة، ومنها: القرآن الكريم المنزل على خاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، والتوراة، وقد أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام، والإنجيل؛ وقد أنزله الله تعالى على سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، والمثبت من التوراة والإنجيل في العهدين القديم والجديد في الكتاب المقدس.

5. قامت فكرة البحث على افتراض وجود تكامل بين شرائع الأنبياء من حيث بناء الإنسانيَّة، وقد أثبت أن هنالك قيماً مشتركة - فعلاً - فيما بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث، علمها الأنبياء عليهم السلام لأتباعهم.

---

(1) سورة البقرة، الآية: (285).

6. ميثاق القيم الإنسانيَّة في شريعة نبي الله موسى عليه السلام، متفق تماماً مع ما جاء في تعاليم السيد المسيح نبي الله عيسى عليه السلام وما جاء في الشريعة الإسلامية السَّماويَّة الخاتمة الموحى بها إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وقد نص الميثاق على: عبادة الله وحده لا شريك له، والالتزام بالقول الحسن والكلام الطيب، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، والحفاظ على حرمة الدماء والأوطان، والبعد عن الربا، والحث على القرض الحسن لوجه الله، والتحلي بالتواضع وعدم التكبر على العباد، وعدم كتمان شيء مما أنزله الله، والإحسان إلى الوالدين والقرابة والأيتام والمساكين، والعدل والقصاص، وقيمة الحوار وقيمة إعانة الضعفاء، وقيمة العلم والصبر في تحصيله، وقيمة الاعتدال واليسر في الدين.

7. إن ما تضمَّنَته حياةُ نبي الله عيسى عليه السلام ورسالته السَّماويَّة مِن قِيَم تتفق تماماً مع ما جاء في تعاليم نبي الله موسى عليه السلام وخاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ حيث برزت قيمة تربية الإنسان في بيت آل عمران، كما تأكدَت قيمة حفظ الأعراض بكونها من المقاصد الكبرى للشرائع السَّماويَّة، وقد برزَت هذه القيمةُ في التحديات التي تعرَّضت لها مريم بنت عمران عليها السَّلام؛ حيث شهد الله سبحانه بطهرها وبراءتها، بالإضافة إلى قيمة حياة الإنسان والحفاظ على صحته، وقيمة إطعام الجائعين في معجزة المائدة من السماء، وقيمة السَّلام التي وردت على لسان عيسى عليه السلام حين نطق في المهد صبياً!

8. إن ما تضمَّنتْه الرسالةُ الإسلامية السَّماويَّة الخاتمة المثبتة في القرآن الكريم وما صحَّ من كلام خاتم النبيين محمد ﷺ، وما حوَتْه من مقاصد تستهدف تحقيق مصالح العباد، وإسعادهم في الدنيا، وخلودهم في جنات النعيم في الآخرة؛ هذه المقاصد متفَق عليها بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث.

9. الكرامة الإنسانيَّة قيمة سامية في الرسالات السَّماويَّة الثلاث، فقد اتفقَت على تقديس كرامة الإنسان، وتفضيله على سائر المخلوقات، وتسخير الكائنات له.

10. اتفقَت النصوصُ الدِّينيَّة في القرآن الكريم والكتاب المقدس على تقديس قيمة حياة النفس الإنسانيَّة وحرمتها، فحياة الإنسان مقدَّسَة في الرسالات السَّماويَّة الثلاث، وهي من المقاصد الكبرى التي جاءَت التشريعات الربانية بحفظها، وتحريم الاعتداء عليها، وتعظيم حرمتها وقدسيتها، ونصت التشريعات القرآنية على إنزال أشد العقوبات بحق الذين يرتكبون الجرائم، وينتهكون حياة الآخرين، وتُصَرِّح نصوص الكتاب المقدس كذلك بالعقوبات الرادعة بحق من يسفك دم الإنسان، وينتهك حرمة النفس الإنسانيَّة.

11. السَّلام من القيم المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث؛ حيث اتفقَت النصوص الدِّينيَّة على إعلاء قيمة السَّلام، والحث على صنعه، وإفشائه بين الناس؛ ففي النصوص القرآنية والنبوية ما يؤكِّدُ أنَّ السَّلام مِن مقاصد الإسلام، والمدقق يرى أن الإسلامَ شقيق "السَّلام" كلاهما مشتق من مصدر واحد في اللغة العربية، وقد وردَتْ كلمةُ "السَّلام" ومشتقاتها في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة، ومن تأكيداتها: أن الله تعالى هُوَ السَّلام، وَالسَّلام منة ربانية منحها الله تعالى للأنبياء والمرسلين، وإِنَّ أَوَّلَ ما قالَه محمدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلام»**[1]، وأما نصوص الكتاب المقدس فقد اتفقَت على إعلاء قيمة السَّلام؛ فقد أطلقَ الإنجيلُ على الله تعالى بأنه إله السَّلام[2]، وأكَّدَ أنَّ إلهَ السَّلام سيهزم الشيطان[3]، ويدعو إنجيل لوقا إلى صنع السَّلام في الأرض، فيقول: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السَّلام، وبالنّاس المسرّة"[4]، وقد ورد في إنجيل متى تقديس السَّلام: "طوبى لصانعي السَّلام"[5].

12. ولا يتوقَّف الكتابُ المقدَّس عند الحث على السَّلام، بل يدعو إلى العفو والتسامح والمحبة لتحقيق السَّلام، ففي إنجيل متى نجد: "وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ"[6]، وهذا النص غاية في الرقي والإحسان الذي دعا إليه القرآن الكريم: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ}**[7]، كما تجلى تسامحه في دعائه للذين حاولوا قتله، أو الذين صلبوه وقتلوه بحسب نصوص الكتاب المقدس: "فَقَالَ يَسُوعُ: يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ"[8]، ومثل هذا الموقف في العفو والتسامح جرى مع النبي سيدنا محمد ﷺ حين آذاه قومه، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ؛ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»**[9].

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، مصدر سابق، كتاب: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: بابٌ، رقم: (2485)، وقال: "هذا حديث صحيح"، وابن ماجه في سننه، مصدر سابق، كتاب: الأطعمة، باب: إطعام الطعام، رقم: (3251).

(2) يُنظَر: رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [33/15].

(3) يُنظَر: رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية، [20/16].

(4) إنجيل لوقا، الإصحاح: (2)، فقرة: (14).

(5) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (19).

(6) إنجيل متى، الإصحاح: (5)، فقرة: (44).

(7) سورة المؤمنون، الآية: (96).

(8) إنجيل لوقا، الإصحاح: (23)، فقرة: (34).

(9) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم: (3477)، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، رقم: (1792).

13. إن قيمة التراحم بين الناس مما اتفقَتْ عليه الرسالاتُ السَّماويَّة الثلاث: ففي الرسالة الإسلامية الخاتمة: أرسلَ اللهُ خاتم رسله محمداً ﷺ رحمة للعالمين، قال الله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}**[1]، وإن القارئ لسيرة نبينا محمد ﷺ ليجدُ أنهُ كانَ رحمةً عامة تشملُ المؤمن وغير المؤمن، والإنس والجن، والحجر والشجر، والجمادات والعجماوات، وقد جرى التركيزُ في هذا المبحث على قيمة الرحمة وآثارها في التراحم بين بني الإنسان في الدنيا، وخاصة الرحمة بالطفولة، والرحمة بالمرأة، والرحمة بالضعفاء والمساكين، ويؤكد الكتاب المقدس قيمة التراحم الإنساني، ويحث على الرحمة بالبؤساء والمحرومين، بل ويجعل إطعام الجائعين وإعطاء المساكين والمحتاجين من الضرورات التي تبيح المحظورات، وتؤكد الروايات الإسلامية التي تنقل أقوال السيد المسيح عليه السلام قيمة التراحم الإنساني.

14. تتفق الرسالات السَّماويَّة الثلاث على صيانة الأعراض وحماية النسل كمقصد رئيس من مقاصدها التشريعية، وتضبط الأسرة والمجتمع بعدد من القيم التي تحقق هذا المقصد الإنساني العظيم، وتستند في ذلك إلى أصل تكوين الخليقة، وما ورد في تعاليم الأنبياء الموحى بها من الله تعالى، ففي النصوص القرآنية تأكيد قيمة الاحترام والمودة بين الزوجين، وقيمة العلاقات الجنسية السليمة المنسجمة مع الفطرة الإنسانيَّة، وفي نصوص الكتاب المقدس تأكيد القيم النبيلة للحياة الزوجية وتقديس لها، ولا تختلف نصوص الكتاب المقدس عن مقاصد التشريعات الربانية في الحفاظ على الأعراض والنسل؛ حيث تحرم الزنى والشذوذ الجنسي، فقد أجمعت الشرائع السَّماويَّة الثلاث على تحريم هذه الفاحشة، وتجريم أصحابها، وإيقاع العقوبة المناسبة المقررة بحقهم.

***

(1) سورة الأنبياء، الآية: (107).

ثانيـاً: توصيـات البحـث

بناء على ما تقدم فإن البحث يوصي بما يأتي:

- **أولاً:** تبنِّي إعداد رؤية استراتيجية تشترك فيها المؤسسات الأكاديمية مع المؤسسات الدِّينيَّة ذات الصلة بالرسالات السَّماويَّة الثلاث؛ لتصحيح المفاهيم وتجلية الحقائق، لتأكيد براءة الرسالات السَّماويَّة من تهمة إشعال الحروب الدِّينيَّة والطائفية وبث الكراهية بين الشعوب، وبيان أن تعاليم الأنبياء تدعو إلى الحب بدل الحرب؛ والسَّلام بدل الخصام؛ والتسامح بدل الانتقام.
- **ثانياً:** دعوة المؤسسات والمرجعيات الدِّينيَّة الرسمية التي تقوم بتوجيه أتباع الرسالات السَّماويَّة الثلاث للتعاون والحوار الإيجابي البناء، والتعايش السلمي، وإعلاء القيم الإنسانيَّة المشتركة التي تناولها البحث، وحث أتباعها على احترام الآخر المختلف معها في الدين والمعتقد والمذهب، مع المحافظة على الخصوصية الشعائرية والتعبدية لدى أتباع كل شريعة ومذهب.
- **ثالثاً:** تنظيم فعاليات مشتركة بين المرجعيات الدِّينيَّة حول المشترك الإنساني بين الرسالات السَّماويَّة، وإيصال رسائل إيجابية لأتباع الأنبياء في التسامح الديني والتعايش السلمي، والاقتداء بالأنبياء عليهم السلام الذين نصَّتْ حياتُهم وتعاليمهم على قيم التسامح والمحبة والسَّلام.
- **رابعاً:** إطلاق مبادرات مشتركة بين المؤسسات الدِّينيَّة والمجتمعية والأكاديمية للتصدي للتيارات المتطرفة التي تدعو إلى قتل الآخر بمبررات دينية، وتستند في ممارساتها الإجرامية إلى تفسيرات لنصوص دينية، وإعلان المرجعيات الدِّينيَّة والمجتمعية أن هذه الممارسات تبرأ منها جميع الرسالات السَّماويَّة.
- **خامساً:** توحيد الجهود المشتركة في مواجهة السيول الجارفة التي تستهدف القيم الإنسانيَّة، وتسعى لسلخ الإنسان عن كرامته ودينه وقيمه، وتدفعه إلى ممارسات تدمر منظومة القيم الإيمانية والأخلاقية التي تناقض الفطرة الإنسانيَّة السليمة والسوية.
- **سادساً:** دعوة المؤسسات الأكاديمية لتكليف الطلبة والباحثين بتعميق الدراسات الأكاديمية التي تستخرج الكنوز الدفينة التي تدعو إليها رسالات السماء، وتسلط الضوء من جديد على المشترك الإنساني في تعاليمها، وتؤكد آثارها الإيجابية في البناء الحضاري الإنساني.
- **سابعاً:** إنشاء محطة فضائية ومنصات رقمية لنشر القيم الإنسانية المشتركة وترسيخ قيم التعايش الإنساني.

***

هذا، وقد فرغ البحث في ليلة من ليالي القدر هي ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك عام (1444هـ)، الموافق للسادس عشر من شهر نيسان (أبريل) عام (2023م) في دارنا في أبوظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، فإن أصبتُ فمن الله؛ وإن أخطأتُ فمن نفسي.

ونختم بالصلاة والسَّلام على سيدنا ونبينا محمد، وعلى أبيه سيدنا إبراهيم، وعلى أخويه سيدنا موسى وعيسى، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم، ومن اهتدى بهديهم، وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه:

د. محمد بسام رشدي الزين

غفر الله له وتغمد والديه بواسع الرحمات

***

التسامح الديني هو التعايش
مع الناس جميعاً، وإرادة الخير لهم،
وعدم التمييز فيما بينهم
بسبب اللون أو الجنس أو الجنسية
أو الدين أو المذهب أو الطائفة.

فهـرس المصـادر والمراجـع

أولاً: المراجــع المطبوعـــة

1. القرآن الكريم
2. إنجيل برنابى
3. إنجيل لوقا
4. إنجيل متى
5. إنجيل مرقس
6. إنجيل يوحنا
7. رسالة بولس الرّسول الأولى إلى أهل كورنثوس
8. رسالة بولس الرّسول الثّانية إلى أهل كورنثوس
9. رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس
10. رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية
11. سفر أعمال الرسل
12. سفر الأَمْثَال
13. سفر التثنية
14. سفر التكوين
15. سفر الخروج
16. سفر العدد
17. سفر اللاوين
18. سفر اَلْمَزَامِيرُ
19. سفر أيوب
20. سفر زكريا
21. سفر يشوع
22. إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثالثة.
23. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي، الحنظلي، الرازي (ت 327هـ)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، الطبعة الثالثة، (1419هـ).
24. ابن أبي زَمَنِين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى المري، الإلبيري، المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (ت 399هـ)، تفسير القرآن العزيز، تحقيق حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، مصر - القاهرة، مكتبة الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، (1423هـ - 2002م).
25. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي (المتوفى: 235هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، (1409هـ).
26. ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، الطبعة الأولى.
27. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري (ت 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، (1399هـ - 1979م).
28. ابن السراج؛ أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، بيروت، الطبعة الثالثة، (1988م).
29. ابن المنذر؛ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، كتاب تفسير القرآن، دار المآثر، الطبعة الأولى، (1423هـ، 2002م).
30. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني المَوصِليّ النحوي (1972)، اللّمع في العربية، دار الكتب الثقافية.
31. ابن حبان، محمد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التّميمي البستي (ت 354هـ)، صحيح ابن حبان = المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها، بيروت، دار التأصيل، الطّبعة الثّانية، (1414هـ - 1993م).
32. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشّافعي، أبو الفضل (ت852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، (1379هـ).

33. ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشّافعي، أبو الفضل (ت 852ه)، هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، الطبعة: الأولى، (1422ه)
34. ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشّافعي، أبو الفضل (ت 852ه)، لسان الميزان، تحقيق دائرة المعارف النظامية - الهند، نشر في بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، (1390ه - 1971م).
35. ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1419ه - 1998م).
36. ابن عاصِم، محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي، أبو يحيى، قاض وزير، من بلغاء الكتَّاب، كان ينعت بابن الخطيب الثاني، (ت 857 ه)، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق: صلاح جرار، الأردن، دار المازري، (1410ه – 1989م).
37. ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، (1423ه - 2002م).
38. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسيّ، تفسير ابن عطية = المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الطّبعة الأولى، (1977م).
39. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت751ه)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، (1393ه - 1973م).
40. الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (1408ه - 1988م).
41. الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، القاهرة، مطبعة دار التأليف، الطبعة الأولى، (1388ه - 1968م).
42. الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية (من البداية والنهاية)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، (1395ه - 1976م).
43. الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ط2، (1420ه - 1999م).
44. ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273ه)، سنن ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي)، د.ت.
45. ابن منظور، محمَّد بن مكرم بن علي (ت1414ه)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة.
46. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213ه)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، (1375ه - 1955م).
47. أبو الحسن الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (ت 450ه)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1419ه - 1999م).
48. أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت 982ه)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
49. أبو الفرج، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، (1427ه)، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.
50. أبو الفيض، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي (ت1205ه)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، غزة، دار الهداية، د.ت.
51. أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310ه)، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، (1387ه - 1967م).
52. أبو حاتم الرازي، محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الرازي (ت 277ه)، الزهد، دار أطلس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (1421ه - 2000م).
53. أبو داود، سليمان بن الأشعث السَّجِسْتاني (ت 275ه)، المراسيل، بيروت، مكتبة التراث، الطبعة: الأولى، (1408ه).
54. أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: 241ه)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الحديث، الطبعة الأولى، (1421 ه - 2001م).

55. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت516هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، ط4، (1417هـ - 1997م).

56. أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ)، الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1420هـ - 1999م).

57. أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق: محمَّد الصادق قمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1405هـ).

58. أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، (ت 974هـ)، الزواجر عن اقتراف الكبائر، مكتبة العلوم الإسلامية الطبعة: الأولى، (1407هـ - 1987م).

59. الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك المدني (المتوفى: 179هـ)، موطأ الإمام مالك، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، (1406هـ - 1985م).

60. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (المتوفى: 256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، (1422هـ).

61. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: 292هـ)، مسند البزار = البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، (1988م).

62. البستي، أبو محمد إسحاق بن إبراهيم القاضي (ت 307 هـ)، تفسير إسحاق البستي، (1413 - 1416هـ).

63. البقاعي؛ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، (1415هـ - 1995م).

64. البوصيري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الكناني الشافعي (ت 840هـ)، مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، بيروت، دار العربية، الطبعة الثانية، (1403هـ).

65. البيضاوي، ناصر الدين البيضاوي عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار إحياء التراث.

66. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، (1424هـ - 2003م).

67. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، (المتوفى: 458هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1405هـ).

68. البيهقي، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين (ت 458هـ)، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، (1423هـ - 2003م).

69. الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، تفسير الجلالين، القاهرة، دار الحديث، الطبعة الأولى.

70. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)، المستدرك على الصحيحين، متضمناً تعليقات الذهبي في التلخيص والميزان، والعراقي في أماليه، والمناوي في فيض القدير وغيرهم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1411هـ – 1990م).

71. حسن السّيّد عزّ الدّين بحر العلوم، الأصول المشتركة للأديان، بيروت، دار العارف، الطبعة الأولى، (2013م).

72. الحضرمي؛ محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، بيروت، دار الحاوي، الطبعة الأولى، (1998م).

73. الخازن؛ علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن، بيروت، دار الكتب العلمية، (1399هـ - 1979م)

74. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر (ت463هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، (1422هـ - 2002م).

75. الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، شرف أصحاب الحديث، تحقيق محمد سعيد خطي أوغلي، أنقرة، دار إحياء السنة النبوية.

76. خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، (2002م).

77. الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب = تفسير الرازي = التفسير الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1421هـ - 2000م).

78. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، (المتوفى: 748هـ)، سير أعلام النبلاء، بيروت، دار الحديث، (1414هـ - 1994م).

79. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، (1415هـ – 1995م).
80. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة، (2009م).
81. الزَّوْزَني، أبو عبد الله حسين بن أحمد بن حسين (ت 486هـ)، شرح المعلقات السبع، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (1423هـ - 2002م).
82. السَّخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ)، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق محمد عثمان الخشت، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، (1405هـ - 1985م).
83. السمرقندي؛ أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، بحر العلوم، تحقيق: د.محمود مطرجي، بيروت، دار الكتب العلمية.
84. السهيلي؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (1421هـ - 2000م).
85. السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر (ت: 911هـ)، الخصائص الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، (1405هـ - 1985م).
86. السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرَّحمن بن أبي بكر، (ت:911هـ)، الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، مركز معجم البحوث، (1993م).
87. السّيوطي، عبد الرَّحمن بن أبي بكر، أبو الفضل (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974
88. الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشافعي (ت 977هـ)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، القاهرة، مطبعة بولاق - الأميرية، (1385هـ).
89. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1415هـ).
90. الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، (1419هـ - 1999م).
91. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، (المتوفى: 360هـ)، المعجم الكبير، الطبعة الثانية.
92. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة، دار الحرمين.
93. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك = تاريخ الطبري، بيروت، مؤسسة الأعلمي، الطبعة الرابعة، (1403هـ - 1983م).
94. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت864هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار إحياء التُّراث العربي.
95. الغزالي، أبو حامد، محمَّد بن محمد (ت505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (1994م).
96. غسان سليم سالم، محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، (2004م).
97. القاضي عياض، أبو الفضل عياض اليحصبي السبتي المالكي المغربي (ت: 544)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية (1423هـ - 2002م).
98. القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي (ت544هـ)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة ودار التراث، الطبعة الأولى.
99. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، (1384هـ - 1964م).
100. القسطلاني، أحمد بن محمَّد بن أبى بكر القتيبي المصري أبو العباس (توفي 923هـ)، إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري = شرح القسطلاني، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، الطبعة السابعة، (1323هـ).
101. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، النكت والعيون – تفسير الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت، دار الكتب العلمية.
102. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، (1984 م).

103. محمد بن جرير بن يزيد الطّبري (ت310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن = تفسير الطبري، دار التربية والتراث مكة المكرمة، (1420هـ - 2000م).

104. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (1250هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دمشق، دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى، (1414هـ).

105. المراغي، أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

106. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

107. لنسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)، السنن الصغرى للنسائي = المجتبى من السنن، دار التأصيل (1406هـ – 1986م).

108. النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بيروت، دار الكلم الطيب، (1998).

109. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، (1392هـ).

110. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 807هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، (1414هـ، 1994م).

111. ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (ت626هـ)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر.

112. الواحدي؛ أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه، (1388هـ - 1968م).

***

ثانيــاً: المراجــع الإلكترونيـــة

113. م رعد كاظم عزيز، بحث بعنوان: "الخضر بين النّبوة والولاية والحياة والموت"، مجلة أوراق ثقافية، العدد (16) السنة الثالثة، خريف (2021م)،
https://www.awraqthaqafya.com/1580

114. محمد عابد الجابري، مقال: "قيم ثقافة السَّلام في الدِّيانات السَّماويَّة في حوار الدِّيانات"، قسم الدراسات، موقع "حكمة"، https://hekmah.org، منشور بتاريخ: (2016/12/09م).

115. معجم الأسماء والمعاني، موسى،
https://meaningnames.net

116. موسوعة التفسير الموضوعي،
https://modoee.com

117. موقع "اسأل الكتاب المقدس"،
https://bibleask.org

118. موقع الأنبا تكلا هيمانوت،
https://st-takla.org

119. موقع بيت الحكمة،
http://baytalhikma.iq

120. موقع زيادة،
https://www.zyadda.org

121. موقع فيسبوك، صفحة "تأملات في الكتاب المقدس"،
https://ar-ar.facebook.com/295287647191133

***

فهـرس الموضوعـات

الإهــداء	11
المقدمــة	12
التمهيـــد: التكامل بين الأنبيـاء عليهم السلام في بنـاء الإنسانيَّـة	**32**
الباب الأول القيم الإنسانيَّة في حياة نبي الله موسى عليه السلام من خلال القرآن الكريم	**38**
الفصل الأول: حيـاة موسى عليه السلام في القرآن الكريم	39
المبحث الأول: موسى عليه السلام من النشأة إلى الرسالة	40
■ المطلب الأول: التعريف بشخصية نبي الله موسى عليه السلام	42
■ المطلب الثاني: ولادة موسى عليه السلام	44
■ المطلب الثالث: موسى عليه السلام في قصر فرعون	48
■ المطلب الرابع: زواج موسى عليه السلام	50
■ المطلب الخامس: تكليف موسى عليه السلام بالرسالة	53
المبحث الثاني: موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون	58
■ المطلب الأول: حوار موسى عليه السلام مع فرعون	59
■ المطلب الثاني: إيمان السحرة، ونهاية فرعون	63
المبحث الثالث: موسى عليه السلام مع بني إسرائيل	70
■ المطلب الأول: طلبهم منه أن يجعل لهم إلهاً مجسداً	71
■ المطلب الثاني: عبادتهم لعجل السامري وتوبتهم منه	72
■ المطلب الثالث: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة	77
المبحث الرابع: موسى عليه السلام مع العبد الصالح	80
■ المطلب الأول: التعريف بالعبد الصالح	81
■ المطلب الثاني: البحث عن العبد الصالح	82
■ المطلب الثالث: لقاء موسى والخضر	85
■ المطلب الرابع: أحداث رحلة موسى والخضر	87
■ المطلب الخامس: تفسير حقيقة الأحداث	91
■ المطلب السادس: حقيقة العبد الصالح (الخضر)	93
الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة في حياة موسى عليه السلام	96
المبحث الأول: ميثاق القيم الإنسانيَّة في قصة موسى عليه السلام	97
المبحث الثاني: القيم الإنسانيَّة في صلة الإنسان بربه سبحانه	100
المبحث الثالث: القيم الإنسانيَّة في العلاقة مع الآخر	105

الباب الثاني: القيم الإنسانيَّة في حياة روح الله عيسى ابن مريم عليه السلام من خلال القرآن الكريم	**114**
الفصل الأول: حيـاة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم	**115**
المبحث الأول: التعريف بشخصية عيسى عليه السلام	**116**
المبحث الثاني: ولادة عيسى عليه السلام	**125**
المبحث الثالث: رسالة عيسى عليه السلام	**134**
المبحث الرابع: معجزات عيسى عليه السلام	**138**
المبحث الخامس: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء	**144**
الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة في حياة عيسى عليه السلام وتعاليمه	**148**
المبحث الأول: قيمة تربية الإنسان	**149**
المبحث الثاني: قيمة حفظ الأعراض	**151**
المبحث الثالث: قيمة حياة الإنسان والحفاظ على صحته	**154**
المبحث الرابع: قيمة إطعام الجائعين	**156**
المبحث الخامس: قيمة السَّلام	**158**
الباب الثالث: القيم الإنسانيَّة في رسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ من خلال القرآن الكريم ومقارنتها بالقيم الإنسانيَّة في الكتاب المقدس	**164**
الفصل الأول: معالم سيرة خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ في القرآن الكريم	**165**
المبحث الأول: التعريف بمحمد ﷺ من خلال القرآن الكريم	**166**
المبحث الثاني: معنى شهادة أن محمداً رسول الله	**186**
المبحث الثالث: الوظائف الأساسية لرسالة سيدنا محمد ﷺ	**194**
المبحث الرابع: مواقف قريش من رسالة سيدنا محمد ﷺ وحكمته ﷺ في التعامل معها	**210**
الفصل الثاني: القيم الإنسانيَّة المشتركة بين الرسالات السَّماويَّة الثلاث	**220**
المبحث الأول: قيمة النفس الإنسانيَّة وكرامتها	**221**
المبحث الثاني: قيم السَّلام والتسامح والإحسان بين بني الإنسان	**227**
المبحث الثالث: قيمة التراحم بين بني الإنسان	**237**
المبحث الرابع: القيم الأسرية والاجتماعية	**246**
الخاتـمة	**260**
فهرس المصادر والمراجع	**268**
■ المراجـع المطبوعـة	**269**
■ المراجـع الإلكترونيـة	**274**
فهرس الموضوعات	**276**

ISBN 978-9948-733-87-4